أحمد خالص الشعلان

خماسيةُ السُخْط..

ويَصِح قَولُ الْجَدّات!



رواية

الخماسية توفر متعة قراءة سواء قُرِئَت كُتُبها فرادى أو مجتمعة

الكتاب الثاني



2018



خماسيةُ السُخْط..
و يَصِحّ قَولُ الْجَدات!

روايـــــة

أحمد خالص الشعلان

أسم الكتـاب : خماسية السخط... ويصح قول الجدات !
تــأليـــف: احمد خالص الشعلان
القيـــــاس :١٥سم × ٢٣سم
عدد الصفحات: ١٧٦صفحة
الاخـراج الفني: نهلة نشأت الشمري
سنــــة الطــبع:١٤٣٩هـ - ٢٠١٨ م
النـاشــــــر :مؤسسة ثائر العصامي





رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٣٧ لسنة ٢٠١٨

و مرة أخرى . .

إلـــى روح أمـــــي



تَقَلّبُ التَيهِ و الذِكرى

غرفة لا تتجاوز مساحتها العشرين مترا . . لولا صغر مساحتها النسبي و إفتقارها لبعض الأساسيات لكانت من نوع إعتاد ناس عمان على تسميتها . . ستوديو . . حمام داخلي و عند المدخل في ظهر الحمام تُرك فيها ركن صغير لا تتعدى مساحته ثلاثة أمتار ليكون ميني- مطبخ. الغرفة مزودة بكنبة تنقلب سريرا عند الحاجة و طاولة معها كرسيين و دولابين يصلحان مكتبة و خزانة طعام أو أي شئ آخر . . و سيجدها حمدان أفضل من الغرفة التي سكنها حوالي شهرين من قبل في جبل الحسين عند مجيئه الى عمان أواخر السنة الفائتة ليستطلع فرص العمل فيها. و أجمل ما وجده في الغرفة هو وحدته في المكان دون شريك . . ملكٌ أنت فعش وحيدا! . . و بعد مغادرة صديقه الرسام محمد الفنان سرعان ما غيّر حمدان ملابسه و أستلقى ليسترخي من إعيائه محاولا الإخلاد الى النوم . . و غفى.

يصحو من نومه و الساعة تجاوزت الرابعة عصرا . . غريزة التعرف المكان المحيط الذي يسكن فيه بإستجلائه . . هرم ماسلو! . . لبس روبه و غادر الغرفة. و فاتحا باب السطوح المقابل لباب غرفته خرج الى فضاء سطح العمارة. السماء ما تزال تشوبها بعض الغيوم بعد توقف مطر الذي سبحت به عمان بالأمس نهائيا. و تتوجه عيناه صوب الغرب، فتلوح له الشمس حمراء غاربة من وراء غيوم رمادية تتناثر في السماء و تلوّنها تارة بالأحمر و تارة بالبرتقالي و الأصفر . . و حين تسمح الغيوم لقرص الشمس لإظهار نفسه، يلوح في الأفق أصفر محمرا و ذاويا تقريبا، فيذكّره بالأمير الصغير كانن دي سنت إگزوبري[1]، الكوني البطولي الذي لا يجد لنفسه سلوى في غربته إلا بمشهد غروب الشمس، فيعتصره قلبه و يردد في سره . . لست أميرا و لو حتى متناهيَ الصغر و لست كائنا كونيا! . . و إستدار نحو الشمال فواجهته من فوق العمارة واجهة . . سي تاون . . مركز التسوق في الصويفية و قد غمرتها الأضواء فحوّلتها الى شعلة من نور. و سرعان ما ذكّره مشهد سي تاون بإحتياجاته التي يريدها

---

[1] اشارة الى رواية "الأمير الصغير للكاتب الفرنسي انطوان دي سنت اكزوبري

في الشقة، فعاد الى غرفته ليغير ملابسه و يخرج كي يلبي إحتياجات عيشه في المكان.
يدخل سي تاون . . يريد أن يشغل نفسه بأي شئ يلهيه عن التفكير في موضوع إستفسار أجهزة الأمن في مدينته بعقوبة عنه، ما قد يحرّمه حتى مماته من العودة الى مدينة ذكرياته . . فتغرورق عيناه بالدمع بضغط من الذكريات و الغربة . . لمياء و ذكرياته معها في بغداد . . بثينة الصفار و ما حصل في طرابلس الغرب . . و حرمانه من العودة الى بعقوبة . . كبت دمعه و مسح عينيه بمنديل يذكره بلمياء و ما أكثر ما كانت تستعير منه واحدة من هذه الخرق التي كان يسميها مناديلا لكي تستعمله . . و لكن نظيفة و مكوية . .
لم يكن يدري أنه بسرحانه واقفا كان قد قطع الطريق على الناس الذين خلفه في المدخل الداخلي الرئيس لمركز التسوق، فإنتبه الى العامل يتطلع إليه مخاطبا:
- أستاز . . لو سمحت . . بدنتيّاك توَسّع شوي للناس اللي وراك!
فإعتذر، و مضى قدما ليكتشف أن الطابق الأرضي مخصص للأغذية و العدة المنزلية حسب. و تسلق السلم الأوتوماتيكي بإتجاه الطابق الأعلى . . و هناك راح يدور بين الأقسام تائها . . ألبسة . . ساعات . . هدايا . . قرطاسية . . شئ لم يألفه لا في مدينته بعقوبة . . ثم توقف أمام قسم للكتب و راح يتطلع الى العناوين المختلفة و المتنوعة فنفر منها جميعا، بخاصة تلك التي تتحدث عن بلاوي صدام . . ما الذي يريد القوم أن يقولوا لنا عنه؟ . . طيط! . . طززززززز! . . عفطة بطيز اللي ما يصلي على النبي و على اللي سواه صدام! . .
ثم توقف أمام كتاب ذكره بما كان عنده في البيت في بعقوبة و إعتاد على تسميته . . قرآن أم كلثوم . . هنا قرآن فيروز و أغانيها، فرفعه و تصفحه، و يطلع على السعر المثبت عليه، فيجد جيبه لا يستطيع التفريط بمبلغ خمسة دنانير في ظرفه الجديد، بخاصة و أنه لا تصور عنده عما تخبئه له الأيام في عمان، فيرجع الكتاب الى مكانه مع إحساس بالجوع و لم يكن قد تناول شيئا منذ الصباح بعد أن ودع بثينة الصفار عائدة الى بعقوبة . . إنحدر الى الطابق الأرضي و أشترى قدرين صغيرين و غلاية شاي و صحون بلاستيكية و ملاعق و

أكواب و شاي و سكر و رز و معجون و زيت و ملح و جبنا مطبوخا و خبزا و قنينة ماء . . حمل الذي إشتراه عائدا الى الشقة مشيًا.
في الشقة شعر بإعياء شديد بعد صعوده السلم بهذا الحمل الثقيل. و مع ذلك، أراد أن يصنع شايا، و حاول إيقاد الموقد الغازي الصغير و يخفق بسبب نفاذ الوقود . . و أضطر الى أكل قطعة جبن مع الخبز و شرب فوقها ماء ثم راح ليستلقي على الكنبة الوحيدة في الغرفة.
لم تكن علاقته بمنطقة الصويفية جديدة . . قبل بضعة أشهر و أثناء وجوده في عمان ظل لمدة أكثر من شهر يبحث عن فرصة للعمل و لم يجدها. فرص العمل في أية جامعة أو كلية كانت تقريبا معدومة، فراح آنذاك يبحث عن فرصة عمل فيما يسمى في عمان كليات المجتمع و هي كليات جامعة أقرب منها للمعاهد و الثانويات من الكليات، و ها هنا وجد الأفق أيضا في الغالب محبطا. و لأنه إعتاد على العمل في المدارس طيلة ثلاثين عاما، أضطر للبحث عن فرصة عمل في مدارس عمان . . ذهب أولا الى شميساني حيث المدارس الإنگليزية الحديثة و لم يوفق . . و الى كلية تارازانتا في جبل لويبدا، شبيهة بكلية بغداد في أغلب نواحيها . . دخل ملقيا التحية و لم يتحدث بغير الإنگليزية . . فبادرته سكرتيرة العميد معلقةً:

- I can guess. You're Iraqi!

فيرد متفاجئا:

- Oh! My goodness! How come and you could so easily guess!
- Simpley, because you, the Iraqis, are the best who speak Standard English in the Middle East, and your dilect seems so!
- Appreciated!
- Welcome. This is definitely true.

أن نكون نحن العراقيين أفضل من يتحدث الإنگليزية القياسية في الشرق الأوسط . . بِمَ نفعنا هذا؟ . . طيطا! . . و جاءه الجواب مطابقا لتوقعاته . . في كلية تارازانتا قالو له . . حظا طيبا في العام القادم! . . و من سخطه خاطب الريح . . ها! . . لعد إحنه شگلنه! . . عفطة بطيز اللي ما يصلي على النبي و على صدام! . . و سيقوم

بما يعدّه آخر محاولة مع المدرسة الأمريكية في الصويفية. و هناك أيضا تمنوا له حظا طيبا في عام تالٍ.

غادر المدرسة الأمريكية في حينها . . و لكي يصل الى الشارع العام حيث باصات الركاب، سلك الطرق الفرعية حيث سوق الصويفية. و هو يمشي هناك يائسا و ساخطا أشد السخط، سمع أحدا ما من سيارة مارة تسير مبطئةً الى جانبه يخاطبه:

- أستاذ حمدان في عمان . . هذي مفاجئة و لا في الجنان!

و الى يمينه وراء مقود السيارة التي توقفت يرى أحد تلامذته قبل ثلاثين عاما تقريبا في قرية خرنابات . . شفيق النبلاني . . ينزل و يسلم عليه و يسأله تلميذه:

- أنت هنا! . . إستاذي . . من شوكت أنت بعمان؟
- أكثر من شهر.
- إنت تدري آني هنا بعمان! . . و إنت أكثر من شهر بعمان و آني ما أدري . . عتبي عليك أستاذي!
- شفيق . . أنت تلميذي . . و أنت زين تدري آني ما أحب أتطفل على أحد!
- على عيني! . . و لا يهمك! . . هسه گوللي شتسوي هنا بصويفية؟
- بحثا عن عمل . . گبل شوية چنت هناك بالمدرسة الأمريكية.

و يحدثه حمدان عن مساعيه في البحث عن عمل و إخفاقه . . فيدعوه الرجل الى الصعود الى سيارته:

- تفضل أستاذ . . إركب ويايه . . مكتبي قريب من هنا!

لم تسر السيارة أكثر من مائتي متر لتنعطف يمينا و تتوقف بعد حوالي ثلاثين مترا أمام عمارة باذخة . . دخلا العمارة التي أُخِذ حمدان بتصميمها و بنائها . . لم يرَ لها مثيلا في بغداد . . صعودا الى الطابق الرابع و عند مدخل الشقة إستقبلتهم السكرتيرة و قدمه شفيق لها قائلا:

- رولا!
- نعم أستاز شفيق؟
- هذا أستاذ حمدان . . معلمي قبل ثلاثين سنة . . مرحب به دائما أثناء غيابي.

دخلا مكتب شفيق الفاره جدا . . و تُرِك الباب مفتوحا. جلسا و شفيق يسأله عن أخبار بعقوبة، فأخبره حمدان أنه لم يأت من بعقوبة بل من ليبيا. و كذب حين سوّق له ببضعة كلمات التخريج المناسب لذهابه الى ليبيا و العودة منها. بعد شرب القهوة سوية في المكتب بادر شفيق:

- فهمت منك بالطريق . . أن فرص عملك بشهادتك الجامعية العليا و الدنيا . . تكاد تكون معدومة تقريبا!
- صحيح!
- يعجبك العمل وياي؟
- و شراح أشتغل عندك بالضبط؟

و أشار له شفيق نحو غرفة مقابل مكتبه . . رادا:

- و كيل مبيعات . . و راح يكون ذاك مكتبك!
- و شراح أبيع؟
- في الواقع . . بالوقت الحالي ماكو شي راح تبيعه . . عندنا حقل دواجن و مزرعة زيتون تحت الإنشاء قرب الحدود السورية . . و راح يكون أكو شي تبيعه في وقت قريب . . إن شاء الله!
- أي وقت؟
- ستة شهور . . على الأقل!

الأمرُ واضحٌ . . إكراما لأستاذه القديم، يريد النبلاني منح أستاذه راتبا مقابل لا شئ . . فرفض حمدان معقبا:

- أشكرك . . و هذا كرم بالغ منك! . . بل و نبل أيضا . . و مع ذلك آني ما راح أشتغل وكيل مبيعات عندك إلا حين تكون بضاعتك على وشك أن تباع!
- بس إنت راح تساعد رولا هنا لغاية أن تجهز البضاعة!

و تمر في خاطره بثينة الصفار . . آه . . رولا! . . كاليبسو؟ . . فيرد فورا:

- و بيش راح أساعدها؟ . . لا! . . هذا إلتفاف!

و أزاء رفضه و عجز مضيّفِه عن إقناعه . . علّق الأخير:

- لعد تعال هسه . . خليني أعرُّفك على شريكي!

و يرن التلفون على مكتب شفيق. يتركه حمدان و يخرج الى حيث السكرتيرة، فتنهض و تقول مجاملة:

- أهلين أستاز . . فيك خصلتين إتنين من خصال أبي!
- اللي هُمَّ؟
- الصوت العالي الرنان لما تحكي!
- يا سلام على الرنين . . شو يتعمل حكايات! . . طيب و الخصلة التانية؟
- فيك كمان عزة نفسو!

و مثل تلميذ يتلقى نتيجة إمتحانه فورا من معلمه و دون تأخير، إرتبك حمدان للإطراء من الشابة الشقراء الجميلة الممتلئة الوجه الشهلاء العينين و بغمازتين . . فيرد:

- هيدا كلو من زوئك الحلو مس رولا! . . و عشمي كمان تلاقي خصال تانية فيّ من خصال الوالد . . و راح أكون سعيد لو نتعارف أنا و الوالد!
- ما أظن راح تتعرف عليه!
- ليش؟
- لأنو إتقتل بالحرب اللبنانية!
- خسارة! . . الناس الحلوة دايما تموت دون سبب و تفارقنا دون ميعاد!
- صحيح . . هو فارقنا من غير ميعاد!

و مثلما كان لإستماعه للأغاني المصرية و معايشته للعمال المصريين في ورشته دور في تمكينه من التحدث باللهجة المصرية كان لإستماعه لأغاني فيروز و الأغاني اللبنانية دور أيضا في تمكينه من التحدث بلهجة خليط من لبنانية و سورية و أردنية لدرجة إن العديدين في عمان سيظنونه لبنانيا بسبب التلحين اللبناني الذي يطغي عنده على أواخر الكلمات . . و يسمع رولا تعقب:

- و كمان بتحكي أردني . . و لو شوي على نغمة لبنانية!
- مش بيقولو . . من عرف لغة قوم أمن مكرهم!

و أطلقا سوية ضحكة أثناء خروج شفيق من مكتبه لينتقلا الى الشقة المقابلة . . دخلا غرفة مكتب باذخة الأثاث، فقام من وراء المكتب

مرحبا بهما رجل في أواخر العقد الخامس ظلت عيناه على حمدان متسائلا . . و يبادره شفيق:

- ناصر الحسيني . . هذا أستاذي حمدان الجرية معلم إنگليزية مضبوط . . و لعلمك أستاذ حمدان لن يتردد بإستعمال كفه مع أي تلميذ أزعر . . إنتَ مو گِلتلي الزعران اللي عندك بالبيت إنتَ محتاجلهم معلم من هالطراز؟

ضحكوا جميعا . . و عقب ناصر:

- يعني أفهم من كلامك أن خدّك بيوم من الأيام حصئل على نصيبه من كف الأستاذ!

فعقب النبلاني مازحا:

- أذكر ذلك . . و لا أنساه!

ضحكوا مرة أخرى . . و يدعوهما ناصر الى الجلوس . . و دون مقدمات يخاطب الحسيني حمدان:

- في الواقع آني عندي بالبيت ثلة من الزعران . . ذكور و إناث . . يحتاجون جميعا لمساعدة . . يوميا تقريبا . .عدا الجمعة و السبت . . بالذات بدرس الإنگليزية . . و إحتمال بمواد أخرى . . لهذي السنة و السنين التالية ربما . . و بالطبع أنت مخول بإستعمال كفك مثلما تريد!

تمهل حمدان بالرد . . قبل أن يقول محتجا:

- إحتمال يكون شفيق بالغ شوية في موضوع أستعمال الكف! . . آني ما أستعمله إلا عند الضرورة القصوى!
- و راح تواجه ويه الزعران اللي عندي الكثير من الضرورات . . فخلينه نحچي بموضوع الأجور؟

لم يكن لديه تصور عن الأجور المتداولة في عمان فرد:

- ماكو مانع . . بس آني ما عندي تصور!
- ثلاثمية دينار كافي؟

فاجأه الرقم فسرح . . كم دولار يساوي؟ . . أربعمائة! . . كاد يصفر حين قارنه بجزء من الثانية بتقاعده الذي لا يكاد يصل الى ربع دولار في الشهر! . . و ظل لمدة ثوان قليلة يداور في رأسه ما توفره فرصة العمل المعروضة من موارد، حتى إن كان ضئيلا، لكنه سيوفر لربما سكنا مؤقتا متواضعا يمكّن زوجته من إلتحاقها به، و يتدبر به أيضا

مصروف معيشتهما حتى لو بمستوى الكفاف . . ما يعني العودة الى بغداد لإتمام زواجه من لمياء ثم المجئ بها الى عمان و هذا يتطلب على الأقل شهرا . . فقال:

- موافق . . لكن آني ما راح أگدر أقوم بواجبي گبل ذهابي الى بغداد و العودة منها الى هنا!
- ليكن . . و بأي وقت ترجع . . العرض راح يكون متوفر!

و من حديث الحسيني آنذاك . . عرف حمدان أن والده من عرب ١٩٤٨ ممن نزحوا الى العراق، و كانت ولادة ناصر و إخوته جميعا في بغداد، و تخرجوا جميعا في جامعة بغداد . . مهندسين بمختلف الإختصاصات. و سيستنتج حمدان من إسمي ناصر و أخيه خالد أن أباهما كان قوميا ناصريا و وحدويا، و لا بد أنه كان أحد الفلسطينيين الذين زعلوا من عبد الكريم قاسم و نقموا عليه لأنه صرّح بعقل نافذ و بعد نظر . . لا يحرر فلسطين إلا أهلها! . . و سيكتشف أن أولاد الحسيني الذين كانوا عروبيين وحدويين يوما قد تحولوا كلهم الى حمساويين! . . و مع ذلك بدى الرجل لحمدان، في الواقع، مغرما ببغداد و أيام بغداد . . و سمعه يضيف:

- و الزعران اللي بالبيت راح يفاجؤك . . كونهم ما يحچون غير اللهجة البغدادية!

و يعقب حمدان:

- جميل . . هذا راح يسهّل مهمتي دون إستعمال كف!

و هم يضحكون يدخل عليهم مسلـّما رجل فارع القامة في أربعينياته، و نهض حمدان لوحده للرد على تحية الرجل . . فقال ناصر:

- أستاذ . . هذا إبن عمي أحمد صاحب معمل نجارة . . كل الأبواب و الشبابيك و الأثاث اللي يسوّيه لأعمالنا الإنشائية سگط بسگط!

ضَحِكٌ . . و جلس الرجل. و بعد حديث قصير أخبره شفيق عن حمدان كونه نجارا له شأن في بعقوبة، فتلقى حمدان من أحمد عرضا للعمل نجارا . . و تعززت تصوراته آنذاك عن قدرته للعيش في عمان بمصدر دخل إضافي و يستأذن حمدان للمغادرة. أثناء نزوله الى الطابق الأرضي تعرف على مهندس كهربائي عراقي شاب يعرف أباه في بعقوبة، فعلم منه أن العمارة نفسها ملك مشترك لشفيق

و الحسيني . . و بعد يومين من لقائه ذاك بشفيق أواسط تشرين الثاني ٢٠٠١ غادر حمدان الى بغداد ثم الى بعقوبة لإتمام مشاريعه. و أثناء إنشغاله في مراسم إتمام زواجه الرسمي من لمياء في حفلة عائلية صغيرة كان هو الرجل الوحيد فيها وسط جمهرة نسوة من إقربائها و أقربائه، حصل له هناك ما حصل حين تفاجأ في بعقوبة بعودة عدنان المجمعي زوج بثينة الصفار من ليبيا، و ما تبع ذلك من تغييرات دراماتيكية أجراها على خططه، بذهابه المرتجل الى ليبيا وراء غاية لم تكن واضحة له حتى عند عودته الى عمان . . أكان وراء ذهابه لهناك هبةٌ لحب قديم؟ . . أم غيرة من التريكي؟ . . أم تخبطات ضياع و سخط؟ . . لدرجة أن نفسه حدثته نادما . . لم يكن ذاك الذهاب الى ليبيا فجاجة فحسب، بل و إرتجال لا داعي له، قاده الى تيه لا أفق له بسبب شعور سيلازمه بأن ما قام به لم يكن سوى بطولة زائفة إن لم يكن تماديا من نوع ما!

* * * * ** * * * *

يفيق من إغفاءته القصيرة . . و المساء يخيم بالكامل و أضوية الشارع يتسرب منها شعاع باهت الى الغرفة من النافذة الصغيرة المنزاحة الستارة. تراءت له من وراء زجاج النافذة قطة شقراء تمسح مرة خطمها بزجاج النافذة، و مرة تدير مؤخرتها لتمسحها بزجاج النافذة، فذكرته بقصيدة اليوت . . أغنية حب في جي الفرد بروفروك . . التي ترجمها و وضع دراسة عنها. إفتقد في الغرفة أولا مصدر الدِفء في جو عمان القارص البرودة و الرطوبة، ثم إفتقد وسائل الإتصال في غرفته . . لا تلفون و لا تلفزيون و لا راديو أو مسجل . . فقرر الحصول على راديو- مسجل في أقرب فرصة. و إذ تذكر أن مكتبي النبلاني و الحسيني يظلان مفتوحين حتى الساعة الثامنة، نظر في ساعته . . لم تتعد السادسة مساء بعد، فنهض من الكنبة و غسل وجهه و مغيِّرا ملابسه، نزل السلم الى الشارع . . فإستقبلته في الشارع ريحٌ باردة قارصة هابة من الشمال.

في طريق الى العمارة غايته، تأنى في مشيه حوالي ربع ساعة متفرجا على المحلات التي في طريقه عله يجد ما يحتاجه من لوازم إضافية في السكن. و هناك و إذ لم يجد النبلاني إلا أنه وجد شريكه الحسيني . . و بعد السلام رحب به الرجل مستغربا:

- هاي إنتَ وين أستاذ! . . إنت مو گِلت إنتَ رايح لبغداد و ترجع بعد أسبوعين لو ثلاثة؟
- حكاية طويلة!
- على أي حال . . الأولاد مشتاقين للمعلم اللي راح يحچي وياهم لهجة بغدادية! . . و بعد ما سمعو مني بخَبَرك رافضين يجي أي معلم غير عراقي!
- حاضر!
- بأي وقت تريد . . و بأي ساعة؟
- موضوع الموعد يتوقف أيضا على إذا كان ما يزال إبن عمك أحمد راغب يشغلني نجار!
- راح نشوف!

يتحدث الحسيني مع إبن عمه بالموبايل . . ثم يصرح:

- يقول بإمكانك المباشرة غدا . . من الساعة الثامنة و حتى الرابعة عصرا.
- زين . . ممتاز! . . أروح للورشة صباحا . . و أروح لبيتكم مساء ساعة أربعة و نص!
- من حسن حظك . . الورشة قريبة من بيتي بمنطقة مرج الحمام . . و المسافة بينهم مسيرة دقائق!
- إذن . . إتفقنا.

يشكره حمدان و يغادر . . عند باب العمارة يمر بعامل تنظيف ببدلة برتقالية اللون، و يسمع ما يشبه الغناء يصدر من مكان ما في ملبس الرجل، فظنه صادرا من راديو ترانزستر متخفي، لكنه لاحظ العامل يمد يده في جيبه ليخرج موبايلا يتحدث به بلهجة صعيدية، فتهون عليه نفسه أن يرى الموبايل متاحا لزبال مصري، و هو العراقي معلم الأجيال لم يتح له في بلده إستعمال الموبايل، و لأنه أثناء وجوده في عمان سابقا لم يفكر بإقتناء واحدٍ، عزم فورا على شراء واحدٍ . . و أقتنى واحدا من أرخص أنواعها يسمونه . . نوكيا طابوگة . . و علَّمه صاحب المحل طريقة إستعماله، و أكمل جولته في السوق، و عاد الى الشقة و معه راديو- مسجل صيني، و تخير ما يصلح موقدا و مدفأة كهربائية في الوقت نفسه.

قبل أي شئ آخر، شغَّل الموقد ليضع عليه غلاية الشاي . . و بعد ربع ساعة ها هو الدفء يدبُّ في الغرفة منبعثا من الموقد ليشيع شعورا بالإرتياح، ما شجَّعه على فتح الراديو- مسجل، فيداهم أذنيه

صوت مذيع من إذاعة ما ينقل خبر تهديدات بوش الإبن للفوهرر العراقي و حديث سمج عن بقايا أسلحة دمار شامل في العراق و عن دعم الفوهرر للإرهاب الدولي . . و بسبب قرفه من أخبار من هذا النوع حوَّل المؤشر على موجة أيف أيم ليستطلع ما يتوفر من محطات بث . . هو بحاجة لغناء و بعض مسرة و شجن . . هنا إذاعة المملكة الأردنية الهاشمية من عمان! . . . هنا أيف أيم عمان! . . و يواصل البحث فيجد محطة تبث موسيقى كلاسيكية و يُرسي المؤشر عليها، و يروح ليستمع الى كونشيرتو فلوت و قيثارة لموزارت. و بغليان الماء أعد شايا و سندويچة جبن. مستمتعا بأنغام آلة الفلوت المتمهلة، راح هو أيضا يمضغ وجبته و يرتشف الشاي على مهل مفكرا بالغد. و لم يغادر مكانه لغسل كوبه و إنائه إلا بعد أن إنتهى من الإستماع لموزارت . . ظلت أذنه متعلقة بالإذاعة المذكورة يبغي معرفة مصدر النعمة الفنية التي تكرمت بها الإذاعة، و يتفاجأ بالمذيع يعلن بالإنگليزية . . من إسرائيل أيف أيم نتمنى لكم وقتا طيبا مع عمل فيفالدي الفصول الأربعة . . النعمة تأتي من حيث لا ندري! . . و راحت الموسيقى تصدح من جديد لتزيد غرفته دفئا على الدفء المنبعث من الموقد الكهربائي. و لكنه سيكتشف فيما بعد أن الدفء المريح الذي يحسه آت بتأثير من الموسيقى و إن الموقد المدفأة الكهربائية لوحده ليس كافيا لتدفئة الغرفة و سيأتي بمدفأة زيتية. . و يعود ليجلس قرب الراديو بادئ الأمر، و بعد دقائق إستلقى على الكنبة سارحا في أموره، و فيفالدي يبث أنغامه . .

أول ما خطر بباله . . المرات التي إستمع بها مع لمياء لموسيقى فيفالدي. و يشوب ذكراها فجأة خاطرٌ . . أين صفى الدهر ببثينة الصفار؟ . . ودّ لو يعلم! . . و يعود المذيع الإسرائيلي يعلن بالإنگليزية . . أقضوا معنا وقتا طيبا نستمع سوية الى برليوز في السمفونية الفانتازية! . . و يسرح مع فانتازيا الموسيقى . .

يمر بخاطره يوم تعرُّفه على لمياء . . الدراسات العليا في كلية اللغات حيث إجتمع المقبولون في الدبلوم العالي للترجمة أمام قسم اللغة الإنگليزية. المقبولون يتعرَّفُ بعضهم على بعض، و كانت هي هناك بين عشرة إناث و لم يكن ثمة من الذكور سواهُ هو و طالبان آخران، سرعان ما سيتبخر أحدهما بعد أسابيع بسبب صعوبة الدراسة

. . و يتذكر أن الجمع راح يتحدث لاشعوريا، كلٌ عن هواياته. و جلب إنتباهه صوت يتحدث عن ميشيل خليفة و فيروز و زياد رحباني . . الذائقة تدل على أصحابها . . فتوجه بنظره الى صاحبة الصوت، و لم يكن يدري أنها هي الأخرى تائهة بنظراته التائهة في عشب الحديقة، فتفاجأت به ينتبه لها و صرفت نظرها عنه . . كيف سيجد لنفسه مدخلا أو مسوغا للحديث معها؟ . . فعلق لها:

- و الإستماع لفيروز عادة يومية دون ريب!

و مع إجابتها:

- الى حد ما!

إبتسامة عريضة إحتلت نصف وجهها الأسفل لتعبر عن قناعتها و رضاها بذلك. إبتسامتها ليست من النوع الذي يتشتت في وجه الأنثى و ينتشر نحو العينين كي تشترك بها ملامح الوجه الأخرى و تكون لها بها حصة. ضحكتها من نوع يلبث في أسفل الوجه . . أسره وجهها و هي تضحك . . إعجاب! . . نوع من جمال أنثوي رغب به و هو مراهق حين كان يستقيه من ممثلات الشاشة الأمريكية . . أنثى شقراء لدنة بشعر أصفر أو أحمر و أثداء نافرة . . لكن أخاه عليان الجربة الفنان التشكيلي فتح عينيه مرة بعد سنين حين تحدث له أنه أيام تشرده في دراسته في معهد الفنون الجميلة كان يقنع المعيدية بائعة الـگيمر كي تكون موديلا للرسم، و يدخلها عنده وقت الشروق أو قبله و يعريّها و يروح يغوص في خطوط و تفصيلات بائعة الـگيمر لقاء صفقة يشتري بها منها نصف صينية الـگيمر الذي تبيعه . . و يروح بالتدريج يكتشف أسرار جمال جسد الأناث المعيديات . . و راح الربط الغريزي عنده يطابق بين ما تحدث له به عليّان الجربة عن جمال المعيدية و ما تخيله قامة أنثوية . . تتحدث صاحبتها الى الزملاء الآخرين الواقفين في حلقة تقريبا . . بشرتها السمراء الداكنة لدرجة تجعل المرء لأول وهلة يظنها هندية . . ثم وجهها الممتلئ و فيه عينان إحتار في أمر لونهما و كأن سمرة بشرتها الطاغية فاضت عليهما بدكنة مثيرة . . و رآها فجأة تضحك من جديد و هي تتحدث الى زميلة . . إبتسامة تلبث في نواحي الفكين و لا تنتشر الى الوجه كله . . و ما أن تراجعت إبتسامتها و بقي منها ظلها في أنفها الطويل الذي ينفرش نسبيا حين تضحك . . و وجنتيها اللامعتين البارزتين بروزا طفيفا مثل الوجنات البارزة في تماثيل وادي الرافدين القديمة .

. شعرها ليس قصيرا . . مسحوبا الى الخلف، ملموما بمنديل أحمر ترفرف أطرافه مع الريح . . و الجيدُ ليس طويلا و لا قصيرا، ينتهي بحافة بلوزة بلون الكاكاو الفاتح تطرزه رسومات بارزة بسيطة فيها ورد و ورق شجر . . و يتأمل قوامها . . الأنثى لها دروب! . . جسدها ممتلئ و لكن ليس من نوع الأنثى البهيرة . . و لاحظ إنشدادها الخفي له و هو يتأملها ولم يعبأ بذلك . . أحسها تبعث إليه رسالة فحواها الظاهر أنها تتجاهل نظراته لكي تثبت له العكس! . . و كأنها هي الأخرى راحت تنشغل بإنشغاله بها . . و آمن آنذاك أنها لا بد أن تكون مثل أية أنثى تستمتع بإنشغال الرجال بها، فواصل لتحقيق بغيته . . هي تراقبه يتأمل نهديها الشامخين، فتخيلهما مدورين مكتنزين صلبين لابدين تحت حمالة الصدر . . هو ينفر من النهود التي ما أن ينزاح عنها السند تروح تستطيل و كأنها على وشك السقوط على الأرض! . . نهدان بامتلاء باذخ! . . خصرها يعوزه تناسق مع إمتلاء جسدها موهته قامتها المديدة عند الوركين اللذين حصرتهما تنورة بلون قهواني يتناغم مع لون البلوزة المتدلية عليها و تنتهي عند أسفل ركبتيها مباشرة . . ثم ربلتي ساقيها الممتلئتين . . و فردتي حذائها اللتين لم تشذا عن لون ملابسها المختارة بذائقة تنم على معرفة دقيقة بما يتناسب و جسدها الممتلئ و بشرتها السمراء الداكنة . . و يسمع ضحكتها، فتشيع في داخله رغبة طاغية perpetual feast for the eye and for the heart and ... . . و لم يكمل و تاهت بقية جملته في داخله . .

و يتذكر أنه . . أحس بحاجة لتخفيف فورةِ عاطفةٍ إتقدت داخله فجأة ذاك اليوم . . رغبة جامحة بالأنثى! . . و كيلا يفضحه فوران مشاعره، ترك مجموعة الدراسة تتحدث، و دخل نادي الكلية من الباب الخلفي القريب ليطلب شيئا يبرد له جوفه المشتعل رغبة . . و راح يتأمل قامتها الفارعة من جديد من مسافة بعيدة نسبيا. جالسٌ يرتشف من علبة الكولا الباردة . . لديه نظرية تقول . . إبتعد عن الشئ مسافة كافية سيتوفر لك مشهدا بانوروميا يتيحُ لك رؤية الأشياء من زاوية أفضل! . . مثل قافز الزانة يرتد الى الخلف أطول مسافة ممكنة من أجل وثبة أفضل . . رأى وجودها هناك كاملا و هي ما تزال تشارك في الحديث و تضحك، فيكتمل وجودها عنده لحظة

فلحظة . . رآها من بعيد تتلفت بهدوء و إنسياب مع ما حولها و كأنها تبحث عن شئ أفلت منها . . ما أسمها؟ . . و كي يرى أن كانت نظرية زهير أحمد القيسي حول الأسماء صحيحة . . كلٌ لهُ من إسمه نصيب! . . و يضحك من غباء المحبين لأنهم لجوجون متهورون . . أسيكون منهم و يتطور الى حب إعجابه هذا بالأنثى التي أمامه و رغبته الجامحة بها؟ . . و سرعان ما نهض و ذهب الى لوحة الإعلانات حيث ما يزال معلقا عليها الأمر الرسمي لقبولهم في الدراسة العليا . . و يبحث عن أسماء الإناث و يقرأ . . بشرى عبلحد . . ليست هي فهذه كانت معه في البكالوريوس! . . مها . .أهي مها؟ . . أتشبه عيونها عيون المها؟ . . هوشنگ . . لا ليست كردية! . . . الإنبساط في وجهها ليس معتادا عند سكان الجبال! . . لمياء! . . أهي؟ . . لمى! . . أهي؟ . . و إحتار بين مها و لمياء و لمى . . و سرعان ما عاد الى حيث تتجمع المجموعة.

وجد المجموعة تتحرك جميعا نحو ممر قسم اللغة الإنگليزية، فأسرع كي يلحق بهم. و لحق بهم، و فهم منهم أنهم سيلتقون في أول محاضرة بأستاذ الترجمة الفورية. في أحد صفوف القسم. الأستاذ هناك بإنتظارهم . . جلسوا جميعا، و إنتظر هو لغاية أن تجلس هي فرآها تجلس في صف المقاعد الأمامية في مقعد بعيد عند الشباك، فجلس هو في الصف الثاني وراء المقعد الذي على يسارها . . و راح يتأمل صفحة وجهها من جديد و يرى إبتسامتها الهادئة ترتسم ردا على ترحيب الأستاذ بهم . .

قدم الأستاذ نفسه . . د. شيروان عبد المجيد . . و سيعلمون فيما بعد أنه مترجم رئيس الجمهورية الشخصي . . و يطلب منهم تقديم أنفسهم . . لم يسمع ما قالته زميلات آخريات قبلها جالسات في الصف الأمامي لأنه كان مشغولا بلهفة بإنتظار معرفة إسمها و جهد في تركيز نظراته على شفتيها لأنه من تبحره بوجهها يتذكر إنها لمياء الشفتين! . . فرأى شفتيها تنفرجان لتقدم نفسها . . لمياء علاء الفتلاوي . . لمياء إذن و لها من إسمها نصيب! . . و راح في داخله صوت يدندن مع كلماتها . . خريجة آداب و موظفة في وزارة الثقافة . . و لاحظ الأستاذ يُخرج جريدة هيرالد تربيون و يعرضها أمامهم ليبتدأ بالزملاء الى يسارها يسألهم ترجمة عناوين في الجريدة . . و

سمع الزملاء يتنطعون و يتمنطقون دون جدوى بإجابات لم ترضي الأستاذ . . و ما أن وصل الدور إليه و سأله الأستاذ، رد بهدوء:

- I wish I could know, sir!

و تفاجأ بالفتلاوية تقتفي أثره و ترد على الأستاذ:

- I wish I could know!

و يعلق الأستاذ مستحسنا ردهما . . و سيعلمون أن ترجمة عناوين الصحف و غيرها من العناوين تُعدُّ لصعوبتها درسا قائما لوحده في علم الترجمة! . . و خرجوا ذاك اليوم دون أن يلتقوا أستاذا آخر . . و عند المغادرة رآها تسير متوجهة الى كلية الآداب فغادر هو الى بعقوبة . . اليوم التالي غادر شقته غبشة ليصل الكلية عند الشروق قبيل الساعة السابعة . . لا أحدا! . . توارى في مكان في حديقة كلية الآداب يكون فيه من اليسير عليه رؤيتها عند مقدمها تمر و لا تراه . . ساعةٌ و عيناه شاخصتان على الدرب قبل أن تمر هي و طالبة أخرى في المجموعة، و ها هو أحد الطالبين من المجموعة يمر . . إنتظر ربع ساعة على نار قبل أن يقوم و يتوجه الى كلية اللغات، فوجد المجموعة هناك و هي بينهم، جالسة و زميلة أخرى على مصطبة في الحديقة الخلفية لنادي الكلية و الآخرين متحلقين حولهما . . و قبل أن يسلم عليهم رآها تبتسم إبتسامة دغدغت رغبته المكبوتة . . الإبتسامة نفسها التي أيقضت فيه أمسِ شوقا طاغيا للأنثى . . و ألقى التحية:

- Good morning everybody!

أذناه لم تسمعا من الردود على سلامه سوى همهمات لأنه كان معنيا بسماع ردها هي، فردت عليه بالإنـگليزية و هي تتملاه على نحو ظنها تجاهد كي تبدو نظراتها و الرد الذي رافقها حياديا، إلا أنه تيقن ذاك اليوم أنه أمسك بخيط خفي في ردها و نظراتها عزّ عليه في حينها تفسيره . . أغمست السنارة؟ . . ردها على التحية أشاع في نفسه إرتياحا من نوع ما. و فضل أن يظل صامتا تقريبا، فإنسحب الى الخلف خطوات ليقف في الطارمة التي أمام باب النادي في موقف لا يقابلها مباشرة، بل في مكان يتيح له التفرج عليها . . تاركا الجميع يثرثرون في جو غلب عليه طرح المزيد من مسوغات التعارف فيما بينهم، يستمع إليهم يواصلون تقديم تقاريرهم عن أنفسهم . . نشاطاتهم و بيئة العمل و أماكن السكن و الحالة الإجتماعية . . و ها هي أخيرا تتحدث عن عملها موظفة في وزارة الثقافة . . و بعزوفه عن التحدث عن نفسه تلك الصبيحة و التظاهر بالسكينة، أدرك مذاك الصباح أنه

سيعوم في بحر عليه أن يحسب لكل قطرة ماء فيه حسابا دقيقا كيلا يغرق . . بحر الأنثى أمامه يموج باللون! . . و لحظها مرة أخرى تقوم بلفتة غير منظورة كي ترمقه بنظرة خاطفة أعياه تفسيرها . . و مرقت في خاطره المفردة الانكليزية . . tantalizing . . و في قاعة الدرس تعرفوا ذاك اليوم على أستاذين آخرين أحدهما البروفسور وحيد محمود للترجمة الكتابية الأدبية، و حرص هو أثناء المحاضرة على أن يجلس في مقعد مجاور لها الى يسارها، دون أن ينبس معها ببنت شفة، و يلاحظ أنها تفعل ما يفعله هو، فتختلس إليه نظرات جانبية . . الأستاذ الآخر د. ماجد النجار لمادة تقنيات الترجمة . . و كان عليهم أن يذهبوا إليه في الجامعة المستنصرية لتلقي المحاضرة هناك . . و حرص على أن يفعل في جلسته ما فعله قبلا و كانت جلستهم في غرفة الأستاذ شبه دائرية تتيح لكيليهما رؤية الآخر دون عناء، غير أنها فاجأته ملتفة إليه تسأله:

- من بغداد؟

يا للسعادة! . . إلتفت نحوها قليلا ليستمع لصوتها، بل بالأحرى ليتأمل تقاطيع وجهها عن قرب . . أنفها الطويل المستقيم برصعتين قرب المنخرين . . و كم تمنى من قبل لو يقبل في حياته إمرأة . . خشمهه طايح بحلگـه مثلما يصفه الشروگية! . . و حرص على أن يكون مقلّا في مفرداته . . فرد على سؤالها:

- لا.
- منين؟
- من بعگوبة.

و لم يزد . . أغمست السنارة! . . و أتاحت له تلك اللحظات أيضا أن يغرق في شفتيها و هي تتحدث. عند نزولهم من غرفة الأستاذ مر في خاطره . . أغمست السنارة فعلا؟ ما يزال ليس متأكدا! . . و سألها إن كانت هي من بغداد، فأجابته:

- نعم . . منطقة الشعب.

و يتذكر أنه . . يوم تعرفت المجموعة على د. منذر الدليمي أستاذهم لمادة علم الدلالة . . وصل مجمع كليات باب المعظم بعد شروق الشمس بقليل . . لا أحد غير الحراس، فقبع هناك في مكانه السابق في حديقة كلية الآداب و عينه ترقب الطريق. حوالي الساعة الثامنة رآها تمر و بصحبتها شابةٌ أفرع منها بالطول و بها شبه كبير بها . . إنتظر ربع ساعة قبل أن يغادر الى حيث تلتقي المجموعة . . و هناك وجدها قد جلست و الى جانبها المرأة الأطول منها نسبيا و الآخرين محلقين حول المقعد مثل الأمس . . تقدم نحوهم ملقيا بتحية الصباح:

- Good morning everybody!

ردو الجميع على سلامه، و كأنه بها تأخرت في الرد على سلامه عمدا لكي ترد على سلامه و ترضي فضوله عن المرافقة الجالسة الى جانبها:

- Good morning. This is my sister Dhamiya!

بات على شبه يقين أن السنارة غمست، و إلا فلم تعرفه على أختها! و بعد قليل سيكون على يقين تام من ظنه . . و بابتسامة خاطب أختها:

- Nice to meet you Dammiya!

ردت ظمياء على تحيته بابتسامة . . بعد تأمله وجه الوصيفة، أول ما تبادر الى ذهنه . . الوصيفة أيضا لها من إسمها نصيب! . . و مثلما فعل بالأمس، إنسحب الى طارمة النادي الخلفية ينظر و يتأمل. و بطارف عينه ينتبه لأختها تتملاه بين حين و حين بنظرات كأنه بها تتفحص وجوده لترضي فضولا من نوع ما . . لِمَ أتت بأختها هذا اليوم؟ . . غمست السنارة! . . و سيكتشف فيما بعد أن أختها هي فعلا وصيفتها الأقرب التي تأتمنها على كل أسرارها و تستشيرها في كل أمورها. و حين قاموا للذهاب الى قاعة الدرس تأخر هو كعادته مفضلا أن يمشي في آخر الطابور . . مسافة الأمان و الفضول . . كي يتسنى له التعرف على الآخرين على نحو أفضل. تأخرت هي و أختها أيضا تسيران الى جانبه، فبادرته بالقول:

- ظمياء تخرجت هالسنة من الدراسة المسائية بقسم اللغة الفرنسية!

و يخاطب ظمياء تلقائيا:

- جميل! . . و هذا يعني . . إنت قادرة على قراءة بودلير و هوغو و آرغون و كامو بلغتهم! . . مرحى لك ظمياء! . . أغبطك!

و تعقب لمياء:

- تگول هي چانت تشوفك أحيانا بمحيط كلية إبن رشد!

- جميل! . . يا لحظي العاثر! . . و ما لاحظت وجودج بالجوار طيلة أربع سنوات . . إمرأة جميلة بهالطول الفارع . . قصر نظر مني!

و يتذكر أنه . . رآهما تبتسمان، و لم يسمع للوصيفة صوتا مقتصرة مشاركتها بالحديث على إبتسامات هادئة . . الصمت هو الفخ! . . و لن يحصل و يسمع صوت الوصيفة إلا حين سيلتقي بها في دارهم.

لقاء مجموعة الدرس ذاك اليوم كان مع آخر أستاذ من مدرسي الدراسات العليا، د.صبيح الراوي لمادة علم اللغة المقارن. و إنتهت دروسهم لذاك الأسبوع.

الأسبوع التالي . . يوم سبت سيحصل ألا تتوفر له غبش ذاك اليوم حافلة تقله الى بغداد مبكرا فيتأخر عن وقته المعتاد و لا يصل إلا بعد الساعة السابعة و النصف. و مع ذلك، فضّل الذهاب أولا الى مكمنه في حديقة كلية الآداب . . المفاجأة كانت هي أنها هناك . . شاهدها من بعيد جالسة في مقعده المكمن ذاته. لم تره، فإستدار و رجع من حيث أتى مغيّرا طريقه بإتجاه الحديقة الخلفية لنادي كلية اللغات. و من بعيد بان له وجود بعض زملائهم، فإلتفت تجاه حديقة كلية الآداب، و إذ كان الفضاء بين المكانين مفتوحا يتيح للمرء مجال رؤية مناسب. ما تزال لابثة هناك لوحدها، فيلتقط أنفاسه و يتساءل . . ما هذا؟ . . أكانت تعلم بأنه يربض هناك ليرقب مجيئها على الطريق! . . و مع ذلك، فما معنى أن تجلس على المقعد ذاته؟ . . أصدفة؟ . . من يدري! . . أإمارة لشئ ما أو إختبار؟ . . لا يدري! . . أيذهب إليها أم لا يذهب؟ . . أخيرا سلك الطريق نحوها.

المقعد في حديقة مجاورة لبناية مكتبة كلية الآداب، و ستصبح دكة بابها العريضة في الشهور القادمة صومعتهما و ركنهما الأثير . . يغنيان به لبعضهما في غبش بغداد . . يسرقان من زمن المارين من أمامهما من فرّاشين و فرّاشات و موظفين، و جميعهم بالتأكيد لا ينظرون لجلستهم هناك بنية حسنة. و لا يهمهما طالما ما يجمعهما عاطفة ينبث شعاعها في الأروقة القريبة و تتأثر بها حتى الكائنات الصغيرة في المكان، فتقتدي بهما لإطفاء ظمأها و حرمانها . . يروي ظمأه بالإقتراب من أنثى!

و يصل الى حيث تجلس في وسط المقعد . . وقف أمامها مصبِّحا، و ردت على تحيته:

- صباح الخير أستاذ.

لم يبدُ عليها آنذاك أنها تفاجأت بحضوره، وكأنها متوقعة مجيئه. وجد نفسه ما يزال واقفا و عليه أن يشق طريقه بطريقة أو بأخرى . . فعقب بعفوية:

- بالعلاقات بين الزملاء . . ما أحبذ إستعمال مفردات من قبيل . . أستاذ و أخ و أخت و زميلة و زميل . . تدرين ليش؟
- ليش؟
- أحس أن نعوت و ألقاب من هالنوع تجرد الموقف من تلقائية الخطاب بين رجل و إمرأة . . أفضل الناس يخاطبوني . . حمدان و بس . . و أنت لمياء و بس . . و ها أنت أمام ناظري لك من إسمك نصيب . . فما الحجة للألقاب! . . و أريد أكتشف المزيد من صفات إضافية من لها بإسمج نصيب! . . شتگولين؟

ما يزال يريد ألا يتطفل و ظل واقفا بإنتظار أن تدعوه هي للجلوس . . فردت متسائلة:

- هيچي؟ . . بهالبساطة!
- شنو المانع!

إرتبكتْ . . و كي تداري أرتباكها دعته الى الجلوس مفسحة له مجالا كافيا على المقعد الكونكريتي، فواصل كلامه مصارحا إياها بلغة مجازية:

- يا آنستي . . آني رجل يفضّل يدخل من الباب . . مو من الشباك!

لاحظ كأنه فاجأها بهذه المقدمة الصريحة . . فإستفسرت:

- و هذا شنو معناه؟ . . و وين تريد تروح بهالمقدمة؟
- معناه أفضّل أن تكونين على بينة من زميل يرغب بالجلوس في الدرس دائما بالمقعد المجاور لمقعدچ!

فردت عليه بنبرة بدت له بادئ الامر حيادية:

- Welcome! . . .

و كأنها تستدرك . . أضافت :

- . . all the time!

في إضافتها الأخيرة ما ظنه رسالة حذرة، و لكنها كافية لذاك اليوم، و لم يزِد، إذ إعتقد أن الجرعة التي تبادلاها كانت كافية لفتح طريق ما

تـزال فيـه عقبـات كثيـرة فضـلا عمـا يخبـّئـتـه الطريـق مـن مفاجـآت! . . و نهضا ليذهبا سوية الى حيث كان الزملاء.
و يتـذكر أنـه . . فـي اليـوم التـالي تعمـد الوصـول الـى المجمـع، و سـيجدها هنـاك علـى المقعـد ذاتـه . . الـذي سيسـميانه فيمـا بعـد . . تاكسـي الغـرام . . تنتظـر؟ . . و إن كانـت سـتقول لـه فيمـا بعـد مبـررة تفضـيلها للجلـوس هنـا أنهـا تفـرُّ مـن ثرثـرة الـزملاء! . . كـذبت و حالهـا كـان لـه كحـال أيـة أنثـى تريـد ألا تظهـر أنهـا هـي الجاريـة وراء الرجـل، بـل هـو الـذي يجـب أن يجـدّ و يجـري وراءهـا! . . أنثـى تحـب أن تـرى الرجـل ولهانـا تحـت شـرفتها! . . و لكـي يرضـي شـغفه بـالأنثى التـي أمامـه، فهـو لا مـانع عنـده مـن الوقـوف تحـت شـرفتها لغايـة أن ينـبلج الفجـر! . . مـا يـراه لدانـة خليقـة بسـمرة باذخـة! . . أليـس هـذا هـو حـال كائنـات الطبيعـة جميعـا . . الـذكر يـنفش ريشـه و يلونـه كـي يغريهـا أو يريهـا جبروتـه فـي قهـره لكائنـات أخـرى. و فـي عـالم السـخط هـذا أيـن يـا تـرى سـيجد الكائنـات القـادر هـو علـى عراكهـا كـي يريهـا جبروتـه! . . و يـروح الـذكر ليـُسمع الأنثـى المرغوبـة أجمـل تغريـد أو هـديل أو خـوار أو غثـاء أو غنـاء أو نهيـق أو صـهيل . . و مـا أن يفلـح فـي إيقـاظ أنوثتهـا الـى الـذروة يتركهـا لتجـري هـي وراءه نقـرا أو عضـا أو خرمشـة متمنعـة لكـي تزيـده إغـواءً . . و تـذكر صـراخ القطـط شـهوة فـي عـز الشـتاء . . يـا للأنثـى! . . الأنثـى تفعـل ذلـك لمجـرد أنهـا لا تـريد أن يتصـور أو يتـوهم الـذكر أن غريزتهـا إسـتيقظت بملكاتـه و مواهبـه! . . فـردد فـي نفسـه . . لا يهـم مـا دامـت النتيجـة واحـدة طالمـا أنهمـا سـيكونان فـي هنيهـة مـن الـزمن القـادم كائنـا واحـدا لا يشـعران سـوى بالنشـوة التـي تنـزل فـي وجودهمـا مثـل رذاذ المطـر! . . مـا الـذي سـأقوله لهـا اليـوم ممهـدا الطريـق قبـل أن أسـألها عـن نفسـها! . . علـى محياهـا ظـلُ إبتسـامة . . و لـم يفتـه ملمـحَ أنهـا مقـدما تركـت لـه نصـيبا فـي المقعـد الـذي تجلـس عليـه . . و قـدمو لأنفسـكم ... فجلس قائلا:

- My queen!

تعمـد النظـر الـى وجههـا، فـي عينيهـا بالـذات، كـي يـرى ردة فعلهـا علـى الأطـراء الـذي أبـداه لهـا، فوجـد رضـا تعبـر عنـه إبتسـامة إجتاحـت وجههـا كلـه . . و جارتـه فـي منطقـه سائلة:

- And you? If I'm a queen, what're you supposed to be?

بوغت بالسؤال . . فرد تلقائيا:

- Actually, I prefer to be both, the subject and the King!
- Putting it this way, then, welcome!

و ستعترف له فيما بعد بأن رده هذا كان لانقا و يناسب طبيعتها و مزاجها الذي ينتمي لبرج الأسد و ستعترف له أيضا، أنها بردّه ذاك وجدت فاتحا لا يُردّ لباب قلبها . . و قال لها أيضا:

- By the way, you have everything of a Summerian Queen!

و مذاك الوقت راح يخاطبها بالملكة السومرية!

و سيتحير في كيفية الغوص في أعماق بحيرة خالها من أرض سومر . . عيناها لا تفارقان أصابع يديه المرتاحتين فوق ركبتيه عند جلوسه . . أمارة نظراتها لم تغب عن فطنته . . فهو أولا رجل متزوج و ثانيا الفرق بين عمريهما كبير و راح يخمن . . فإذا كانت قد تخرجت مثلما ذكرت في أول محاضرة لهما عام ١٩٩٢، سيكون عمرها إذن في حدود الثلاثين أو أكثر بعام أو عامين فهاله الفرق بين عمريهما . . خمسة و عشرين عاما! . . كيف سيسوّغ لها قبولها بهذا الفرق؟ . . و ستغرق بالضحك فيما بعد و هي تسمع التفسير الذي سيسوقه أمام أمها لتبرير القبول بمثل هذا الفرق! . . و مع ذلك لم يثنه السببان المذكوران عن المضي فيما رسم له . . فقال موضحا:

- آنستي . . آني متزوج . . والد لبنتين واحدة تخرجت السنة الماضية و تزوجت . . و الأخرى ما تزال أمامها سنتين للتخرج و الزواج . . ما يعني . . عليّ الإنتظار سنتين قبل أن أتخذ خطوة الفراق الكامل عن الزوجة إكراما لإبنتيّ . . عمري خمسة و خمسين سنة . . زوجتي اللي ما عادت زوجة لي من الناحية العملية حافظت على زواجي منها بزواج فاشل من سنته الأولى . . و بذلت جهدي للحفاظ على تماسك أسرتي لخاطر البنتين . . و إشتريت بيت لأسرتي قبل سنوات

فـي بغـداد . . بـس آنـي هسـه عـايش وحيـد فـي شـقة هـي ملكـي فـي بعقوبة . . تسمحين هسه تقدميلي نفسچ؟

و تحـدثت لـه عـن أسـرتها و عـن نفسـها و أخبرتـه بأنهـا خارجـة للتـو مـن قصـة حـب خائبـة مـع زميـل لهـا فـي العمـل و هـي بحاجـة لوقـت يصـفو بـه ذهنهـا كـي تنـاقش قبـل أن تقـرر، فـرد عليهـا مـُكبرا صـراحتها، و بأنـه لا يهمـه مـا مضـى مـن تـاريخ النـاس إن كـان لا يشـكل عائقـا أمـام علاقـة جديـدة . . و فـي اليـوم التـالي كانـت هـي التـي إقترحـت عليـه شـرب فنجـان قهـوة فـي نـادي كليـة الآداب فوافـق . . و هنـاك علـم أنهـا مثلـه تحـب القهـوة مـرة، و الشـاي تحبـه مـرا و يحبـه هـو حلـوا. و علـم منهـا تفصـيلات إضـافية عـن أسـرتها . . و سـيتحول لقاؤهمـا فـي نـادي الآداب الـى لازمـة يوميـة تقريبـا لعدة اسـابيع. و صـارت مثلـه تـأتي بـاكرا و لكـن بعـده بقليـل . و سـيغيّران مكانهمـا ليجلسـا يوميـا علـى دكـة بـاب مكتبـة كليـة الآداب . . يفـرش لهـا منـديلا لـتجلس عليـه، أحـد ثلاثـة مناديـل إعتـاد علـى غسـيلها يوميـا و يوزعهـا فـي جيوبـه قبـل أن يغـادر المنـزل . . و يجلـس هـو الـى جانبهـا علـى رزمـة كتبـه يتبـادلان التعـارف فـي أشـياء كثيـرة. يسـبقها بـالمجيء و تظـل عينـاه ترقبـان الطريـق متشـاغلا بالغنـاء و يغنـي أحيانـا . . علـى درب اللـي يمـرون أريـد أگعـُد و أنـادي . . و متـى أحبـابي يعـودون بـس گـُـلي يـا حـادي! . . و ستصـحح لـه يومـا ليقـول . . أگعـِد بـدل أگعـُد و گِـلي بـدل گـُـلي . . مثلمـا يغنيهـا حضـيري أبـو عزيـز . . و سـيعتاد علـى مـا أن تلـوح لـه قامتهـا و هـي تسـتدير مـن الطريـق الـرئيس للمجمـع الـى الطريـق الفرعـي المـؤدي الـى المكتبة و هم في المكان لوحدهما يروح يغني لها كلما أتت:

- . . أما خشيت من الحراس في الطرق!

و تكـون فـي حينهـا قـد وصـلت إليـه فتغـرق بضـحكة مغنـاج لغنائـه لهـا، و يأخـذها مـن يـدها يفـرش لهـا منديلـه لـتجلس عليـه قبـل أن يكـتظ المكـان بالمارين و الطلبة . . سألته يوما:

- أتؤمن بالقدر؟
- لا بتاتـا! . . لكـن أؤمـن بـالحظ! . . حتـى هـذي اللحظـة مـا أزال أؤمـن أن أقـدارنا إحنـه نصـوغهه . . و إذا نصـيب فهـو قرارنـا و إن نخطـئ هـو ايضـا قرارنـا . . و إذا تريـدين تـگـولين أن لقاءنـا الحـالي و تطوراتـه اللاحقـة چـان مسـبقا مكتـوب فـي لـوح محفـوظ

. . أني مو مع هالرأي . . الصدفة و الحظ هي اللي تصوغ مصير البشر و بإرادتهم! . . و شنو مناسبة السؤال؟

- خالتي تريد تشوفك!

ما علاقة القدر برغبة خالتها لرؤيتي؟ . . ظن أن الموضوع سيظل الى حين محصورا بينهما، على الأقل لغاية أن يقلّب هو الأمور تقليبا كافيا، كي يعطي إعجابه به وقتا كافيا يتطور أثناءه إعجابه بها الى قصة حب. و أتت بأختها وصيفة و لم يجد في ذلك ضير لأن قصص الحب لا تخلو من الوصيفات! . . رغبته طاغية بالحصول على أنثى، و قد نوى الحصول عليها و وقع إختياره على لمياء! . . أحبا؟ . . ليس متأكدا من ذلك لأنه ما عاد يؤمن إيمانا كاملا بقصص الحب! . . صحيح أنه رغب بقصة حب وحشية سرية حلاوتها في غموضها و لغزيتها كي تدخل حكاياتها و لفتاتها الى أوراق تدخل صندوقه السحري، و مع ذلم رضي بالوصيفة مؤتمنها مثلما يحصل في الأفلام و القصص . . ما يزال في حناياه ما يميله نحو الدخول في قصة حب اثيرة كتلك التي كانت له بها حكاية مع بثية الصفار! . . ما الذي يشغله بلمياء إذن إن لم يكن حبا؟ . . إعجاب؟ . . ربما! . . و هو ما يزال تحت تأثير عدم التوفيق الذي لقيه في زواجه الأول، حين قاده إنبهاره بمظهر زوجته الأولى يراها في أول لقاء لهما بتنورة ميني جوب، و توهم ذاك حبا . . و ما أبطأ ما إكتشف آنذاك خيبته الكبيرة، و لأسباب أخلاقية ظل يدفع ثمن غلطته عمرا كاملا! . .

تفاجأ برغبة خالة لمياء برؤيته. و مع أنه في قرارة نفسه و بسبب طبيعته لا يميل الى الدخول من الباب و يفضل الدخول من الشباك لما فيه من سحر و مغامرة . . يداهم الناس لإكتشاف نواياهم لما في ذلك من فرص لإكتشاف صدق النوايا، لكنه و بما أنه كان قد صرح للمياء بأنه ينوي الدخول من الباب و ليس من الشباك، لأنه ربما تعب من قصص الحب الخائبة، و طالما يلمس من لمياء رغبة في وضع علاقتها به في نصاب تقليدي، لم يرَ آخر الأمر ضيرا في الحصول على موافقات و توافقات يتطلبها زواج تقليدي سيدخل به من الباب، فضلا عن فضوله لمعرفة المزيد عن أهلها، و بالذات عن الخالة التي تريد أن تراه . . و مع ذلك تساءل:

- عجيب! . . و شنو علاقة القدر برغبة خالتج بلقائي؟ . . و مع ذلك . . يسعدني و يهمني أتعرف على أي أحد من الأهل . . شوكت و وين تريد تشوفني؟
- هنا . . إحتمال بالمكتبة اللي ورانه . . هي أستاذة هنا بكلية الآداب . . بعد أن تنهي محاضراتها و بعد أن ننهي إحنه محاضرتنا ويه د. وحيد.
- أستاذة هنا! . . و لحد هسه ما أدري؟
- كل شي بوقته!
- لا بأس.

و يتذكر أنه . . جلس ذاك اليوم في مكتبة كلية الآداب ينتظرها تأتي بخالتها، و جاءتا . . خالتها د. زهراء الخدران، إمرأة في مقتبل أربعينياتها، فارعة الطول بتنورة سوداء تصل تحت الركبة بقليل و قميص داكن و حجاب فضفاض تركته يسترسل على كتفيها . . مثقفة سلسة الحديث دمثة الخلق، و بحكم إختصاصها في علم اللغة وجدها تنتقي عباراتها و مفرداتها بعناية . . هي من جيل النساء اللاتي أهدرت الحروب و السياسة أعمارهن و فرصهن للقاء وليف لتلبية نداء طبيعتهن، فرحن يبحثن عن التعويض برمز لفارس الأحلام في أوهام و خيالات الأديان. و الغاية واضحة له من مسعى الخالة للقائه، كي ترى إن كان شخص بعمره في مظهره و ثقافته يصلح زوجا لأبنة أختها التي تصغره بربع قرن . . و مثلما قلّبت أختها ظمياء، بعين خبيرة، مظهره من قبل على أوجه مختلفة و مررت موافقتها، ها هي الخالة تقلب سيماءه بناظريها . .عملية فلترة! . . واضحٌ إذن حرصها على على الا يضيع عمرُ إبنة أختها مع رجل كهلٍ مثله و قد تحول لون شعره كله تقريبا الى رصاصي! . . و هذا من حقها! . . وعيه بكل هذه الأمور جعله يجاهد في أن يكون بحديثه مقتصدا و واضحا و صريحا . . و يفهم من الخالة أنهم يوما ما كانوا أسرة يسارية التوجه و الأب ضابط صفٍ قاسمي التوجه[٢] . . حيره الحجاب الذي تضعه إمرأة بروفيسور مختصة باللغة العربية و آدابها و بماضيها اليساري، حتى لو كان الحجاب الذي تضعه فضفاضا . . فخال حجابها بادئ

[٢] أي من مؤيدي الزعيم عبد الكريم قاسم الذي قاد حركة ضد النظام الملكي في ١٤ تموز ١٩٥٨

الأمر في سياق رغبة بعض النساء وضعَ وشاحٍ على رؤوسهن ليس لوازع عقائدي و إنما لغرض اللياقة و الهيبة مثلما تضع أمه البروفسور الذي أمامه الفوطة و الكيش[3] . . و حتى أنه بات لديه تصور في حقبة الحصار عن هروب العراقيات الى الحجاب . . منهن من هربت الى الأمام، و منهن من هربت الى الخلف . . و في الحالين الهروب فيه دور للذائقة الشخصية و العقيدة و الوعي و التوفير بخاصة بعد الحملة الإيمانية التي أطلقها الفوهرر صدام بعد خيبته بغزو الكويت و برعاية حماه و خاله خيري الطليفيح. و الغاية من الحملة إشاعة خليط عجيب متخلف من الدين و القومية، فوجدت أغلب النساء أنفسهن أمام هاوية في الوعي . . و من ينظر في الهاوية تتطلع إليه[4] . . ما أدى بهروب بعض النساء بالحجاب الى قعر القرون . . و سيظل لحقبة طويلة محتارا و تتقاذفه التصورات في تفسير حجاب البروفيسور التي أمامه، سيما بعد قراءته مستقبلا لرسالتها للماجستير و أطروحتها للدكتوراه اللتين سيكتشف فيهما رجاحة عقل الكاتبة و وعيها . . و ها هي تنتشله من حيرته بسؤالها:

- أستاذ . . حبذا لو أسمع منك . . إنتو ليش راح يتأخر زواجكم لما بعد التخرج من الدراسات العليا؟ . . سنتين مو هوايه؟

هو زواج تقليدي إذن . . سؤالها عبر ضمنا عن رضا غير معلن عن مظهره، و تريد أن تطمئن من ألا يكون تأجيل زواجه من إبنة أختها لمدة سنتين مماطلة من نوع ما و تزجية لوقت فراغ و إشباع رغبة لا علاقة لها بأي إلتزام قادم. و لأنه هو الاخر وافق على وضع المر في نصاب تقليدي، لم ير ضيرا في خوض الخالة البروفيسور مفاوضات من أجل مستقبل علاقته بإبنة أختها، فحرص على أن يكون صادقا و أمينا، و جاء رده:

- هذا بسبب ظروف خاصة و متعلقات لازم أصفيهه قبل أن أدخل بحياة جديدة . . و لأن آني أريد أتفرغ لهالزواج كليا بحيث ما يشغلني شي عن اللمياء!

---

[3] غطاء رأس تلف به النساء العراقيات رؤوسهن و هو صنو الفوطة

[4] القول لفردريك نيتشه

إبتسمت خالتها ربما لإطلاقه نعت اللمياء فإرتبك قليلا. و أخبرته أنها تتفهم أسبابه و ظروفه، و لم تعلق . . إجتاز إختبار وصيفتها الأخت، و ها هو قد إجتاز للتو إختبار السلامة الفكرية[٥]، فابتسم و إبتسمت لإبتسامته لمياء و الخالة. و إفترقو.

و يتذكر أن . . مفاجأة كانت تنتظره في اليوم التالي. جاءت لمياء صباحا و هي تصرح من دكتهما الأثيرة:

- آني إتخذت قرار خطير . . أريد آخذ رأيك به!

و من لهفته إستفسر فورا:

- خير! . . و شنو مضمون هالقرار الخطير؟
- أنت تدري . . آني إمرأة مسلمة!
- طيب!
- قررت أغطي رأسي بحجاب!

أإنكفاءٌ بالوعي؟ . . و ظل ساكتا لبرهة بدت لها طويلة. تذكر بثينة الصفار، و تذكر أبا ذر المجمداوي رفيق سجنه في شباط ١٩٦٣ و كلماته عن الطريقة التي يسحب بها المعممون البساط من تحت إرادة الناس نساء و رجالا في مسعاهم لحجر النساء و جعلهن يغطين كل ما وهبتهن الطبيعة من جمال مظهر يرغب بؤيته الرجل! . . و إنتابه دوخة آنذاك لمجئ رغبتها هذه في سياق علاقة جديدة . . كان قد سماها و إعتاد على خطابها بملكة سومر! . . و أغرم بها لأنه سمعها تتحدث عن فيروز و زياد رحباني و ميشيل خليفة! . . تخيلها آلهة حب سومرية! . . و تريد الآن أن تلف رأسها بحجاب؟ . . الملكات و الآلهات السومريات لم يغطين رؤوسهن بحجاب! . . حاول أن يتصور تمثال نينيتي سيدة الحياة بحجاب، فأخفق . . أو تمثال إينانا بحجاب فأخفق! . . أهو مرة أخرى بصدد تهور في الإختيار؟ . . خسارة ألا ترى إمرأة نفسها على طبيعتها مثلما يريد أن يراها الذكر فيولع بها! . . و لم يكن عسيرا عليه تفسير ما قالته ضمن تصوراته عن ميل العراقيات عموما في حقبة الحصار الى الحجاب و لأسباب كثيرة . . أهو تأثير خالتها البروفيسور؟ . . ربما! . . و سألها في

---

[٥] "إختبار السلامة الفكرية" كان يجريه نظام البعث للأشخاص الذين يشك في نوايا إخلاصهم لنظام البعث

وقت ما إن كانت خالتها قد إعتادت على وضع حجاب على رأسها منذ زمن طويل و نفت ذلك. و رأى في حينها أن عليه إذن أن يضع لهذه الخالة حسابا منذ تلك اللحظة. و سيعلم فيما بعد أن أمها جن جنونها لإتخاذ إبنتها قرارا خطيرا من هذا النوع. أمـّها و على الرغم من تحصيلها المتواضع في الدرس، و هذا ما سيعرفه لاحقا، سيكتشف أن وعيها يزن عشرة أمثال وعي خالتها البروفسورا . . نكوص و إرتداد! . . ها هي واحدة من معاركه تأتي، فعليه إلا يفرَّ منها و أن يضع ستراتيجيات و تكتيكات للإقلال أولا من تداعيات التدني المتواصل للوعي عند المرأة التي إرتبط بها للتو، لكي يسهل عليه التصويب فيما بعد! . . موقف يتطلب الإنتصار على الذات! . .
فإلتفت الى لمياء. وجهها يشي بإبتسامة إنتظارا لردة فعل بالموافقة . . فعلق:

- زين! . . أنت تعرفين . . و آني أيضا أعرف قرار من هالنوع يخص خيارچ الشخصي و مو من حق أحد يعارض . . زوج . . حبيب . . أخ . . أب . . أي كان أن يملي عليچ ما تلبسين و ما تعتقدين . . طالما هذا لا يفسد ودا!

فقاطعته معلقة:

- فضلا عن أن التدين بحد ذاته هو مو فكرة مريضة!

آه! . . ها نحن نأتي الى لب المسألة و لما فيها من لوك في الكلام! . .
أحس حينها أنه يمر بإمتحان صعب مع إحساس أنه لو وافقها على رأيها، فهو سيلقي كرة الإمتحان في ملعبها من ناحية أنها حتى متى ستظل محجمة عن التدخل فيما تظنه قد يعارض وجودها مع شخص مختلف عنها في التفكير و لا يؤمن بلبس المرأة للحجاب، مع أنه لا يمانع العيش مع إمرأة من هذا النوع . . مغامرة من نوع ما! . .
فواصل حديثه معقبا:

- أتفق الى حد ما مع الرأي القائل إن التدين مو فكرة مريضة . . و أقصد بالتدين الإيمان بوجود قوة غامرة بالكون . . بعيدا عن الميل لإستحضار أشباح و ملائكة و أباليس و شياطين . . و بعيدا ايضا عن التماهي مع تخارف اللي يسمون أنفسهم قديسين و حجج و آيات الله و أصحاب سر مقدس! . . و أكو إحتمال أن يبدو التدين فكرة مريضة لما تستولي عليه أوهام

الأشباح اللي تودي بالذائقة و بالوعي . . و بخاصة لما يبتدي المتدين تعسفا بوضع تابوات للآخر المختلف أثناء العيش معا . . ذاك حرام و هذا حلال . . و يشرع بقطع الوصل مع ناس چانو حتى الأمس القريب أعز ناسه و أحبائه . . و يحوّل تدينه الى قمقم لا يكف عن إختراع الأسباب لقطع الوشيجة مع الآخر لغاية أن تموت روحه و هو حي . . تموت روحه خوفا من جهنم يختلقها رأس معممّ أثول أو قديسٌ معتوه . . و مثل هذي الجهنم برأيي لا وجود لها خارج رأس المتدين مع أنها تتهدده في كل لحظة . . أو ربما يقع المتدين تحت إغراء جنة يوعد بها إذا ما أهدى مارقا أو كافرا!

و تقاطعه محتجة:

- آني مو من هذا النوع!
- آمل ذلك! . . و هذا التدين راح بالتأكيد يمر بإختبار! . . بالمناسبة آني مو ملحد! . . الإيمان بوجود علة أولى لهذا الكون المترامي المنتظم و اللي أشوفه مدهش و جميل و مثالي . . هذا الإيمان تمليه ضرورة أخلاقية . . و آني ما أگول هذا حتى أبرر قبولي بخيارچ لبس الحجاب . . و إنما لإعتقادي بأن الإنسان . . شاء أم أبى . . يسعى لمعرفة كنه المطلق اللي يسمونه مرة إله . . و مرة رب . . و مرة الله . . و مرة الرحمن . . و مرة يسمونه قوانين موضوعية . . و مرة يسمونه ضرورة . . و ما الى ذلك من تسميات . . و آني مؤمن بوجود هذا المطلق لأسباب أخلاقية مو ميتافيزيقية . . و إيمان اللي من هذا النوع يخليني دائما أرفض كل الترهات و المخاريق اللي تنسب الى أشخاص يزعمون أن هذا المطلق خصهم بشئ معين و يحاولون يصورون أنفسهم على أنهم الواسطة بيني و بين هذا المطلق بسلسلة من الأكاذيب و الخزعبلات . . و بغض النظر عن تسمية هذا الشخص الواسطة لنفسه . . نبي! . . قديس! . . ولي! . . أو أي كان!

ظلت مصغية إليه . . يواصل:

- و لعلمچ . . آني حتى أحيانا في زمني هذا . . أشوف هذا راسي به أفكار تناسب زمني هذا أكثر مما تناسبه الكثير من

أفكار القديسيين من اللي يسمون أنفسهم هالأيام آيات الله و حجج دين و حَمَلَة سر مقدس و شيوخ الرحمن!

و **يتذكر أنها** . . أصغت إليه بإنتباه شديد دون تعليق أو تعقيب أو رد . . فأضاف:

- و أشوفج لحد هسه ما سألتيني . . عليش هذه الخطبة الطويلة المملة!

حسب آنذاك أنها أرادت أن تجامله . . فقاطعته معلقة:

- صدقا؟ . . ما حسبتهه خطبة مملة! . . لأن آني أريد أستزيد و أسمع رأيك كاملا!

فواصل كلامه:

- . . . العبرة من هالخطبة راح أخليهه بسياق بسيط قد يصلح مثالا . . هو أني كنت يوما ما شارب خمرة . . و تركتها قبل سنين قليلة . . لا كرها بالخمرة أو لتوبة من ذيج التوبات الزائفة المباغتة اللي غالبا ما يحلو للبعض أن يبرروهه لما يحسون أجلهم إقترب . . و إنما تركتها بسبب هالحصار اللعين اللي يعانون منه الناس الويلات . . تركت الخمرة بعد أن أثـَّر الحصار على إحتياجات أسرتي . . بالأخص بنياتي الإثنين اللي شفتهن هن أحق مائة مرة بثمن الخمرة اللي أشربهه بزمن الحصار اللي عز فيه الخبز النظيف على ملايين الناس . . و لهذا السبب حرمت نفسي من هالمتعة من أجل أسرتي!
- جميل! . . و العبرة؟
- العبرة هنا هي . . إفترضي آني قد يخطر في بالي يوما ما العودة الى شرب الخمرة و أنت زوجتي . . فهل ستجدين بتأثير الحجاب اللي راح تلبسينه أو بتأثير تحريض من أحد معين . . مسوغا لتحريم نفسج عليّ لأن الخمرة بموجب عقيدة الحجاب هي منكر و من الكبائر أو أي شئ من هالترهات اللي تبيح للزوجات لأسباب متنوعة التنكر لأزواجهن؟ . . و بالذات لما يتفق رجل و إمرأة على العيش سوية و يجمعهم عليهه مو دين . . و لا فكرة أي كان تسويغها . . و إنما تجمعهم عليهه حاجة طبيعية . . يلتقون حتى يحققون غرض تسعى إليه الطبيعة . . و بعد الحاجة الطبيعية تجي كل التبريرات اللي

إخترعوها البشر! . . و أقولها لك منذ اللحظة و بصراحة . . آني أحب أن أكون حرا! . . لا يقيدني قيدا! . . فهل سيتحول زواجنا القادم الى نوع من قيد بسبب الحجاب اللي راح تحطي على راسچ؟

و **يتذكر أنها** . . لم تعلق آنذاك و وجدها تنظر إليه بوجد لم يعتد عليه، فأضاف سائلا:

- باختصار شديد . . الأهم من هذا كله و بعد اللي سمعتي مني للتو . . و لأني أشوفچ من بين النساء تصلحين مثلا أعلى لزوجة و شريكة حياة في أمور كثيرة . . أتجدينني أصلح لك مثلا أعلى زواجا بزواج . . و هذا الزواج برأيي إبتدأ من اللحظة اللي دخلت بها إبتسامتچ الساحرة الى قلبي؟

يتذكر جيدا أنها . . أمسكت بيده بحنان و شدت عليها بقوة . . لتقول:

- أجل . . و الى ما حييت . . تصلحلي مثلا أعلى الى أبد الدهر!

و عقب بعفوية:

- أقصد . . أأصلح مثلا أعلى من نوع ما . . ما له علاقة بالإشباح التي تنبع للناس من قعر التاريخ و من نفوسهم المريضة و تسيطر عليهم و تحول خيالهم الى بقعة مريضة برؤوسهم . . و تفسد عليهم علاقتهم بمن يحبون و تحول حياتهم الى جحيم؟
- . . ما حييت!

ذاك أول تكتيكات ستراتيجيته قد لقي قبولا . . و فاجأته مرة أخرى ذالك اليوم بطلب خاتم خطوبة ذهب.

و **يتذكر أنه** . . أتاها في اليوم التالي بخاتم زواج من الذهب بصياغة فاخرة جالبا لنفسه أيضا معه خاتم زواج من الفضة موضوعين في العلبة نفسها نسي أن ينقش عليهما إسميهما . . و حين أتت رآها قد غطت رأسها بحجاب بزرقة البحر. و ظل يتأملها بالحجاب، و هو يعطيها الخاتمين، فتلقى منها نظرة إمتنان طاغ على ما جلب لها . . وتعمدت سؤاله عن هيئتها بالحجاب، فعلّق:

- ملكات سومر جميعا . . لا نينيتي إلهة الحياة! . . و لا شمخات مروضة الحب! . . و لا إينانا إلهة الحب و الخصب! . . أي وحدة منهن ما چانت تلبس حجاب!

و يتذكر أنها . . سرحت بنظرها بعيدا عنه، و وضعت الخاتمين في حقيبتها. و منذ رآها بالحجاب إكتفى بمخاطبتها باسمها لمياء دون ألقاب، و كف عن مخاطبتها بملكة سومر إلا مرتين . . مرة حين عرّفها على بثينة الصفار حين إلتقياها في معهد معلمات بعقوبة و كأنه لربما أراد بذلك عفويا و بزلة لسان إيصال رسالة رمزية لبثينة فحواها أنه وجد المرأة التي تفتنه . . و مرة ثانية و هو مغادر الى ليبيا في عمان أمام محمد الفنان. و كانت تلك فلتة لسان!
السمفونية الفانتازية أنتهت دون أن ينتبه . . و راحت أنغام فاغنر في المغني الجوال تتدفق من الراديو . . و سرعان ما غفى.

* * * * ** * * *

يستيقظ صباحا . . و الشمس لم تكن قد أشرقت بعد على عمان. الراديو ما يزال مفتوحا على أسرائيل أيف أيم تنبعث منه أنغام . . ليليات شوبان . . على البيانو فإشتاق لسماع صوت فيروز و حوّل الراديو على عمان أف أم علته يجد ضالته فوجدها. و تروح أنغام المندولين و البيانو تصدح هادئة تناسب جو الصباح و يأتيه بعدها صوت فيروز تصدح . . ألانت الذي يا حبيبي . . نقلت . . لبييضِ العصافير أخبارنا . . فجاءت . . جموعا جموعا . . تدق . . مناقيرها الحمر شباكنا . . و يكاد حمدان يبكي صباحا و هو يحلق ذقنه حين وصلت فيروز الى . . و تـُغرقُ مضجعنا زقزقات . . كاد يبكي و تذكر أن لمياء عصية دمع!
و إنتهى من إعداد الشاي و وجبة الفطور البسيطة، و تناولها بمزاج أفضل من مزاج اليوم السابق. لم يتجاوز الوقت السابعة بعد حين شرعت الشمس تـُرسل إشارات طلوعها على رؤوس المباني العالية القريبة منه بشعاع خجول أول الأمر سرعان ما راحت تشتد صفرته. عليه أن يكون في ورشة النجارة قبل التاسعة، و ما يزال أمامه متسع من الوقت قبل أن يغادر. و مع ذلك غيَّر ملابسه و نزل فهو يؤمن دوما . . إذا أردت أن تكتشف مزايا مكان لا تستعمل واسطة نقل سوى ساقيك لهذا الغرض! . . مشى من البيت نحو الدوار السابع يسلك شارعا خلفيا. و من هناك في الشارع الرئيس مشى نحو الدوار الثامن حيث بإمكانه إنتظار باص يقله الى مرج الحمام . و إنتظر دقائق قبل أن يأتيه الباص المطلوب و إستقله.

في مرج الحمام سيستدل على ورشة النجارة و يصل إليها . . التعارف يجري. من في الورشة فلسطينيون مقيمون في الأردن. جو الورشة مشحون بصوت الراديو على إذاعة فلسطينية تبث أغانٍ حماسية عن الإنتفاضة الفلسطينية المستمرة منذ أسابيع، فذكـّره ذلك بأجواء حماس زائف إنفعالي مروا به في العراق في حقب مختلفة و أفضى دائما الى خسائر دراماتيكية جسيمة متتالية! . . من اللحظات الأولى تـفـّر من المكان على الرغم من إستقبالهم اللائق . . الأسطة إسماعيل كبير الورشة يكلفه بنجارة غرفة نوم راقية و معقدة . . إختبار! . . واضحٌ أنهم يتصرفون بخبث فما كلـّفوه به مغامرة الغايةُ منها إختبارٌ مَحَكيٌّ منذ اليوم الأول كي يجدوا فيه ذريعة يتخلصوا بها منه بأقرب فرصة . . و ما عزز شكوكه هو إستفسار المعلم إسماعيل منه بلهجة غير حيادية:

- هوه صحيح حضرتك أستاز جامعة؟

واضحٌ أنه يقصد . . فما الذي أتى بك تشتغل نجارا! . . فرد حمدان بلهجة محبطة:

- هيك و هيك!

فعلق إسماعيل قائلا:

- شو أستاز . . هيَّ فزورة! . . ما علينا!
- عفوك أسطة اسماعيل!
- ما علينا . . يعطيك العافية أستاز . . غرفة النوم هيدي تبع واحد مكدسي[٦] من الناس الواصلة في عمان!

فقاطعه حمدان بنرفزة مبطنة محاولا تقليد لهجة الأسطة:

- . . . و أنا شو علاكتي بهيده كلو! . . أنا نجار إعتاديت أنجر للناس الواصلة و للناس اللي مش واصلة . . طالما هم يدفعون لي أجري! . . أسطة إسمحلي أحضّر المادة اللي أحتاجها!

و يحيّـره أسلوبهم الإستفزازي في أول يوم. و سيجد عند شفيق النبلاني تفسيرا لسلوكهم مفاده أن أولئك الفلسطينين من أشياع منظمة حماس، و هم من عَبدَةِ صدام جراء بذخه عليهم، يعتقدون بأن أي عراقي يغادر العراق في حقبة الحصار هو خائن لبلده و لقائده صدام

---

[٦] مكدسي : مقدسي (بلهجة أرياف القدس)

و للأمة الإسلامية و يسكتون عن إطعام صدام أهل العراق قوت الدواب طالما هو مواصل ضخ آلاف الدولارات لكل جهادي منهم تقتله إسرائيل . . فقرر مذاك ألا يعاملهم إلا على النحو الذي يعاملونه به! . . و يمر نهار حمدان ثقيلا و مزعجا، و لكنه لم يرد أن يتسرع و يتخذ قرارا فوريا من نوع ما. و عند الساعة الخامسة و كان وقت غروب سألهم عن مكان بيت ناصر الحسيني فدلوه عليه. و توجه الى هناك مشيا لمدة عشرة دقائق علّه يجد هناك شيئا أفضل!

* * * * *   * * * *

فيلا ناصر الحسيني في مرج الحمام تقع على ربوة ليست عالية جدا . . ضغط على زر جرس البيت و إنتظر. أطل عليه في ممر حديقة المنزل شاب تعدى العشرين أو كاد . . أنهم بإنتظاره. و ينفتح باب الحديقة و يرحب به الشاب مادا يده قائلا بلهجة بغدادية صرف:

- هله بالأستاذ . . تفضل!

يمشي حمدان وراء الشاب ليدخلا فراندة المنزل المزججة من ثلاث جهات . . الحسيني في آخر لقاء معه تحدث عن أزعرين من أولاده يحتاجان مساعدة المدرس . . و ها هو حمدان يتفاجأ بوجود خمسة . . ثلاثة صبيان و بنتين . . و قفوا جميعا لإستقباله. و شرع مَن أدخله المنزل بتقديم أخوته مبتدئا بنفسه:

- آني محمود . . سادس إعدادي هنا يسمونه توجيهي . . و هذا حسين بثاني متوسط . .

و يرحب به حسين مراهقا في الرابعة عشرة ممتلئ الجسم مورد البشرة أحمر الخدين . . و يواصل محمود:

- و هذا ياسين . . أول إبتدائي . .

صبيٌ صغيرٌ ضئيلُ الحجم . . لم يقل شيئا . . و سيكتشف حمدان أنهم سمّوه تيمنا بالشيخ ياسين مؤسس حماس . . و يواصل محمود:

- و هذي هند . . صف رابع إعدادي.

مراهقة في حوالي السادسة عشرة تشبه أخاها حسين في تفصيلات كثيرة و تضع حجابا فضفاضا على رأسها . . رعونتها واضحة من طريقة ترحيبها به، بخاصة حين يرتجف نهداها و يرتجان حين تتحدث . . و ستحاول معه بمكر بارع ما سيعده حمدان غواية

مبطنة، فيتذكر تعليق بثينة الصفار . . كاليبسو كنعانية أو من البتراء .
. و سيتماسك!
و يواصل محمود مقدما آخر الجمهور:
- و هذي فاطمة . . سادس إبتدائي!
صبية في حوالي الثانية عشرة نهداها برزا للتو بروزا خفيفا. و من نظراتها و من حديثها بدى له مكرُها . . فهي على عكس أختها تشع فطنة و ذكاء ستتميز به عنده، و يضاف إليه سكـينتها.
جلس حمدان على الكنبة الموضوعة أمام جدار الفراندة الملاصق للمنزل و من ورائه نافذة بستارة تطل من المنزل على الفرندة . . و راح يتملى الأولاد و هم سكوت. و يطلب محمود من هند أن تذهب لتأتي بفنجان قهوة، فتقوم مارقة من أمامه يرتج جسدها الممتلئ بأجمعه. أباهم تحدث له عن أزعرين، و سيكتشف أن الجمع كلهم زعران عدا فاطمة! . . سمعهم للتو يتحدثون جميعا بلهجة بغدادية صرف، تشبه لهجة أولاد أزقة بغداد و تشوبها أحيانا ما خاله نبرة شروگية سيعلم مصدرها في الجلسة ذاتها . . و جال بخاطره أن لكلٍ من هؤلاء الأولاد حكاية مع الدراسة عليه أن يسمعها قبل الشروع بالعمل معهم. جمهرتهم تستدعي وجود خطة . . و ها هي مرتجة الجسد تعود حاملة صينية مذهبة لتضع أمامه فنجان القهوة و معه قدح ماء، فشكرها و جلست . . الصمت يلف الفرندة و هو يرتشف القهوة، فقال:
- إنتو مستعدين للدراسة اليوم؟
و تبادر هند:
- بكيفك أستاذ!
فيعقب حمدان:
- آني أشوف اليوم نخصصه للتعارف و التعرف على إحتياجاتكم . . حتى يكون بإمكاني وضع خطة و جدول عمل!
و يعلق محمود:
- اللي تشوفه أستاذ!
و حمدان يضيف:
- زين! . . هسه أريد أشوف كل واحد منكم وحده رجاء! . . و خلي نبدي بمحمود!

يخرج الجميع و يظل محمود لوحده فيسأله حمدان:

- شگد صارلكم بعمان؟
- سنتين . . و روحنه طالعه من عمان!
- إنت وحدك اللي روحك طالعه . . لو كلكم؟
- كلنه ما عدا أمي و أبويه!

و يتريث حمدان قبل سؤاله:

- إنتَ . . هذي أول سنة بسادس إعدادي؟
- لا هذي الثالثة!

و يتمهل حمدان قبل أن يصوغ سؤاله التالي :

- محمود صارحني . . شنو قصتك بالضبط؟ . . أقصد شنو اللي أخـَّرَك كل هالمدة بالإعدادية؟

عيناه تتطلعان لمحمود. و هذا يتمهل بالإجابة:

- شوف أستاذ! . . آني يعجبني أسلوبك و صراحتك . . و لا واحد من الأساتذة الأردنيين أو الفلسطينين اللي شفناهم گبلك سألني عن قصتي! . . و هذا اللي يعجبني بيك! . . چان يجينه أستاذ أردني . . كس أختو . . لو فلسطيني . . كس أخت أختو . . و يحاول يصير براسنه أسطة . . بس إحنه چانت عندنا وسائل نطفش أي واحد منهم بعد يومين!

يا للصراحة! . . فعقب:

- إنت وحدك چنت تطفشه . . لو بموافقة المجموعة؟
- يعني . . هيچ و هيچ!

أعجبتـه صراحة محمود فتركه يتحدث على سجيته . . ها هو الأزعر الأول! . . كان على يقين تقريبا أن دخوله في صلب الموضوع مع أكبر الأولاد هو ما سيسهل له العمل معهم الى أطول مدة ممكنة! . .

و يواصل الإستماع لمحمود:

- . . جابونه هنا گبل سنتين و تركنه ورانه ذكرياتنا و ملاعبنا . . الوالد يگول ضرورات العمل و الوالدة تگول . . نتگرب

مـن عمـان تـگـربنا مـن الكـدُس[٧] . . كـس أخـت أمـي . . و كـس أخت الكـدُس!

حمـدان لـم يعلـق أو يقـاطع. ثمـة مـا تركـه محمـود فـي بغـداد و يحـن إليـه، فتـرك محمـود يغـوص فـي حياتـه التـي تركهـا فـي بغـداد. نوافـذ محمـود مشرعة أمام أستاذه، فقاطعه سائلا:

- بأي منطقة چنتو في بغداد؟
- منطقــة الشــعب . . أهلهــا الحلــوين . . و مدرّســاتهه الحبيبــات الكتكوتات . . شيعة خوش أوادم و بناتهم يجنن!

هـا هـو يتكشـف مصـدر خـيط النبـرة الشـروگـية الخفيفـة فـي لهجـتهم البغداديـة! . . و سـيعلم مـن محمـود إن الحسـيني الوالـد عنـده مصـنعين فـي بغـداد مكـّـنتهم مـن عـيش رفاهيـة كاملـة أيـام الحصـار. و إن العيشـة المرفهـة كانـت تيسـر لـه هنـاك فـي منطقـة الشـعب حيـز تمـاس فـي المدرسـة مـع كـل الـذين أجـاعهم و أوجعهـم الحصـار، بخاصـة مـع إنـاث المنطقـة، مـا هيـأ لـه إغـواء أيـة مدرّسـة تحـت ضـغط حاجتهـا و راتبهـا الـذي لا يسـاوي شـيئا دولار واحـد فـي الشـهر . . يغـويهن ببلـوزة أو بتنـورة أو بقـرطين رخيصـين مـن ذهـب . . هـذا الأزعـر مـارس الجـنس مـع العديـد مـنهن . . متزوجـات و عزبـاوات . . و بعضـهن كـن هـن اللاتـي يعرّفنـه علـى مدرسـات مـن غيـر مدرسـته! . . و هـو يتأمـل هـذا الأزعـر الـذي أمامـه يتيـه فـي خيالـه متـذكرا غزواتـه، و يسـتمع إليـه يتحـدث عـن ليـالٍ غـاب فيهـا الكهربـاء يـروح فـي ظلمتهـا يهصـر أثـداء الصـبايا الصـغيرات فـي منطقـتهم لقـاء لـوح علكـة أو لـوح شـوكولاتة . . و محمـود يتحـدث لـه عـن بنـات بنـي الأ صـفر و خيبـر البغـداديات! . . سخـِطَ حمـدان علـى نفسـه و سـخر منهـا بمـرارة متـذكرا سـفرته الشـاعرية الـى ليبيـا ليعيـد بثينـة الصـفار و يخلصـها ممـا خالـه، فـي أعمـاق نفسـه البدويـة ربمـا، أو بسـبب غيرتـه مـن التريكـي، تعـديا علـى الشـرف العراقـي . . و أحـس بـدمع وهمـي يجـري مـن مقلتـه لا الـى الخـارج و إنمـا يسـيح الـى داخـل روحـه، فيحرقهـا بملوحتـه و يسـيل الـى مصـارينه، فشـعر فعـلا بلويـة قويـة فعليـة لا وهميـة فـي أمعائـه . . بـذاءة الأزعـر

---

[٧] الكدس: القدس (على عادة لهجة أرياف القدس في تحويل القاف الى كاف) و واضح هنا ان الشخصية تسخر من لهجة الوالدة

الذي أمامه أذهلته بقابليته على الكشف عن نفسه وعما لا يعرفه هو حمدان عن قاع بغداد أيام الحصار . . و عن جبن أهل بغداد في كشفهم لحقيقتهم و إن كان لا يختلف كثيرا عن قاع مدينته بعقوبة و جبن أهلها في الكشف عن حقيقتهم! . . حصل هذا في الوقت الذي ظل فيه الجميع يتحدثون عن شعب عظيم فصرخ صوت في داخله . . طـــززززززززززززز بالشـــعب العظـــيم! . . و عفطـــــة . . طيييييييييييييييييط! . . لكل تاريخه الذي لم يكن يوما مجيدا منذ دخول الإيمان بالله إليه ملفوفا بالعروبة العدنانية و القحطانية و الغسانية! . . و مرق في رأسه . . مغفل! . . ذهبت لتعيد بثينة الصفار من فوهرر مأخوذٍ بالشرف الى فوهرر مأخوذٍ بالإيمان بالله!
أبناء الحسينيجميعا ولدوا في بغداد . . و أراد أن يعرف نية محمود فسأله:

- محمود . . صارحني! . . إنت تريد تنجح لو ما تريد؟
- من طريق الدراسة؟ . . لا طبعا! . . لأن آني ما أريد أفرّحْ هذوله الإثنين . . أمي و أبويه . . اللي جابونه هنا و حرمونه من سعادتنه في بغداد . . لا قطعا! . . ما أريد أفرّحْهم! . . و الغريب أيضا . . هذوله الإثنين . . أقصد أمي و أبويه من أجو هنا لعمان فجأة صارو يحچون مثل الفلسطينيين! . . مو چانو في متبغددين أربعة و عشرين قيراطا! . . شحولهم فجأة الى فلسطينيين لما إجو هنا؟

و يتذكر حمدان مزج ناصر الحسيني اللهجتين الفلسطينية المقدسية و العراقية البغدادية في حديثه . . و يشعر إنه إكتفى من محمود . . فيسأله:

- أبوك يعرف كلشي عنك؟
- كس أختو . . إذا چان گلـك هو ما يعرف كلشي عني!

و يلقى حمدان بظهره الى الخلف مسترخيا . . إبتسم لمحمود و حبس ضحكة تهريج ساخط تريد أن تثب من قعر قلبه، فيستدرك موقفه و المكان الذي فيه و يتصنع سيماء جادة . . ليعلق:

- لا . . لا . . لا . . لا! . . ما أرضى أبدا! . . أولا ما أرضى تحچي عن الوالد بهالطريقة . . و لا أقبل تردد شتائم و كلمات من هالنوع أمامي لأن آني المعلم مالك!

- صار!

و من طريقة رد محمود و نبرته أدرك حمدان بأنه فشل للتو في إظهار الجدية التي أراد أن يوصلها لمحمود و كي يتلافى الأمر بطريقة أخرى أضاف:

- محمود . . صار معلوم . . بس أريد أعرف . . إنت تحب اللهجة البغدادية و مع ذلك سمعتك تـگول الشتيمة بلهجة غير اللهجه البغدادية!

و يقاطعه محمود:

- يا شتيمة؟
- هذي اللي كررتها گبل شويه؟
- يا هي؟

و يتضح لحمدان بعد فوات الآوان بأنه واقع في مصيدة محمود . . و مع ذلك راح يتماهى:

- هذي اللي تبتدي بالكاف و تنتهي بكلمة . . أختو!

و يصرخ محمود إعجابا:

- الله! . . .الله! . . شوف شلون چان تجي مثل الموسيقى بحلـگك لو مكملهه إنت باللهجة البغدادية!
- على أي حال . . هذي يا لهجة اللي گلتهه بيهه . . أردنية لو فلسطينية؟
- أردنية؟
- زين و ليش ما تـگولهه بالبغدادية؟
- لأن هذولة اللي بعمان ما يستاهلون أگولهم باللهجة البغدادية حتى الشتيمة و الفشار! . . البغدادية لهجتنه الجميلة تنحچي ويه اللي يستاهلونهه و تنـگال عن اللي يستاهلونه حتى لو بيهه فشار!

إنرفعت الكلفة بالكامل! . . و يغرق حمدان بضحكة مكبوتة. و مع ذلك و على الرغم من أنه حرص على ألا يكون حديثه مع محمود مسموعا من وراء الباب القريب منهما، تملكه هاجس أن تكون ربة البيت واقفة وراء الباب تتصنت. ثم أراد أن يسمع من محمود العبرة:

- و هسه محمود . . شنراح نسوي؟

- إنتَ جاي هنا تحچي ويانه بلهجتنه البغدادية . . و هذا يكفينا منك أستاد . . و إلا لچان إختصرنه الموضوع بأكمله دون مصارحة . . و چنه رسمنالك خطة و بيومين حالك حال المدرسين اللي گبلك . . چان لفلفنه قضيتك و طفشناك! . . مثل ما يگولوهه المصريين!

الصدق مفتاح الفرج و التساهيل! . . بدى له محمود صريحا، أو بالأحرى لربما لم يحصل و أن كان محمود في حياته صريحا مثلما هو في هذه اللحظة . . إستلم حمدان رسالة محمود و فهمها على الوجه الذي أراده الأزعر الأكبر بين أولاد الجسيني. و طلب إليه الإنصراف و إرسال من يشاء من أخوته كي يطلع على هرمية السلطة في المكان. ذهب محمود و دخل حسين من بعده . . لم يكن هذا ليختلف كثيرا عن أخيه الأكبر إلا قليلا بخاصة إستعماله لتعبير . . كس أختو! . . صبي مراهق في الثالث المتوسط. يصغي إليه حمدان يتحدث عن خسائره التي تركها هو الآخر في بغداد . . أرض ميعاد الغنائم لكل من هب و دب إلا لأهلها! . . و لا تختلف عن خسائر أخيه سوى في موضوع الحشيش، و تفاخر بغزواته مراهقا و هو إبن الرابعة عشرة. إقتصرت غزواته فقط على الصبايا الصغيرات اللاتي تزغبت وجوههن للتو في مدينة الشعب و لم تكن قد وصلت به الجرأة الى حد التحرش بمعلماته فحدَّث حمدان نفسه . . ها هو أزعر ثانٍ! . . بعد أن إنتهى سأله حمدان:

- تريد تنجح لو ما تريد؟
- أريد طبعا!

حسين مختلفٌ عن محمود، فطلب إليه الإنصراف و إرسال من يشاء من إخوته فذهب.

حين دخل عليه ياسين الحسيني الأصغر بين الحسينيين جلس قبالته، فتأكد حمدان من أن هرم السلطة في المكان هو لمبدأ . . الرجال قوامون على النساء . . حتى لو كانوا زعرانا! . . فسأل:

- ياسين تريد تنجح لو ما تريد؟
- أريد . . و أريد أطلع الأول!

و يطرح عليه سؤالا بدى له إعتباطيا لمجرد إطالة الحديث مع الصبي:

- ياسين . . تحب ماما و بابا؟
- أي!
- و منو بعد؟
- أسامة بن لادن . . و الشيخ أحمد ياسين!

و ها هي تتفسر أمامه تسمية الولد بياسين . . كان موضوع تفجيرات ١١ أيلول ما يزال ساخنا عند الفلسطينيين عموما . . فعرف حمدان من إجابة الطفل الكثير مما كان يريد أن يعرفه . . أليس مَنْ أمامه أزعرا ثالثا في الأسرة؟ . . أجل! . . و سيكتشف بعد شهرين من هذا التاريخ أنه أزعر و بإمتياز. سيحصل ذلك حين ستفضي إليه فاطمة الصبية الصغيرة بسر أخيها ياسين، نكاية بأختها هند كي تفضحها، و بأخيها الرويسي ياسين، و هو يحرِّض أمه على حمدان بطريقة أو بأخرى و يطلب من أمه أيضا مراقبة هند عند دخولها الى الأستاذ . . طلب حمدان منه الذهاب و إرسال التالي . . فتدخل هند بجسدها الذي لا يتوقف عن الإرتجاج . . حمدان رأى نساء كثيرات ترتج أجسادهن عند المشي أو القيام أو الجلوس، أما أن يرى إمرأة يرتج أعلى جسدها كله حين تتحدث، فهذا لك يرَ مثله سوى عند هند الحسيني . . يرتج جسدها حتى لو مشت مسافة قصيرة لا تتعدى خطوة أو خطوتين . . و يرتج جسدها حتى عندما تنطق بكلمة واحدة . . نهدان يتلقفان اية فرصة كي يتقافزا . . ورك راقص . . و ردفين يكادان يشقان الجبة التي عليهما شقا و يطيران ليعلنا عن نفسيهما بضرواة إمرأة الكهوف . . جاءت و بيدها قدح عصير وضعته أمام حمدان تقول:

- تفضل أستاذ!

يشكرها حمدان و جلست قبالته . . يأخذ من قدح العصير رشفة و يتطلع إليها. وجدها تتملاه دون هوادة و دون رفة رمش، و تعمد هو الآخر ألا تسقط هو أيضا عيناه عنها لمجرد معرفة مدى جسارتها. أول ما راود ذهنه . . لا بد أن تكون لهذه الصبية أيضا خسائر! . . فما هي يا ترُى خسائر هذه الصبية الجموح في بغداد؟ . . لا بد من أن يكون ثمة خسائر لمراهقة يرتج جسدها طربا حتى من نسمة خفيفة غير محسوسة. و للحظة خامر خاطر هو أنه لو تسنتى له في هذه اللحظة أن ينفخ عليها و هي جالسة لأرتج بدنها كله! . . أستكون من الجسارة و تتحدث له و لو بعد حين عن خسائر من نوع ما تركتها

وراءها في بغداد؟ . . ينظر إليها و يتذكر في ثوان قصة شابة فلسطينية أبان الستينيات في بعقوبة أوشك تفتح فتوتها أن يأفل قبل أن تجد لها مخرجا عند قومها الفلسطينيين يوافق العرف السائد في الشرق الأوسط، فإنغرت بحب شاب عراقي لها و راحت ترفه عن نفسها معه حالها حال العديد من العراقيات غير الصابرات، و على الرغم من تكتمها الشديد إنفضح أمرها . . ليرة غوار الطوشة! . . لأن فارسها البطل العراقي لم يكن هو نفسه فارسا و لا متكتما، و كان بعد كل لقاء لهما في بستان أبيه القريب من السوق يروح يفتخر بنكاحه لفلسطينية لاجئة و يتحدث بالتفصيلات في مجلس المقهى حين يلعب الدومينو بسرده حكايات نكاحه لها من الأمام و من الخلف و من كل ثنية فيها . . العراقيون بل قل الشرقأوسطيون لا يعرفون سحر الخصوصية . . لا أسرار لديهم! . . و نيك المرأة عندهم حتى لو كان عن حب منها لا يختلف عن غنائم حروبهم، و في موضوع سراياهم لهم أسوة بأصحاب حكايات الإستفخاذ! . . و النتيجة كانت ذبحها من الوريد الى الوريد على يد إبن عم لها برّأه القاضي العراقي من قتلها فيما بعد على وفق مبدأ . . غسل العار . . و تذكر حمدان أيضا و بسبب عصابيته الشبابية آنذاك أنه ظل ما أن يلاقيه في الشارع فارسها النذل ذاك يبصق عليه علانية أمام الناس و لا يخشاه. التكوين الجسدي للذبيحة كان يشبه جسد هند . . قصيرة قامة و ممتلئة غير أنها لم تكن آنذاك بحاجة لرج جسدها لتثير الناس فتنة من تحت جبة، لأنها كانت تلبس تماشيا مع موظة ذاك الزمان المنفتح إجتماعيا قميصا يبرز أعلى صدرها و تنورة قصيرة تبرز فتنة ساقيها!

حمدان يحاول التماسك كي يظل مقاوما لأطول مدة ممكنة مواجهها قحة و صلافة نظرات هند . . و لكني يهدئ من نفسه، أخذ رشفة من العصير معلقا:

- لذيذ!

في البدء كانت الكلمة! . . كان الآوان قد فات على إدراكه لخطورة إستعماله لمفردات من نوع . . لذيذ . . لأنه أراد أن يكون رسميا الى أبعد الحدود، فوجدها تنفرج أساريرها عن إبتسامة رضى لتعقب:

- من صنع أيديه و حياة عينيه!

و لم يجد سوى أن يقول:

- تسلم إيديچ . . يا ستي!
- شكرا.
- أريد أعرف؟

ثم تريث . . إذ أدرك نوع السماجة في أعادة سؤاله:

- تريدين تنجحين لو ما تريدين؟

و جسدها لا يستقر على حال . . أجابت:

- أي أريد أنجح طبعا! . . شتريد تعرف؟

و تمهل قليلا قبل أن يحاول إعادة صياغة السؤال:

- تحبين المدرسة؟
- طبعا! . . لأن بيهه صديقاتي . . و تخليني أشوف العالم خارج هالبيت!
- و بإعتقادچ . . بيش راح أگدر أفيدچ بجيتي لبيتكم؟
- يتوقف!
- عليش؟

ظلت تتطلع إليه و لا تجيب و وجهها ما يزال منفرج الأسارير . . لا يدري حمدان من أين سقطت عليه مرة أخرى مفردة . . كاليبسو! . . التي تفوهت بها بثينة الصفار قبل مغادرتها عمان، فحاول أن يهرب من نفسه بإعادة السؤال:

- إي گولي! . . يتوقف عليش!
- شوف أستاذ خلينه نگول . . آني راح أحتاجك بالإنگليزية . . لأن أريد أقوي نفسي بهاللغة . . بس موعلمود الدرس و لا علمود أنجح!
- لعد علموديش؟
- اگولك سر . . و ما تگول لأحد؟
- يا ستي . . گولي . . و سرچ راح يصير في بير . . أي؟

و شاهدها تزوغ بعينيها لأول مرة منذ أن جلست أمامه و تبل شفتيها و تعصرهما لتصيرا حمراوين مثل الدم قبل أن تجيب و كل ما فيها يرتج:

- لأن . . لأن آني عندي الزواج و الحب . .

يا سلام على الحب! . . و يشجعها متجاوبا:

- أي!

- . . هوايه أهم من الدرس و شلعان الـگلب!

مـن أي سـماء سـقطت عليـه مـرة أخـرى و بسـفور مطلـق مفـردة . . كاليبسـو . . و معهـا ملامـح بثينـة الصـفار و هـي تنطقهـا؟ . . لا يـدري! . . و كـيلا يطيـل الإحـراج الـذي تولـد فـي نفسـه أولا و فـي الموقـف ثانيـا . . قال لها:

- فهمت! . . تـگدرين تروحين . . رجاء دزيلي أختـچ فاطمة.

فذهبت.

فاطمـة صـبية بِحـوَلٍ بسيط فـي عينهـا اليمنـى، بـدت لـه بمنتهـى المكـر و الفطنـة، بـل و سـتثبت لـه فيمـا بعـد دهـاءً علـى الـرغم مـن أنهـا لـم تنطـق بشـئ بعـد. و شـرعت تعلـن لـه عـن نفسـها و طريقـة إهتمامهـا بدروسـها و تريـد أن تصـبح مهندسـة كأبيهـا، فسـألها الإنصـراف و إرسـال محمـود . . و هـا هـو محمـود يعـود حتـى قبـل أن تقـوم فاطمـة مـن مكانهـا، فيتعـزز عنـده فـورا إحتمـال إمكانيـة التلصـص و التنصـت مـن النافـذة التـي وراءه ما سيجعله على حيطة و حذر شديدين في المنطق و السلوك!

و يخاطبه حمدان:

- أشكركم جميعا على صراحتكم .
- هذا لأن إحنه نريدك ويانه دوم!
- شكرا على حسن الضيافة!

و سيوضح لمحمود خطته و أوقات مجيئه . . فيعلق محمود:

- عيوني!
- و جيتـي راح تصـير إعتبـارا مـن السـبت لمـدة خمسـة ايـام . . ساعتين باليوم.
- عيوني!

و سكت حمـدان متـنقلا بنظراتـه بـين محمـود و قـدح العصـير الـذي أمامـه . . أخـذ منـه رشـفة . . فطنـة محمـود تتصـور وجـود شـئ مـا يـدور فـي رأس الإستاذ . . فإستفسر:

- ها؟ . . عيوني! . . و بعد؟
- أريـدك تعـرف . . آنـي لازم أزود ناصـر الوالـد بتقريـر عـن شغلي هنا على الأقل مرة بالشهر!
- و هذا شنو معناه؟
- يعني الى أي حد تريدون التقرير مطابق للواقع؟

فيرد محمود بنبرة مداهنة:

- نترك هذا لحسن تقديرك أستاذ حمدان!
- صار!
- چا إحنه هم نعرف الوادم!

لم تفاجأ حمدان بالهجة التي تحدث بها محمود . . فعقب عفويا:

- و تحچي شروگي همين! . . الله! . . يا سلام!
- أستاذ . . هو أكو أحله من سماع نثية شروگية تحچي شروگي؟
- لا طبعا! . . و أتفق وياك تماما!

و إستأذن حمدان و غادر.

* * * * ** * * * *

خارج الفيلا كان الليل قد خيم على منطقة مرج الحمام. و سرعان ما تغلغلت برودة الجو في عظامه و هو يغادر الفيلا سائرا في الشوارع الخلفية للمنطقة بإتجاه الدوار الأول في مرج الحمام. و بإنحداره من الربوة التي تنتصب فوقها فيلا الحسيني و السماء الصافية من فوقه تعج بالنجوم، أحس و كأنه ينزل من السماء مثل اي كائن خيالي قادم من أطراف مجرة درب التبانة. فتذكر لوحة فنسنت فان كوخ . . سماء ذات نجوم . . السماء التي قال عنها فان كوخ عند رسمه للوحة أنها لا تكف عن جعل حاجته الى الإيمان بوجود قوة غامرة في الكون تشتد يوما فيوما و تجعله بالنتيجة يذهب الى الخارج ليلتقط لحظة إتصال بتلك القوة المهيمنة ليرسمها بتلك الرمزية الجليلة التي تجلت في لوحته ببهاء لوني كامل. و تراود حمدان الفكرة ذاتها . . أصاب فان كوخ لأن الفنانين و الفلاسفة و من على طرازهم يدركون وجود روح الكون أفضل مما يدركه الدجالون و أصحاب الغايات، و ببساطة لأن الفنانين يفعلون ذلك دون إفتعال وساطات مزعومة و دون طقوس سمجة . . العلاقة مباشرة . . بل و مثلما قال فكتور هوغو في كل زمان ثمة مشعل هو الفيلسوف أو الفنان أو المدرس و أزاءه تجد مُطفئا للمشعل هو رجل دين مُدالس!

و هو يسير قاطعا الطرقات و الشوارع الضيقة أعاد تقييم ما وجده في بيت الحسيني. و هو يعرف نفسه معرفة جيدة جدا. فلو كان موقف من هذا النوع قد مر به قبل عشرين عاما لكان إعتذر من الحسيني عن

التعامل مع تلامذة زعران من هذه الشاكلة، بخاصة و هو يمقت مقتا شديدا إعطاء دروس خصوصية . . أسيزعم الآن بأنه ليس بحاجة للأجر الذي سيدفعه له الحسيني . . لا بالتأكيد! . . بل و ألف لا! . When in Rome do as the Romans do! . . هذا ما ورد في ذهنه فورا بالتأكيد . . و سيقرر منذ اللحظة أن يمارس الألعاب التي لا قواعد لها، أو تلك التي عليه إكتشاف قواعدها أثناء اللعب . . ألم يكن اللعب الذي لعبه في طرابلس الليبية من هذا الطراز؟ . . . مارس هناك لعبة لا قواعد لها و كان عليه أن يجد لها قواعدا فوجدها و طبقها و كان إكتشافه للقواعد ذاك غير مصيب . . قبلة الحصان الخشبي المُجْتَـَرأةِ تلك! . . و لكنه في بضعة مرات قادمة سيجد نفسه يتملص من تصميمه على اللعب دون قواعد و تعبيه الحيلة رغما عنه، و يفضّلُ العودة الى طبيعته و فطرته السليمة عند اللعب! . . و هو يطالع السماء ذات النجوم، ما أعظم ما أحس بحاجته لنوع من الصلاة و لكن ليس من تلك التي يتذلل فيها الناس و يخرّون راكعين فيها سجدا لجبروت موهوم دلهم عليه غيرهم و لم يكن إستبطانا لحاجاتهم الروحية! . . الصلاة عنده رفعة رأس و ليس الخرور مذلةً!
واضحٌ أن الحسيني أتى بأولاده الى عمان، فأفقدهم تفوقا كانوا يتمتعون به على مِمَن حولهم في بغداد، و قد أنعم عليهم ذاك التفوق هناك بمزايا و ملاذٍ و خطايا و آثام تميزهم عن سواهم وسط البؤس المتفشي بين العراقيين بسبب الحصار الذي فرضته قوى غاشمة جراء مغامرات الفوهرر العراقي. و واضحٌ أيضا أن أولاد الحسيني على الرغم من حرصهم على إظهار قشرةِ تفوقٍ عراقيةٍ المظهر في تصرفاتهم، فحرصهم هذا لا ينأى بهم في اللاشعور عن إرضاء تعويضٍ من نوع ما للفلسطيني المهزوم في داخلهم بعقدة خسارة تاريخية كامنة في أعماقهم . . و إظهار تفوقهم في المحيط العراقي كان دون ريب يلقى رضى عند الحسيني الأب و زوجته . . فمن غير المعقول ألا يعلم الحسيني عن أولاده ما عرفه الأستاذ للتو في ساعة من الزمان! . . في بغداد كان لديهم مال و مزايا وهبها صدام للفلسطينيين على حساب العراقيين . . فما الذي سيفعلونه هنا في عمان و قد حُرموا من مجال حيوي يمارسون فيه تفوقهم على من سواهم . . و أدرك في جزء من تريليون من الثانية إنهم سيحاولون

إستعادة و لو جزء يسير من خسارتهم الإعتبارية الكبيرة، و أنه هو حمدان الجربة سيكون دون ريب مجالهم الحيوي العراقي الذي سيمارسون فيه تفوقهم تعويضا عما تركوه في بغداد من خسائر . .
غير أنه بالمقابل حين غار فكره في نفسه الكدودة مستجليا أعماقها وجد فيها خيط نزوع للثأر من كل أولئك الذين وهبهم الفوهرر صدام ما لا يملك لأنهم لا يستحقونه! . . و قرر أن يكون شاهدا و لاعبا في آن، في لعبة المجال الحيوي، بخاصة حين سيعلم بعد أسابيع من رولا سكرتيرة شفيق النبلاني أن تلميذه النبلاني البعقوبي و شريكه الفلسطيني البغدادي المولد يديران لحساب نظام الفوهرر في عمان واحدة من عدد من الشركات الوهمية التي راجت أيام الحصار في عمان للإلتفاف على المقررات الدولية ضد العراق و بموافقة مستورة من الدول التي بيدها مصير العالم و منها الدولة المضيّفة لشركة النبلاني الحسيني.
بسرحانه . . كان قد تجاوز الدوار الأول في مرج الحمام مشيا و نزل إنحدارا في الشارع الرئيس للمنطقة متوجها الى الشارع الرئيس المؤدي الى مطار عمان . . و بسيره نزولا بإتجاه الدوار في شارع المطار كان مشهد السماء يتسع أمامه. قادته خطواته شمالا عبر الدوار بإتجاه موقف الباصات . . توقف هناك إنتظارا لباص يأتي من أي إتجاه و غايته الدوار السابع، فيلفت إنتباهه إعلان يغطي جانبي موقف الباص عن كريم للبشرة و فيه ثلاث فتيات كل منهن في لباس من لون، و قصة شعر إحداهن ذكرته بقصة شعر إمرأة ما، و سيسأل محمد الفنان عن الإعلان فيتفاجأ بأن محمد هو مصمم الإعلان و أن النساء اللاتي خالهن في الإعلان ثلاثة هن في الواقع غمرأة واحدة تفنن محمد في تنويع لقطاتها، و بأنه ليس الوحيد الذي إنخدع بهذا التنويع، و سيعرض محمد عليه زيارة المرأة فنانة الأعلان للتعرف عليها، و سيتذكر بثينة الصفار و يرفض!
ما يزال في موقف الباص، و باله ما يزال مع فان كوخ في رغبته الدفينة رؤية النجوم بدعة المؤلف العظيم، غير أن مشهد السماء في جزنه الكبير كان قد توارى أمامه وراء ربوة شاهقة تنحدر أمام ناظريه شاقوليا نحو الشارع وراء جدار عال مبني من الحجر و في أعلى الربوة بناية شاهقة فوقها لافتة . . المدارس العالمية . . إستغرب

من نفسه بشدة بخصوص ألا يكون قد شاهد هذه البناية صباحا، لكنه أدرك أن علو الجدار الذي تحتها كان سببا كافيا لحجب رؤية لافتة المدرسة لراكب السيارة المارة من الطريق . . و جاءه باص ذاهب بإتجاه منطقة الصالحية مرورا بالدوار السابع فإستقله.

* * * * *   * * * * *

الجوُ باردٌ في المسكن . . يفتح المدفأة الكهربائية و يضع فوقها غلاية الماء الكبيرة، و فتح المدفأة الغازية و بعد دقائق شاع الدفء في المكان . . و يفتح الراديو و كان ما يزال على أيف أيم عمان فحركه على أيف أيم إسرائيل و راحت أنغام برامز الراقصة . . أغان هنغارية . . تصدح في المكان. و هو في غاية التعب أراد أن يتمدد على الكنبة- السرير لغاية أن يغلي الماء فيأخذ حماما. و واضعا رأسه على المخدة رأى بالقرب من رأسه الموبايل الذي تركه على المنضدة فصرخ واهنا . .

غفلة! . . نهض متناولا الموبايل ليبحث عن الرقم الذي إعتاد الإتصال عليه بلمياء عند الضرورة . . رقم بيت جدتها، إنتظر و جاءه الرد . . خالتها زهراء على الخط . . بعد السلام سألها عن لمياء و لم تكن هناك، و أخبرها أن بإمكانهم الإتصال به على رقم تلفونه النقال و هو الآن في عمان و ليس في ليبيا. و رجع ليستلقي و يتيه في بعض ذكرياته.

و **يتذكر أن** . . لمياء لم تضع الخاتم الذهبي الذي أتاها به و لا طلبت منه أيضا أن يضع هو خاتمه الفضي . . لعبة إنتظار! . . بعد أسبوع و كان بإنتظارها صباحا قبل طلوع الشمس أمام مكتبة كلية الآداب وصلت و حيّته، و فاجأته قائلة:

- أمي تريد تشوفك!

و يخطر بباله . . المرحلة الأهم جاءت! . . و يعقب بلهفة:

- و أخيرا! . . يسعدني جدا . . جدا . . جدا!
- إذن اليوم . . بعد ما نخلص من الدوام . . يناسبك؟
- تماما . . و أتطلع بشوق!

سمع منها الكثير عن أمها أمينة الخدران، و أرته مرة صورها بهيئة السبعينيات، فبانت له إمرأة عصرية الطراز بها شبه كبير بنجاة الصغيرة. و دار في خاطره . . ليس من المعقول ألا تكون أختها

البرفوسور تمتعت بالطلعة ذاتها! . . و من أحاديث لمياء عنها سيخمن أن وعي الأم أرقى بكثير من إبنتها، بل و سيكتشف فيما بعد إن وعي أمها أرقى بكثير حتى من وعي خالتها البروفسور، مع أن دراستها توقفت عند الإعدادية بسبب تزويجها من إبن خالتها مطيعة، و ستتعزز جميع ظنونه حين يلتقيها . . و الساعات التالية ظل ينتظر لقاءها بفارغ الصبر!

بنزولهما من الباص في الطريق الى دارهم في منطقة الشعب، طلبت إليه لمياء ألا يمشي بجانبها مباشرة خشية أن يراهما أحد أخوالها . . حاجز آخر و إنكفاء! . . و أوصته أن يترك بينها و بينه بخط مائل مسافة مترين على الأقل! . . طول الطريق مَشياً أتاح له فرصة إطلاق تعليقات ساخرة كلما ضاقت أو إتسعت بينهما مسافة المترين قليلا، و يتعمد حصر المسافة أحيانا فيثير ضحكها جتى إضطرت آخر الأمر الى السير بجانبه . . سقط الحاجز!

في الدار إستقبلته أمها و أختها فيبادر للتحية:

- أجيُ يا أم لميا بأسباب مُتَستِرة! . . و ما أكثر حاجاتي و علاتي!

و يتفاجأ بامينة الخدران تحث إبنتها لمياء للتماهي مع الموقف مثلما يحصل في أغنية عبد الوهاب و أسمهان فتقول لمياء بنبرة مرتبكة:

- هذا أبن عمي حمدان عندنا! . . يا مرحبا! . . يا مرحبا!

فأكمل هو:

- نَبتَنتِ لميا بالحياة و بلغت الأربا!

إنفراج أسارير أمينة الخدران للموقف لم يخفِ آثارَ همٍ عميق يُثقِل على ملامح وجهها . . فعقبت:

- إن شاء الله!

ترحيب الأم ينم على صدق واضح، و يجري حديث قصير عن فواجع الحصار . . ويبادر سائلا:

- طلبتي تشوفيني . . و ها أنا ذا! . . أجيء دون أسباب ملفقة . . بل بطلب مِنِج!

- إي . . و بصراحة . . و تشرفني شوفتك . . و شوفتك بعيني هسه بددت قسم من التساؤلات اللي عندي بخصوص علاقة بنيتي بيك!

القبول المبداي الضمني وشيت به كلماتها . . فعلق مُعجبا بما قالت:

- هيــچــي! . . مـن أول نظـرة! . . هـذا تقـدير مـا يجـي غيـر مـن نـاس أهـل ذائقـة و فطنـة! . . و راح أحفـظ جميلـچ هـذا عـن ظهـر قلب!
- و مـع ذلـك . . المظهـر وحـده مـا يكفـي! . . نـوّرني بالبـاقي إذا تسمح!

أجلسـوه فـي أرجوحـة موجـودة فـي آخـر كـراج طويـل مقابـل البـاب الخـارجي مباشـرة. بـدت أمينـة الخـدران أصـغر منـه سنا بقليـل . . مفارقـة أن تكـون أم المـرأة التـي يبغـي زواجهـا أصـغر منـه سـنا! . . سـيدة بارعـة فـي صـياغتها و إنتقائهـا لعبـارات تجامـل بهـا النـاس . . ثقافـة إجتماعيـة طاغيـة . . و سـيقول للميـاء يومـا مـا لـو كـان حظـي فـي أول حياتـه بزوجـة مـن طـراز والـدتها لربمـا كانـت لميـاء الآن هـي إبنتـه و لـيس المرأة التي ينوي الزواج منها و ستضحك لمياء من المفارقة!

و فضـّل أن يحذو حذو أمينة بإختياره العبارات . . فرد عليها:

- أسأليني قبل أن تفقديني!

و يجئ ردها تلقائيا:

- سـلام الله علـى علـي أميـر المـؤمنين علـي بـن أبـي طالـب! . . عينـي آنـي بس أريـد أعـرف أول شـي . . إنـتَ لـيش تريـد زواجكـم يتأجل لغاية التخرج؟

و حـدثها عـن متعلقـات تخـص إبنتيـه عليـه أن يجـد لهـا تسـوية، و تـتفهم الخدران أسبابه، و تعقب:

- اللـي گِـلته بخصـوص موضـوع السـنتين و عرفنـه اللـي وراه . . و آنـي مقـدره الظـرف! . . بـس شـلون راح نحـل موضـوع فـارق العمـر لرجـال الأسـرة؟ . . خمسـة و عشـرين سـنة فـرق بـالعمر . . هوايه!

و يتـذكر أنـه . . خمـن لـولا أنهـا باتـت بعـد رؤيتـه مقتنعـة بتجـاوز فـرق العمـر لمـا طلبـت منـه إقتـراح حـلٍ. و مـع ذلـك قـرر وضـع الكـرة فـي ملعبها و إستجلاء رأيها الشخصي فعقب:

- بـالواقع . . الفـرق بـالرقم يبـدو چـبيرا! . . و مـع ذلـك أريـد أعـرف إنتِ حضرتـچ شلون تشوفينه لهذا الفرق؟

و ترد الكرة لملعبه معقبة:

- راح أشوفه مثل ما تشوفه إنت . . إذا مقتنع بالفرق!
- إذن . . فرق العمر ما راح يصير عقبة!
- شلون؟

و يتذكر الآن . . كيف طافت على محياه إبتسامة طالت قليلا، و النساء الثلاثة يراقبنه منتظرات منه تفسيرا، بخاصة لمياء . . فأجاب:

- سيدتي . . مثل ما تعرفين حضرتج . . آني رجل متزوج من ثلاثين سنة بامرأة أكبر مني بالعمر . . و من العيش المشترك بالحياة الزوجية و تجاربها . . و بعد معرفة بطبيعة المرأة و الرجل أثناء الزواج . . تكونت عندي نظرية عن فارق عمر إفتراضي لا بد أن يكون بين الزوج و الزوجة.
- اللي هو؟
- أن تكون الزوجة أزغر من الزوج بعشر سنين على الأقل . . و عندي أسباب طبيعية و إجتماعية و فزيولوجية و عاطفية و نفسية تسوغ هالنظرية.
- أتفق وياك . . و آني ممكن أفتهم هالأسباب . . و أتفق وياك بالذات على فارق العشر سنين!
- عافية عليج!
- بس فرضيتك هذي ما تحل مسألة فرق الخمسة و عشرين سنة بينكم . . إنت و لمياء!
- إنطيني مهلة حتى أكمل تفسيري . . تابعيني رجاء بمخج الجميل هذا . . حتى تصير تفصيلات حسبتي لفارق العمر في وضعنا الحالي واضحة!

يتذكر أن . . على وجوه النساء الثلاث تلهفا بائنا لسماع تفسيره للفارق . . فأضاف:

- بموجب نظريتي . . من المفترض إذن أن فارق العمر بزواجي الأول چان لازم يكون عشرة سنين . . تمام؟

عقبت الأم:

- تمام!
- هذا يعني آني چنت خسران عشر سنين من ناحية المبدأ . . لأن هذا الفرق ما چان متوفر بزواجي الأول . . زين؟
- زين!

- . . و هي الزوجة الأولى چانت أكبر مني خمسة سنين . . و هذا يعني الخمس سنين هذي همين چانت خسارة . . فشگد إذن چانت خسارتي من عمري بزواجي الأول؟
- خمسطعش سنة!
- و هذا يعني . . آني إلي بذمة الدنيا خمسطعش سنة من عمر لازم أعوضه . . فاطرحي هذي الخسارة الخمسطعش سنة من الفرق بين عمري و عمر لمياء . . شگد راح يبقى؟
- يبقى عشرة سنين!
- يعيش مخچ! . . و ها هي العشر سنين الفارق اللي لازم يكون بين عمري و عمر لمياء بعد طرح الخمسطعش سنة خسارة منه . . و شلون ما تريدون تفسرون الموضوع فسروه!

يتذكر أن . . النساء اللاتي أمامه بقين محتارات و مشوشات و باهتات لمحاولة إستيعاب العبرة من التفسير الذي قدمه لفارق العمر . . و كانت أمينة الخدران أول من فطنت للتفسير، و إستفسرت منه:

- و بهذي حسبتك . . إنت تريد من بينتي تسدد دين اللي إلك بذمة الدنيا؟
- مو گلتلچ سيدتي . . مخچ الجميل قادر على التفسير! . . لازم أكو واحد يسدد!

لمياء و ظمياء ما تزالان فاغرتي أفواههما لهضم ما سمعتا هضما جيدا لغاية أن صرخت لمياء:

- عيني! . . و هذي خسارتك بزواجك الأول . . و الدين اللي إلك بذمة الزمان و التاريخ . . تريد تتقاضاه مني آني؟
- وين راح ألگه سمرا و لميا و مدبدبة مثلچ توفتي؟ . . إزرعي عندي شلب . . و أوعدچ أمام هالمريتين الحلوتين . . راح تحصدين شلب ما تحصدين بردي!

ثم إستدار نحو أمينة الخدران مضيفا:

- مثل المد و الجزر الي يحصل لمياه البحر . . اللي خسرته آني هناك جزر . . أريد أربحه هنا مدًا!

إمرأة متزوجة من طراز أمينة الخدران، و كان قد تعرَّف عليها للتو لا بد أن تفهم الأمور أفضل مما تفهمه عازبتان مثل لمياء و ظمياء . .

النباهة في الحياة و طبيعة الجنس و المعرفة بالرجل! . . و بادرت الأم صائحة:

- . . و چَنك على وفه! . . و يجرالك! . . و راح تمدلك أشگد ما تگدر هي و شگد ما تريد إنتَ!

و **يتذكر أن** . . لمياء و ظمياء غرقتا بضحكة خليط من حياء و فضول و رضا حين فهمتا تلميحات الخطاب بين أمهما و حمدان، و سرعان ما شاركتهما الأم ضحكة شاعت قهقهاتها في الحديقة . . فعقبت أمينة مازحة:

- و تريد تتقاضى من بنيتي اللي إلك بذمة الدنيا و الكون!
- بالتأكيد! . . ليش لا! . . هذا من حقي . . و لا يضيع حق وراءه مطالب!
- شاطر! . . و يجرالك! . . و ننتظر نشوف شطارته بالتسديد!

يتذكر أن . . الضحك كان ليتواصل لولا توقف النساء الثلاث عن ضحكهن فجأة و عيونهن ترنو الى الباب الخارجي. و رفع رأسه، فلاحظ سقف سيارة بيضاء متوقفة أمام الباب الخارجي. نهضت أمينة و أبنتها ظمياء متوجهتين نحو الباب، فأوضحت له لمياء و هي تقف:

- هذا خالي!

ظل هو جالسا . . وسألها هامسا:

- شنو العقبة الثانية اللي في بال الوالدة؟
- أظنها موضوع زوجتك الحالية.

فهم قصدها و عقب:

- هذا موضوع نحاول نحله بالوقت المناسب . . و گوليلها تطمئن!
- لي رجاء عندك!
- طلباتج أوامر!
- إذا قدمت نفسك لخالي . . أذكرله بس أسمك حمدان . . من غير الجربة!

فأطلق صرخة خافتة مستغربا:

- ليش؟
- أرجوك!

تضرعها آنذاك هو الذي حفـّز فطنته ليحزر السبب فعلق:

- همم . . . فهمت سالوفة[8] الشيعة من الشروگية الخدرانية و الفتلاوية و الساعدية و الأعرجية و الإزيرجاوية و آل محمد و غيرهم على ضفة . . و مقابلهم السنة من شمر جربة و دليم و جبور و راوية و دورية بالضفة الأخرى . . و بين الطرفين اليّم الحرام . . النقيضين اللي ما يقبل أحدهما بالآخر مع سبق الإصرار و الترصد! . .

و تذكر رفيق سجنه ابا ذر المحمداوي و اضاف:

- . . ترهات صراع بني عبد شمس مع بني عبد الدار! . . السقيفة و الغدير!
- أفهم اللي تگوله! . . و أفهمك أنت بالذات . . بس إفهمني رجاء! . . هذا حتى لا نضيف عقبات من إختراع الآخرين!
- زين! . . راح أستجيب لطلبچ إذا شفت نفسي ما مضطر لذكر لقبي . . زين و ماذا عن الوالدة؟ . . تعرف آني جربة؟
- أمي و أختي بس!

و يدخل الخال مع المرأتين . . سَمارُ بشرته يطغي عليه صفار غير مريح، فينهض لإستقباله . . ليس أخا أمينة الكبير بل الصغير . . قدم نفسه:

- عبد الأمير الخدران!
- أهلا و سهلا . . حمدان!
- تشرفنا . . و من أي الأعمام؟
- شمّر!

و الآخرُ مصرّ على إستجلاء أمارة من نوع ما . . فعقب فورا:

- و النعم . . و يا شمّر؟

لا بد أن يتصرف بفطنة للموقف . . فرد:

- من ديالى.

و يعقب الخال:

- هله بشمرَ السكوك![9]

---

[8] سالوفة: تعني حكاية قديمة (بالعامية العراقية)

[9] "السكوك" فخذ صغير في عشيرة من قبيلة شمر يسكنون محافظة ديالى معروفون بميلهم المذهبي الشيعي.

يتذكر أن . . سباحة محدثه بوهم إختلقه لنفسه أشاع عنده إرتياحا . . الناس أحرار في أوهامهم! . . و إرتاح أيضا لدورانه التلقائي الحاد هو نفسه حول الخارطة الطائفية و العشائرية. إلتفاف لم يعتد عليه من قبل، و فعلها كي يرضي لمياء التي راحت هي و أمينة تنظران إليه عرفانا لمعالجته الموقف على هذا النحو . . و قالت أمينة:

- عبد الأمير يعرض عليك توصيلة لكراج بعقوبة . . إذا إنت مغادر!

و يتذكر أنه . . آنذاك تذكر أنه سمع من لمياء عن أب عاجز بسبب المرض نائم دائما في السرير لخلل في ظهره و أمها صابرة مبتلاة بإحتياجاته و بصراخه المتواصل عليها . . فلِمَ لم يعرفوه عليه؟ . . و أن لها أيضا أخٌ إسمه مهدي ذكرته له مرة و ظروف عمله تتطلب منه الخروج صباحا و العودة في ساعة متأخرة ليلا . . ما الذي يشتغله الأخ و أين هو؟ . . أراد أن يسأل عن الوالد و الأخ مجاملة، فأحجم صارفا ذهنه عن السؤال. و تلقى عرضَ التوصيلة من فم أمينة كأنها تطلب منه بتهذيب المغادرة . . فرد:

- راح أكون له شاكرا.

في الشارع بجوار المارسيدس البيضاء . . و أثناء لفة عبد الأمير متوجها لباب السيارة في الجانب البعيد منها إلتحقت به لمياء قبل أن يصعد في السيارة لتهمس له:

- راح نرتبلك موعد بأقرب وقت ويه خالي الچبير . . حمزة الخدران.

- يا حبذا!

و يتذكر أنه . . صعد الى السيارة هو في الأمام جنب خالها و هي في المقعد الخلفي. تتحرك السيارة، و بما عرفه من خشيتها دائما من رؤية أي من أخوالها لهما سوية، راود ذهنه تساؤل عن توقيت مجيء الخال . . أصدفة أم متفق عليه؟ . . و لِمَ الأخوال و ليس الأعمام!

مرآبان تذهب منهما السيارات الى بعقوبة، أحدهما في باب المعظم و الآخر في بغداد الجديدة . . و يقترح عليه خالها الذهاب به الى مرآب بغداد الجديدة البعيد. واضحةٌ رغبةُ الخال بإطالة الطريق لغاية ما، و لم يعترض . . واضحٌ أن الخال طيلة الطريق يدور بالحديث يمينا و شمالا لمجرد إستخلاص معلومات عنه، و ظل هو أثناء ذلك حياديا لا

يرشح منه ما يؤخذ عليه لاحقا . . لم يرتح حمدان للخال، و بعد أعوام قليلة سيصدق حدسه حين يكتشف تفاهة الرجل عند سماعه يتحدث عن خوارقه البطولية الماضية في قادسية صدام ممزوجة بإعجاب قادم بمستوى التقدم الحاصل في إيران حين سيزورها . . التقنية! . . و سيستغرب بعدئذ حين يكتشف أن تافهها من هذه الشاكلة يتحكم بأخته البروفسور التي تكتب بعقلانية عن ديالكتيك هيغل و عن عقلانية الخليل بن أحمد الفراهيدي و عن علم الدلالة! . . و شكر الرجل على التوصيلة.

و **ها هو** . . منظر البخار يخرجه من سرحانه تنفثه أمامه غلاية الماء الكبيرة، فنهض آخذا الغلاية الى الحمام ليسكب ماءها في سطل هناك و فتح عليه حنفية الماء البارد و ملأها و أعادها على الموقد، عائدا الى الحمام بمنشفته و ملابس داخلية . . الماء فاتر الحرارة و إرتجف مع أول طاسة إنسكبت فوق رأسه، فثبت نفسه كي يتعود على الأمر. و سيمضي وقت ليس قصيرا قبل أن ينعم بوفرة ماء ساخن في حمامه. تنشَّف و إرتدى ملابسه و لف رأسه بمنشفته المبللة و خرج الى الغرفة ليعد وجبة عشائه. حوَّل الراديو على إيف إيم عمان و راح صوت فريد الأطرش يغني . . أول همسة . . يغمر المكان. يتناول طعامه أمام النافذة الصغيرة و يتفرج على القطة تمسّد مؤخرتها و ذيلها بزجاج النافذة. ثم نهض و صنع له كوب شاي و راح يرتشف منه و يسرح من جديد. .

و يتذكر ضحى يوم . . دخل به في منطقة جميلة الى شركة حمزة الخدران خال لمياء الكبير. الرجل بإنتظاره، و هو بعمره تقريبا . . تحية و تعارف . . شيوعي سابق و حاله حال آلاف الشباب من أمثاله، أسلم مصيرَه للمجهول حلف سياسي[10] عقده الشيوعيون مع البعثيين أبان السبعينيات. و ما أن إنكشفت كذبة ذاك الحلف، و أفلت حمزة الخدران سليما إنشغل بالتجارة. في البدء تنوعت تجارة المفرد التي مارسها قبل أن تنفتح له باب تجارة الجملة الواسعة بالمواد الغذائية . . واضحٌ لحمدان أن الرجل يحب الحديث عن إنجازاته، فظل حمدان مصغيا له يحدثه عن تأسيس معمل كبير للمواد الغذائية

[10] المقصود هنا هو ما سمي "الجبهة الوطنية و القومية التقدمية" المعقودة بين الشيوعيين و البعثيين

في منطقة تلي منطقة السبع قصور المجاورة لمنطقة الشعب شمالا . . و بعد إستعراض الرجل لإمكانياته عندذاك سأله عن حاله، فزوده بخلاصة عن وضعه. و عقب حمزة الخدران:

- بحسب علمي . . وضعك الإجتماعي و المالي ما يسبب قلق! .

يقول بحسب علمه؟ . لا بد إذن أنهم قد إستفسروا عنه في بعقوبة! . . فسأل:

- شنو لعد اللي يسبب قلق؟
- شغلتين . . كونك متزوج . . و فارق العمر!

يتذكر أنه . . فضل أول الأمر الحديث في فارق العمر، فطافت على وجهه إبتسامة. أسيفسر هذا الفرق لحمزة الخدران بالطريقة نفسها التي فسرها بها لأخته أمينة؟ . . لا! أكانت أمينة قد زودت أخيها بتفسيره لفارق العمر لها؟ . . ممكن! . . و مع ذلك فهو لا يحب التكرار و الموقف هنا مختلف . . فعقب:

- عيني أبو . . أبو من نگول؟
- أبو حسام!
- عيني أبو حسام . . أكو فد واحد چان عمره بعمري تقريبا . . فوگ الخمسين . . صديقه و صاحبه فد يوم دزله ماعون تمر بيد بنته الطفلة . . عمرها سبع سنين! . . أخذ التمر من البنيَّة لأبوها يطلبها للزواج . . و هي ما تعرف كلشي عن الزواج! . . و وافق الأب لإعتبارات كثيرة . . و الناس عموما قابلين بهذي القصة و يتناقلوها طيلة قرون و ما معترضين و لا يطلقون على فارق العمر بين طفلة ما بالغة سن الرشد و رجل عمره فوگ الخمسين . . الشئ العجيب هو أنه لما يجي واحد مثلي و بعمر ذاك اللي تزوج الطفلة و يريد يتزوج إمرأة عمرها ثلاثين سنة بالغة سن الرشد و إحتمال تعرف كلشي عن الزواج . . الناس يعترضون و يتخبلون من فارق السن!

و يتذكر أن . . الخدران و ربما بسبب ماضيه العلماني، و حمدان ما يزال يروي الحكاية في منتصفها، كان قد أدرك مغزاه من رواية الحكاية، و راح يغرق بضحكة صامتة. و بإجتراحه للمقارنة بين الزواجين كأنه أفحم الخدران . . فسمعه يعقب:

- زين و موضوع الزوجة الأولى؟
- عزيزي أبو حسام . . زواجي ذاك چان فاشل من أوله . . لكن وقت اللي جيت أريد أخلّي حل لزواج فاشل، تفاجأت بالزوجة حامل . . و آني همين چنت أيام زمان مثل حضرتك!
- شلون؟
- . . ثوري رومانسي . . فشلون يقبل ضمير واحد ثوري و رومانسي شغوف بالعدالة يتيّه زوجة شايلة خلفته بطنها؟ . . و تحملت كل هالسنين . . و إضطريت أن أخلف بنت ثانية لحاجة البنت الأولى لرفيق . . هسه آني منفصل تقريبا عن الزوجة . . لكن يصير بعد هالعمر الطويل . . و الزوجة تجاوز عمرها الستين . . أروح و أطلّگها؟ . . الناس شراح يگولون! . . ماكو إحتمال راح يگولون . . هذا الأزعر إبن الأزعر حمدان الجربة . . بعد كل هالعمر هسه جاي يتذكر أن زواجه چان فاشل و يريد يطلگ زوجته! . . عزيزي أبو حسام . . آني محتفظ بهذي الزوجة لأسباب إجتماعية تخصني و تخص الزوجة . . أولا لأن عيب تتطلگ مرة تجاوز عمرها الستين . . و ثانيا ما أريد أوجه إهانة للبنتين بطلاگ أمهن! . .

يتذكر أن حمزة الخدران كان قد إنتهى من ضحكته عن فارق العمر، و راح يصغي بإهتمام لطريقة تسويغ الإحتفاظ بزوجته الأولى . . و كانت ردة فعله:

- أستاذ بصراحة . . آني اللي سمعته عنك من بعقوبة . . هسه تأكدت منه بحضورك هنا . . مبروك . . روح جيبلي أهلك و ناسك حتى أشوفهم!

و يتذكر أنه بعد أسبوع . . كان الأخوان حمزة و عبد الأمير الخدران في إستقباله هو و ثلة رجال من أصدقائه في دار أختهما أمينة. و كانت مناسبة للتعرف على مهدي شقيق لمياء الضخم الشاهق الطول. و غدت خطوبته مع لمياء رسمية . . و أثناء مغادرتهم، إنتحت به لمياء جانبا:

- باچر الخميس . . ما عندنا دروس . . تعال للكلية . . راح ألگه عذر و أجي!

- ليش؟
- . . أريد تأخذني لأبو الجوادين!

فتنته آنذاك فكرة الذهاب الى مرقد الجوادين . . ثلاثين عاما مرت على آخر مرة ذهب بها هناك سعيًا وراء والدته الراحلة، و راحت آنذاك تشكوه لأبي الجوادين بعد لقائها بالمرأة التي إنتوى الزواج منها و صارت فيما بعد أم إبنتيه.

و يتذكر ضحى يوم . . إنحجبت فيه الشمس تماما، غادر حمدان شقته في بعقوبة، وعبر الشارع لينتظر في الجهة المقابلة من الشارع أول باص مار الى بغداد. منتظرا الباص، شرع الغيم الذي يغطي السماء يقذف أولى قطرات المطر. رفع بصره نحو السماء ليستطلع جديّتها في إنزال المطر، في زمن شح فيه المطر، فهاله إدلهام السماء بالسحاب الثقيل القريب من سطح الأرض. و قبل أن يخفض بصره، لاح له أول خيط برق يشق صفحة الغيم المهيمن على الأفق. رجع الى الشقة ليلبس قمصلته المطرية المبطنة الطويلة نسبيا و معها مظلته السوداء التي يستمتع بحملها حين يمشي تحت المطر. مغادرا الشقة هذه المرة، سمع لنزول قطرات المطر و إرتطامها بالأشياء التي فوق سطح الأرض إيقاعا سريعا . . الشارع تبلل كليا و ظل نزول المطر يتسارع أثناء عبوره الشارع و الوقوف على الرصيف المقابل إنتظارا للباص . . و يأتي الباص بعد ربع ساعة . . و هو في داخل الباص تذكر كيف فتنته فكرة الذهاب الى الحضرة الكاظمية، لمجرد أن الأمر يذكّره بواقعة ذهابه الى هناك مرة وراء والدته!

الساعة قاربت العاشرة عند دخوله باب مجمع الكليات . . المطرُ غزيرٌ وتصفع وجهه ريح شديدة مضمخة بالماء. لم يضع كبوس القمصلة على رأسه و فضّل فتح المظلة كي يستمتع بالأبهة التي يوفرها المطر لحاملي المظلات. إنتظر عند دكة مكتبة كلية الآداب . . الدكة وجدها و قد أضحت لبعض الطالبات ملاذا من المطر. و أضطر الى الإنتظار و أخيرا جاءت لمياء و مظلة صغيرة ملونة فوق رأسها تكاد لا تقي من المطر سوى رأسها الملفوف بالحجاب الأزرق . . غادرا ماشيين في أرض الشارع الرئيس للمجمع المكشوفة للمطر، فتمنى لو كان رأسها دون الحجاب، كي يتسنى له إنزال مظلته و يتفرج على ما يفعله المطر بشعرها المحروم من ملمسه، و

لم يُسعد بمرآه سوى أيام قلائل سبقت قرارها بوضع الحجاب اللعين! . . يضعون بينهم و الحياة حواجر لم يضعها الله فإختلقها المدلسون! . . و بسبب إحساسه بالحرمان، جاءت ردة فعله أن ترك لها المظلة تحملها لوحدها و تركها تمضي أمامه. و بعد خطوتين إلتفتت إليه لتراه متوقفا تماما تحت المطر رافعا وجهه نحو السماء ضاماً راحتيه لبعضهما عند ذقنه مثلما يفعل البوذيون، و كأنه يبتهل لماء الغيث . . و ربما لماء الكون . . و ليستمتع بضحكة صامتة. و ظلت تتفرج على حاله في وضع الإبتهال الى السماء . . فعلقت:

- هاا؟ . . توضيت زين؟
- أجل . . المطر يغسل أدران روحي . . فأحس و كأني صليت!

و هنا في عمان . . يجفله رنين الموبايل و يوقظه من سرحانه . . و يرفعه ليرد:

- نعم!
- . . .

كانت هي تسأله عن عدة أشياء . . فقال:

- إسمعي لمياء . . المكالمات هنا كلفها غالية جدا . . آني هسه بعمان دزيتلچ رسالة شرحت وضعي هنا . . إذا لهسه ما واصلتچ الرسالة . . راح توصلچ قريبا.
- . . . .
- شوكت تناقشين رسالتچ؟
- . . . .
- الشهر القادم . . حلو! . . هذا رقم موبايلي . . تحياتي للجميع . . و آني بإنتظار وصولچ لعمان! . . باي باي!

بإغلاقه السماعة كان فريد قد إنتهى من أغنيته للتو و إنتقل الى أغنية أخرى.

و يتذكر أنهما . . في الكاظمية لم يستعجلا دخولهما الصحن الكاظمي إتقاءً للمطر، و راحت لمياء تتفرج على واجهات محلات الصاغة القريبة من باب القبلة . .المرأة حين تتفرج على واجهات محلات الصاغة في نفسها شئ يفضي الى عذاب للرجل! . . فإعتُصر قلبه لأنه لا يستطيع تلبية بعض رغباتها الذهبية. و كيلا يطول إعتصار قلبه دون جدوى، سحبها من كوعها ماضيين نحو الصحن الكاظمي .

. نزعا حذائيهما و أمناهما عند الكشواني و سارا نحو الحضرة دخولا . . داهمته رائحة البخور عند باب الحضرة. توقفت لمياء فجأة و توقف معها مستمعا إليها تقرأ السلام على الإمامين الراقدين بما يشبه الإنشاد و معه دعاء الدخول. في داخل الحضرة، سيتفاجأ بوضع حاجز حديدي دائري يقسم الحضرة الى فضائين أحدهما داخلي محاذي للضريح مقسوم هو بدوره الى نصفين أحدهما للرجال و الأخر للنساء . . و الآخر الذي دخلاه للتو فضاء خارجي ضيق يسمح به بتواجد مختلط للنساء و الرجال . . بارعون في وضع الحواجز و المحرمات! . . في الفضاء الخارجي إشتدت في خياشيمه رائحة البخور ممتزجة بأبخرة رطوبة ملابس الداخلين الى الضريح مبللة بالمطر، فأفقدت جو الضريح رائحة كان يألفها دائما في المكان. لمياء تنشغل بالصلاة و هو جالس إلى جانبها يتلفت يمينا و شمالا يتحسس الأبهة التي تشيعها ثريات المصابيح الضوئية في السقف المزجج بالمرايا. بإنتهائها من صلاتها سألته:

- شبيك تتلفت! . . ما جاي لهنا گبل؟
- جاي بالتأكيد!
- أشوفك . . چـنك تدور على شي!

و إذ لم يجب على سؤالها سمعها تضيف:

- مضيّع شي هنا؟
- خلينه نـگول . . إي مضيِّع شي!
- شنو هو؟
- خلينه هسه نقوم بواجب الزيارة!

المكان ليس شديد الزحام بعد . . توجهت هي الى حيث مدخل النساء المؤدي الى الضريح و مضى هو نحو مدخل الرجال. وجد المكان مزدحما و لكن ليس مكتظا جدا. وقف يتفرج متطلعا الى الناس . . شيبا و شبانا و أطفال يقبّلون شباك الضريح و يلقون بنذورهم و يفصحون عن حوائجهم و يتوسلون و يتضرعون لبلوغها، و رجال الضريح كأنهم عناكب نصبت شباكها لتلقّف النذور و بيع أشرطة قماش أخضر المفروض أنها تمائم تجلب الحظ و تشفي من المرض و تفرّج عن المرأة العقيم. جلب إنتباهه رجل خمسيني يفترش الأرض فوق سجادة يصلي و يدعو ويتضرع قرب شباك الضريح. و يدفعه

الفضـول للإقتـراب مـن الرجـل ليسـتمع لمـا يقولـه. كـل مـا فـي الرجـل يشـير الـى محنـة . . يشـماغه المصـبوغ أسـودا تحـت عقالـه الرفيـع، هزالـه، عبوسـه الممتـزج ببؤس ملامحـه لينـتج شـيئا مخيفـا، دشداشـته الرثـة، عباءتـه التـي بدت مهلهلـة فـي أطرافهـا،على الـرغم مـن طويّـهِ لهـا عـدة طويـات موضـوعة أمامـه و فوقهـا تربـة[11] الصـلاة . . واحـدٌ مـن الملايـين الفاقـدة للأمـل! . . الكلمـات ترشـح منـه كأنهـا هـذيان عتـاب محموم:

- أبـو الجـوادين يـا بعـد عـوينتي . . لِـيش علـى بختـك؟ . . فـدوة لعويناتـك! . . . آنـه مـو إجـيتك و حـچيتلـك! . . أخـافن هـُـم همـين أجـوك . . شـجابولك بويـه؟ . . لِـيش آنـه مـو هـم جِبـتيتلـك و نـذرتلك! . . . چـا لِـيش هيـچ شـمتتهم بـيّ! . . و الجيـران يـگـولون هـاذ مـا چـان يصـير لـو مـو موسـى بـن جعفـر زعلان منك! . . صـگـد إنتَ زعلان عليًّ! . .

إسـتغاثة المعاتـب المتـذلل أصـابته بالغثيـان، فإنسحب زحفـا علـى عجيزتـه الـى الخلـف لغايـة أن أصـطدم ظهـره بالحـاجز الحديـدي. و لحسـن حظـه وجد الحـاجز الحديـدي بـين الفضـاء المخصـص للنسـاء و الآخـر الـذي هـو فيـه قريبـا منـه، و مـن بـين زحـام النسـاء حـاول أن يـرى أيـن صـفت الزيـارة بلميـاء. كـاد يعيـا مـن متابعـة البحـث قبـل أن يراهـا مـن فرجـة ضـيقة بـين الأجسـاد الملتـزة، واقفـة علـى بعـد أكثـر مـن متـر تضـع جمـاع كفيهـا علـى بوزهـا مغمضـة العينـين غارقـة فـي دعـاء أو نـذر أو صـلاة . . و لـو كانـت هنـاك دون حجـاب أكـان تخيلهـا سـومرية تتضـرع لإنليـل؟ . . لا يـدري! . . و فضـّـل ألا ينـادي عليهـا و تركهـا تسـتغرق بمـا هـي فيـه. حـاول مـرة ثانيـة أن يلمحهـا مـن بـين أجسـاد النسـاء فلـم يفلـح، فـأغمض عينيـه بشـبه إغفـاءة، و مـا زال يأتيـه خلـيط مـن أصـوات مستغيثة . . نغمـات نسـائية تمتـزج بنغمـات رجاليـة فيمـا يشـبه لغـو خافـت فـي عـالم سـفلي . . شـكوى مـن الفقـر . . و مـن الظلـم . . و مـن العـدوان . . و كلـه قصـور مسـؤول عنـه الإنسـان الـذي يختلـق لنفسـه آلهـة و أنصـاف آلهـة و أربـاع آلهـة يناجيهـا و لا تسـتجيب! . . شـكوى مـن الكنـة . . و

[11] التربة: قطعة من الصلصال المجفف مصنوعة مما يظنونه تربة مباركة يضعها المصلون الشيعة تحت جباههم عند السجود.

مـن الحمـاة . . و مـن الوالـد . . و مـن الولـد . . و مـن البـائع . . و مـن الشـاري . . الجميـع يشـكو و لـه حاجـة يطلبهـا مـن قاضـي الحـوائج! . . و يحصـل أن الطـرفين المتخاصـمين كليهمـا يأتيانـه بالنـذور و البـذل . . الغالـب و الخاسـر يـدفع! . . و قـد لا ينقضـي مـن تلـك الحاجـات الا النـزر النـزر، و أنهـا بالتأكيـد ستنقضـي علـى وفـق منطـق لا علاقـة لـه بـابي الجـوادين، و لكـنهم سـيظلون يتكـاثرون و يتناسـلون مثـل القمـل و تـزداد معـه حـوائجهم لكـي يعـاودوا المجـئ شـهرا بعـد شـهر، و سـنة بعـد سـنة، لتكـون الحضـرة أشـد إزدحامـا، و يعيـدوا عـرض حـوائجهم التـي لـن تنقضـي بـدعاءات لا تسـتجاب. و مـا ينقضـي منهـا لا بـد أن تكـون حصيلته خاسر مـن نـوع الرجـل الـرث الـذي مـا يـزال يسـتغيث غيـر بعيـد عنـه . . الطبيعـة عمومـا أمامـه و فـي مركزهـا الانسـان، و مـا يبـدو لنـا مدّا هنـا لا بـد أن يقابلـه جـزر فـي مكـان مـا فـي هـذا الـزمن أو فـي زمـان تـالٍ . . و لكـن مـا بـال أهـل هـذه البقعـة مـن الأرض يبـدون و كـأنهم هـم وحـدهم فـي هـذا العـالم فـي جـزرٍ دائـم و غيـرهم فـي مـدٍ دائـم . . و يأتيـه صوت من بين زحام الأجساد و الأصوات:

- حمدان! . . حمداااااااااان!

و تنفتح عيناه بإتجاه الصوت. لمياء تقف لصق الحاجز . . فأضافت:

- إنت وين؟ . . نايم!

نهـض و خـرج ليلتقيهـا فـي الفضـاء المخـتلط للضـريح . . فسـألته و همـا واقفان:

- صليت؟
- طبعـا! . . أديـت صـلاة مـن نـوع مـا! . . مراقبـة النـاس فـي هذيانهم مو شي يشبه الصلاة؟

و كأنها لم تصدقه . . عقبت:

- خلينه نصلي هنا سوية! . . . يلله أوگف يمي!

و لكنـه خالفهـا ليقـف وراءهـا و لـم تعتـرض . . و تركهـا تـؤدي صـلاتها وقوفـا و هـو يسـتمع إليهـا . . و بإنتهائهـا راح يتلفـت و كأنـه يـتفحص المكان مثلما فعل عند أول دخولهما . . فسألته:

- شبيك تتلفت؟

و ما يزال يتلفت . . ما دفعها الى التعليق مستنكرة:

- هاي آني أعيد سؤالي . . إنت مضيّع شي هنا؟

- في الحقيقة . . نعم.
فسألته مستغربة:
- شنو؟
- المكان اللي صلت به أمي.
- شوكت؟
- بآخر زيارة جيت للحضرة الكاظمية قبل أكثر من ثلاثين سنة . . و چانت الوالدة سابقتني للحضرة . . مستجيرة مني بأبي الجوادين!

و يتذكر أنه . . تاه آنذاك ثوان فيما حصل قبل ثلاثين سنة حين إلتقت والدته بالمرأة التي نوى الزواج منها و صارت زوجته فيما بعد، و إستنكرت والدته عليه إختياره لها رافضة الموافقة على زواجه منها . . و تذكر أيضا أنه . . حين أصر على الزواج من المرأة التي إختارها في آخر لقاء له مع أمه حتى مماتها قالت له . . راح أشتكي عليك يم أبو الجوادين! . . و خرجت متذرعة بحجة زيارة أبنة عمها المقيمة في الكاظمية و زوجها من سدنة الحضرة. و تذكر كيف أنه . . تبعها الى بيت إبنة عمها ثم الى الصحن الكاظمي. و حين دخل الى الصحن من باب القبلة و دخل الحضرة من الباب الموجود وراءه الآن مباشرة و جدها تصلي هنا في هذه البقعة . . و بقي جالسا خلفها يستمع إليها تصلي و تتلو أدعيتها و نذرها و تتوسل بأبي الجوادين أن يعطل و يعرقل زواجه و لم يفلح أبو الجوادين . . و تذكر أن أمه توفيت كمدا من زواجه ذاك بعد عامين و لم يكن عمر إبنته البكر سوى شهرين .

و هزته لمياء بقوة سائلة:
- وين تهت! . . گوللي بيش إنت سارح و تتلفت؟
- أحاول أحصر البقعة . . لكن ما أتذكر بالضبط وين المكان اللي صلت به و آني خاتل وراهه!
- و ليش وراهه؟

نوى أن يخبرها بالحكاية و أحجم، فكذب عليها قائلا:
- في وقتها . . أمتني بالصلاة مثل ما سويتي إنتِ هسه!

و يتذكر أن . . شيئا في داخله آنذاك صرخ بصمت يحز في نفسه . . يا أماه إعترف لك بأن زواجي ذاك كان غلطة دفعت ثمنها شقاءً دام

ثلاثين عاما . . و ذاك كان قراري! . . . أطلب عفوك أمي! . . أطلب عفوك هنا في المكان الذي صليتِ به! . . و **يتذكر أنه** . . إسترسل في داخله بما يشبه التضرع، فهزته لمياء مرة أخرى من كوعه قائلة:

- و هذا يعني . . إحتمال هسه روح الوالدة جاي تحوم هنا بهاللحظة طالما تذكرتها!
- يا لميا . . بالله عليك! . . عوفينه من حكاية الأرواح هذي . . و دعوة الماضي الضاج بالأشباح! . . گِلتلچ أكثر من مرة آني أحاول جاهدا و دائما العثور لنفسي على نشيد يميزني عن هذوله الموجودين بالحضرة يهتفون بنشيد الذلة! . . و آني إذا أگولهه و أعيدهه هسه ما راح أگولهه ممالأة إلچ أو لأي أحد . . آني مؤمن بأن هذا الكون المتناسق الجميل المنظم أدق تنظيم لا بد أن يكون من صنع خالق عظيم و مؤلف أخلاقي . . و آني أؤمن بوجوده . . و لكن حذار و الخلط . . أو بالأحرى حذار و الإستماع الى أي خلط يجري بين الإيمان بوجود المطلق الأزلي و التخيلات و الأوهام اللي تمر بروؤس بعض البشر على كر القرون . . و ذاك منهم اللي يسمّي نفسه نبي! .. و اللي يسمّي نفسه ولي! . . و اللي يوهم الناس بأنه قديس . . أو عارفة . . و مرة كذا و مرة كيت! . . و ما أسهلَ عليچ حتى إنت . . أو على أي انسان آخر أن يكون قديس من نوع ما . . إذا حاول التحدث بلغة تستدعي أرواح و أشباح تنتهي أسماءهم بإئيل! . . و تأكدي . .

و توقف فجأة و هي ما تزال مصغية لأنه أحس بأنه تمادى بما لا يتناسب و الموقف و المكان . . و يحاول ترضيتها مضيفا:

- ما علينا! . . هذي البقعة بالحضرة الكاظمية عزيزة عندي لأنها جمعتني بآخر لقاء إلي ويه أمي و هي تجمعني هسه بهاللحظة بيچ هسه!

فقاطعته لمياء بنبرة معاندة و متحدية:

- إذن . . خو مو عندك مانع . . إذا صلينا ركعتين على روح أمك!
- لا قطعا! . . لك ما تريدين.

و راحت لمياء تكـبر لتصلي واقفة . . و هو واقف وراءها مباشرة و كأنها توءمه . . إستمع الى ترانيم صلاتها و الأدعية التي كانت تؤديها بصوت خافت . . و كاد يبكي متذكرا أفضال أمه عليه . . حين إنتهت من صلاتها إلتفتت إليه . . و لم يستطع أن يواري الدمع الحبيس . . فقالت له:

- هسه يلله صدَّگِت إنت چِنت صدگ تصلي ورايه . . ظنيتك تتهرب و تتملص من طلبت توگف ورايه!
- بالتأكيد لا! . . آني عندي إتصالاتي بالمطلق . . بس مو على طريقتچ!

مبتسمة . . رآها تمد يدها في حقيبتها المعلقة على كتفها لتخرج علبة خاتمي الخطبة . . مفاجأة! . . فعلق قائلا:

- هاي شنو؟

و ناولته صامتة الخاتم الذهبي . . ففهم غايتها و فهم دوره و في تلك اللحظة فقط إكتشف لِمَ أرادت جلبه الى الحضرة الكاظمية . .. أرادت أن تشهد أبو الجوادين على عقدهما الأخلاقي، فتذكر قصة عقد النبي على جويرية الذي قام به النبي شخصيا مستعينا بشهادة جبرائيل على العقد و لم تكن جويرية ترى جبرائيل . . و غرق بضحكة إستغربت لها لمياء، و لم يجد ضيرا في قبول شهادة شبحية على عقدهما بحضور أبي الجوادين! . . و هي منشغلة بقراءة سورة الفاتحة مد هو يده اليسرى ليسحب يدها اليسرى و ألبسها الخاتم في بنصرها الأيمن. ثم أخرجت الخاتم الفضي و هذه المرة تناولت هي يده اليمنى و هي ترتل . . و خلقنا لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعلنا بينكم مودة و رحمة . . و وضعت الخاتم في بنصره الأيمن. ثم عصر كفيها بكفيه الأيمن بالأيسر و الأيسر بالأيمن . . معقبا:

- مبروك!
- مبروك علينا!

و يتذكر أنه . . أحس و كأن السعادة التي غمرتها شعت على وجهه . . و تقدم منها ليقبلها فحزرت نيته و صرخت متلفتة بصوت خافت:

- أياك! . . تريد تبوسني هنا!
- ليش لا! . . يعني راح يذبحونا؟

حاجز آخر! . . لم يعلق و مشى أمامها. و عند الكشواني لبسا أحذيتهما و مشيا نحو باب القبلة. كان المطر ما يزال ينزل غزيرا و يسيح على الأرضية المرمرية للصحن الكاظمي و يغسل الطين المنقول بأحذية الداخلين إليه، فسألها:

- معتادة على الصلاة و أنت واگفة؟
- دائما . . مضطرة!
- ليش؟
- عندي خلل زغير بركبتي . . ما أگدر أثنيها . . السجود بالصلاة ما يتحقق دون ثني الركبة.

هذا كان أول كشف من هذا النوع أمامه . . فعلق قائلا:

- به حسنة.
- و شنو هاي الحسنة!
- الطاقة المهدورة بالسجود تنضاف للطاقة الروحانية و تحرر الجسد من عادة التكرار و توفر إقتراب أكبر من الحالة الأثيرية!

يتذكر أنها . . لم تعلق ربما لأن ما سمعته قد يكون تعليلا روحانيا مفحما . . فعقبت:

- تدري شنو اللي يسعدني بعلاقتنا كلها؟
- أفصحي رجاء؟
- هو أنه رجل مثلك لگاني فقيرة ما عندي و لا قرش . . و مع ذلك حبني و راح يتزوجني في زمن الكوليرا و الحصبة و الطاعون و الجدري!
- زين . . و إنت تدرين شنو اللي راح يسعدني دوما؟
- شنو؟
- شمس التبريزي يگول أنه في داخل كل مؤمن يتخفى كافر من نوعما . . و بداخل كل كافر يختبئ مؤمن من نوعما . .

فقاطعته:

- الله! . . نسبية روحانية مثل نسبية آينشتاين الكونية! . . المهم . . مربط الفرس هنا؟

- . . مربط الفرس . . و أقولها مجازا . . آني أتعشم أن تتركي الكافر اللي بداخلج يلتقي بالمؤمن اللي بداخلي بنقطة ما . . دوما و أبدا و بعفوية . . مثل ما جاي يجري هسه!

و حاولت أن تكتم ضحكة طالت قليلا . . و ردت:

- سأحاول!

هنا في عمان . . القطة ما تزال أمامه يتفرج عليها تناوب بمسح خطمها و مؤخرتها بزجاج النافذة، و كان فريد الأطرش قد إنتهى و بدأ أغنية أخرى . . قام و توجه الى حقيبته المكتبية، جلبها ليضعها على الطاولة. . في نيته أن يكتب رسالة للمياء على عنوان دائرتها لكنه أحجم بسبب الإعياء . . و راح لينام.

* * * * *   * * * * *

نهض من سريره الخميس مزيحا ستارة النافذة، و في الحمام حلق ذقنه و تعطر. أعد فطوره و جلس يأكل و يحتسي الشاي، و هو يتفرج عبر النافذة على الشمس ترسل أولى شعاعاتها على واجهات المباني العالية. ثم نهض ليدخل الحمام من جديد و يخرج أكثر حيوية. فتح حقيبة ملابسه و أخرج منها قميصا أبيضا و بدلة كحلية مستعملة كان قد إشتراها من بالة عمان عند مروره بها الى ليبيا، و معها ربطة عنق حمراء و بلوزة صوفية زرقاء مسبعة. ألقى نظرة على الملابس المبعجة، هي بحاجة الى كيّ و مع ذلك . . لا بأس! . . لم يشغل باله بذلك كثيرا. يغير ملابسه و يتذكر أن لا مرآة في المكان يرى فيها قيافته، تلفت باحثا عن أي سطح أملس براق يقوم بدور مرآة يحل له المشكلة، فعز عليه ذلك. ثم حمل حقيبته المكتبية و خرج.

في مرج الحمام . . أنزله الباص أمام جدار الربوة التي تقبع فوقها بناية المدارس العالمية . . لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة و النصف عند دخوله المدرسة.

إعتاد على سماع مجاملة عن قدرته على التماهي فورا مع لهجة المكان الذي يحلُّ به . . اللهجة المصرية تعلمها من الأفلام و قوّاها ممارسة بالتحدث مع النجارين المصريين الذي عملوا عنده في ورشة النجارة أيام الثمانينيات . . و خلال الشهر الذي قضاه في المرة الأولى في عمان مرن نفسه على التحدث باللهجة الأردنية مختلطة عنده أحيانا لاشعوريا ببعض قفلات اللهجة اللبنانية إكتسبها من طول

إستماعه لفيروز و وديع الصافي. و سيحاول التماهي هنا مع اللهجة الأردنية، فتشوبها أحيانا قفلات لهجة فلسطينية . . فلسفته في الحياة هي الإندماج في المكان طالما صار يتقبل الى حد ما مقولة . . سعيد من لا يمد جذرا في الأرض . . قبل وصوله الى الباب الرئيس للمدارس العالمية و لأنه يتذكر دائما قول القائل . . من عرف لغة قوم أمن شرهم . . لكنه في أحوال كثيرة يجد العبارة مفيدة و لكن إستقامتها ليست كاملة، فيضيف لفحواها عبارة . . و يتعلم منهم! . . فقرر إلا يتحدث و هو يدخل هنا سوى باللهجة الأردنية إلا عند الضرورة كي تتوفر لديه طاقة لإشباع حاجة أولاد الحسيني من اللهجة العراقية!

في غرفة الإستعلامات نوى التحدث بالإنگليزية لكنه تراجع عما نواه . . فقال لموظف الإستعلامات:

- صباح الخير أستاز.
- أهلين على طاقين.
- يا سيدي أنا مدرس . . طالب عمل.
- إهلين أستاز . . شرَّفت . . حضرتك أردني؟
- لا عراقي.
- أتفضل . . أقعد!

تحدث الرجل بالتلفون . . و عاد ليقول له:

- الأستاز يوسف العناني مدير المدارس العالمية يستناك.

نهض شاكرا موظف الإستعلامات. رافقته موظفة شابة الى مكتب المدير مارا عبر الفضاء الداخلي الدائري الواسع للبناية يرتفع فوقه سقف بقبة زجاجية عالية بعلو قد تتيح لأشعة الشمس التغلغل قدر ما تستطيع عبر الأبواب المنتشرة حول الباحة . . عبر الباحة مع الموظفة الشابة لتدخله الى مكتب واسع جدا فيه موظفتين، خاطبت إحداهما قد تكون السكرتيرة قائلة:

- مس رزان . . دخّلي الأستاز عند أستاز أبو فادي.

لم ينتظر طويلا و أدخلته السكرتيرة . . نهض الرجل العملاق الضخم البدن من كرسيه نصف نهوض ليصافحه مرحبا:

- أهلين استاز؟
- أهلين أستاز أبو فادي.

و لم يتأخر في فتح حقيبته ليضع أمام المدير سيرته الذاتية. و المدير يقلب بالملف علق:

- همم . . بكالوريوس . . همم . . دبلوم عالي معادل للماجستير في الترجمة . . و كمان خدمة ثمانية وعشرين سنة في التعليم . . كل هيدا كويس! . . أي أستاز هلق بيش نقدر نخدمك؟
- طالب وظيفة.
- مدرس؟
- بالتأكيد.

المدير يلف و يدور:

- و الله ما أخفي عليك . . إحنا السنة الحالية . . إحتمال ما نحتاج خدماتك . . على السنة الجاية ممكن . . لكن ما فيه مانع نعملك إختبار . . و نشوف!

و طلب المدير بالتلفون مجئ الست فدوى عبد ربه مشرفة الإنكليزية في المدرسة. أتت و عرَّفه عليها طالبا منها إجراء إختبار له، فمدت له يدا دافئة و مريحة لتصافح يده المقرورة. و كعادته إنحنى لها إنحناءة خفيفة و المدير يخاطبها:

- هيدا أستاز حمدان الجربة . . أستاز إنكليزية . . شو رأيك نعملو إختبار للمستقبل؟

و لم تفت حمدان غمزة المدير الخاطفة لها . . فترد:

- ما فيه مانع أستاز!

يرافقها حمدان تصعد به على السلم الى الطابق الأول. و في الممر و هو وراءها ينهض لها رجل من خلف مكتب و تقدمهما لبعضهما:

- أستاز راغب رئيس الطابق الأول للأولاد . . أستاز حمدان الجربة. . بدنه نعملو إختبار هوني عندك للصف التامن!
- كرمالك مس فدوى . . و كرمال الضيف . . إتفضلو أقعدو لغاية ما تخلص الحصة الأولى!

يصافح حمدان الرجل و يجلسان ليحتسيا عنده قهوة خفيفة ذكرته بقول أمه حين لا يعجبها الشاي . . هذا بلالة چاي مو چاي! . . و تستفسر المس فدوى منه عن حياته، فيكون شحيحا لغاية أن دُق جرس الفرصة. و بإنتظار الحصة التالية إنصرفت المرأة لجلب كتاب اللغة المقرر للصف الثامن كي يطلع عليه. قلبَّ الكتاب و لا جديد فيه

سـوى طريقتـه الممتـازة بـإخراج المـادة لأنـه لـيس محليـا . . يُـدقُ الجـرس، فيتوافـد التلامـذة الـى الصـفوف. نهـض معهـا لتـدخل أمامـه الـى الصف الثامن، فخاطبت الأولاد بعبارة قصيرة:

- Mr. Hamdan Ajjarbah is coming to be your new English language teacher. So, would you say hello to him.

و تنطلق من أفواه البعض عبارات ترحيب:

- Hi sir.
- Nice to meet you sir.
- How do you do, sir!

و تتركـه فـدوى أمـام السـبورة و تنسـحب الـى آخـر غرفـة الصـف كـي تراقـب مـن هنـاك مجريـات الـدرس. و قبـل أن يبـدأ الـدرس يكتـب حمـدان معلومـات الخطـة اليوميـة المطلوبـة عـادة علـى السـبورة و يخـاطبهم محاولا التعرف على مدى إستقبالهم لما يقول:

- Hello, I'm supposed to be your teacher of English for this year, or rather for the rest of this year. Please tell me where, I mean at what page, have you stopped last in your learning?

و يرفـع عـدد مـن الطلبـة أيـديهم . . جيـد . . بيـنهم مـن يسـتلم و يوصـل بالإنـگـليزية! . . فيختـار مـنهم واحـدا أخبـره بمـا أراد، و فضـّل أن يبـدأ معهم بدرس جديد يخاطبهم:

- Open your books on page sixty, please!

و يـروح الطلبـة ليفتحـوا كتـبهم . . و يجلـب إنتباهـه طالبـان فـي الصـفين الأخيـرين مـن مقاعـد الوسـط حيـث تقـف المشـرفة لا يكفـان عـن التعليـق و يـروح الآخـرون مـن حـولهم ينخرطـون فـي ضـحك مسـموع، و ينسـحب ضـحكهم علـى طلبـة المقدمـة، فيضـحكون سـكوتا. و قـد سـمع الكثيـر أثنـاء وجـوده فـي عمـان سـابقا عـن تصـرفات الطلبـة فـي المـدارس الأردنيـة و عمـا تثيـره تصـرفاتهم مـن عقبـات و مشـكلات معقـدة عنـد المدرسـين الـى حـد وصـول بعـض القضـايا الـى الشـرطة . . و يتـذكر مـا حصـل لـزوج بثينـة الصـفار فـي ليبيـا فـي موقـف مشـابه بتبعاتـه الدراماتيكيـة، فبنـى

ستراتيجيته على أن يتصرف فورا و ليكن ما يكون! . . ألم يقرّ لنفسه أثناء خروجه من بيت الحسيني مبدأ اللعب دون قواعد؟ . . و من بعدي الطوفان! . . لبث ساكنا و صامتا يتطلع الى الطالبين المشاغبين لغاية أن سكت الطلبة تدريجيا، و خفت الضحك، فتحرك بإتجاه الطالبين الأزعرين و كانا حيث تقف المشرفة في نهاية ممر بين صفي مقاعد. و خاطب أحدهما قائلا:

- Behave your self and stop disturbing our work?

فعلق الطالب:

- شو؟

من الرد فهم حمدان أن التلميذ فقير باللغة . . و ها هو يقرر أن يضرب ضربة معلم و يتحدث بالأردنية:

- أقلك بطّل شغل الزعرنة تبعك . . مفهوم؟ . . و إنتبه للدرس!
- شو؟ . . أبطل شغل الزعرنة . . أنا بكيفي! . . أستاز أنا جاي هون بمصاريي!

و يضج الطلبة بالضحك . . و يصرخ حمدان به بأعلى صوته:

- طز بمصاريك!

رد حمدان جعل قهقهات الطلبة تخفت و تتلاشى . . صمت كامل ران على المكان! . . و إختار الأزعر أن يتمادي مستعرضا ما يظنه مرجلة أمام الصف ليعلق:

- شو؟ . . طز بمصاريي! . . طيب و إزا كان ما بدي أنا أتعلم لغة أعدائي الكفار الأمريكان و الإنگليز؟
- إزا كان هيك . . يا أزعر . . تستاهل أرميك برة!
- شو! . . برة؟

و يمسك به حمدان من ياقة جاكتته محاولا سحبه ليدفعه أمامه، و التلميذ يقاوم بل و راح حمدان يرفسه بركبته على ظهره الى أن أوصله الى باب الصف . . و قبل أن يدفعه الى الخارج و التلامذة يتفرجون مذهولين خاطبه قائلا:

- لعلمك يا أزعر! . . أولا أنا مش راح أقبلك بالصف مرة تانية قبل ما تجيب والدك . . و تانيا لو حصل و جا الوالد لهوني و لقينا حل لمشكلتك هلق . . إزا كررت زعرنتك مرة ثانية راح أديك المرة الجاية بالشلوت!

و دفعه الى خارج الصف ليسد الباب من ورائه. و عاد الى آخر الصف نحو الطالب الآخرمتحاشيا في كل هذا أن تلتقي نظراته بنظرات المشرفة تفاديا لمعرفة ردود أفعالها وهو ما يزال في بداية تجربته . . و خاطب الأزعر الثاني قائلا:

- ها! . . إنت الأزعر التاني . هلق شو رأيك لو رميتك إنت كمان بره؟

فرد الأزعر مرتعبا:

- لا! . . دخيلك أستاز . . أنا ما لي دخل بالأزعر اللي برة و لا كمان أعرفو! . . و لا حتى كمان أعرف إسمو!

و كي يضع حمدان اللمسات الأخيرة لما أنجزه . . صرخ بالأزعر:

- قوم . . ولك!

فقام الطالب مذعورا ليسأل:

- شو بدك أستاز؟ . . أمرك!
- إطلع . . روح أقعد هناك قدام عيني!

و اجلسه في أول مقعد مرجعا طالبا غيره مكانه . . إنتهى من الدرس، و معطيا التلامذة واجبهم البيتي خاطبهم:

- تزكرو كويس . . هيدا أنا معلمكم لهالسنة . . أنا حمدان الجربة!

و غادر الصف ليقف في الممر بإنتظار المس فدوى. و لحقت به ملقية عليه نظرات مغلفة بإبتسامة إحتار في تفسيرها . . و سألته:

- أديش صارلك بعمان؟
- مو مدة طويلة . . قولي . . إشي مو أكثر من شهرين على بعضهم.
- يعني ما سبقلك و إشتغلت بعمان؟
- أبدا!

سارت أمامه بإتجاه السلم و شكرا كلاهما الأستاذ راغب قبل أن ينزلا . . سبقته في نزول السلم، و في فسحة لفة السلم الوسطية بين الطابقين توقفت، فتوقف وراءها. هما لوحدهما، و وجدها تستدير نحوه مستفسرة:

- لو سمحت؟
- تفضلي!

و هـي تقتـرب منـه شـم منهـا شـذى عطـر نـاعم دوَّخـتَه . . و رآهـا تمـد يدها نحو ربطة عنقه لتعدل موضعها و تعلق:

- هيك أفضل!

كـان ليَعـُـدَّ مـا فعلتـه تـدخلا فـي خصوصـياته لـولا شـذى العطـر الـذي أُخِـذ بـه علـى حـين غـرة، و قـد سـبق السـيف العـذل! . . و تأتيـه مفاجـأة أقوى حين سألته:

- شو نوع العطر اللي تحطو؟

فأسقط في يده . . و لم يجد سوى أن يجيب تلقائيا:

- One Man show!

و بنظراتهـا التـي مـا تـزال تغلفهـا إبتسـامة محيـرة راحـت تتطلـع الـى بدلتـه من فوق الى تحت . . متسائلة:

- شـو هـاي أسـتاذ؟ . . مـا فيـه حـدا معـك بالبيـت . . لـو مـا عنـدك مكوى بالبيت؟
- للأسـف . . لهلـق الإتنـين مـا متـوفرين . . لا حـدا معـي بالبيـت . . و لا عنـدي مكـوى . . إتفاجـأت اليـوم الصـبح بملابسـي . . مـا صـارلي كتيـر بعمـان هـالمرة . . تـلات أو أربـع أيـام! . . و لازم كمان أنتظر شويه قبل ما تجي زوجتي لعمان!

و يراهـا تـُبـلِّ شـفتيها الخيطيتـين بضـمهما لبعضـهما لتصـيرا لامعتـين في عتمة السلم و قالت له ضاحكة:

- إزا هيـك . . معـزور . . يللـه أعرفـك علـى شـوية العـراقيين اللـي بالمدارس العالمية!

أثمـة مـن لا يضـطرب و هـو يـرى إمـرأة تـبـلّ شفتيها علـى النحـو الـذي رآه فـي خلـوة فسـحة لفـة السـلم؟ . . و تنـزل عليـه مفـردة . . كاليبسـو! . . نـزول الصـاعقة و تجتـاح رأسـه معهـا ملامـح بثينـة الصـفار و هـي تقولهـا لـه عنـد مغادرتهـا الـى العـراق . . و تبعهـا و هـي تواصـل النـزول. و فـي الباحـة الأرضـية إسـتدارت يسـارا و راحـت تصـعد سـلما آخـر ليـدخلا بعـده بابـا واسـعا و يصـبحا فـي مـدخل صـالة النشـاطات فـي المدرسـة. بـان لـه مـدرج الصـالة كبيـرا و بعـدد كبيـر مـن المقاعـد . . شـئ لـم يـرَ مثلـه فـي المـدارس العراقيـة . . صـفوف المقاعـد تنحـدر متموجـة بحسـب إنحـدار الأرض التـي بنيـت عليهـا المدرسـة. عنـد المسـرح كـان هنـاك رجـل أربعينـي يجلـس و بيـده آلـة عـود و معـه

طالبتـان مـن الصـفوف المتقدمـة . . يعـزف هـو و البنتـان تؤديـان أغنيـة لأم كلثوم:

- . . الليـل و سـماه و نجومـو و قمـرو . . و قمـرو و سـهرو . . و انـت و أنـا . . يـا حبيبـي أنـا . . يـا حيـاتي أنـا . . كلنـا كلنـا . . فـي الحب سوا . .

و يراهمـا المـدرس، فيتوقـف عـن العـزف . . حمـدان تمنـاه ألا يتوقـف كـي لا تتوقـف البنتـان عـن الغنـاء، لكنهمـا توقفتـا، فتقـدمت فـدوى مـنهم و هـو وراءها. و ينهض المدرس لإستقباهما، و تقدمهما لبعض:

- أسـتاز أحمـد النقشـبندي . . مـدرس الموسـيقى و مسـؤول النشـاطات . .هيـدا أسـتاز حمـدان الجربـة مـدرس إنـكـليزية بدّو يشتغل معانا!

سـلام و مصـافحة . . و طلبـت مـن حمـدان الإنتظـار هنـا لغايـة أن يصـدر قـرار بشـأنه و اسـتأذنت قبـل أن تتركهمـا. يشـكرها حمـدان بكلمـات رقيقـة علـى جهـدها معـه، و ذهبـت . . و يطلـب النقشـبندي مـن الطـالبتين الإنصـراف و يـدعوه الـى الجلـوس، فجلـس و ظهـره الـى بـاب الصالة . . تبادلا الحديث المعتاد في لقاء تعارف أول . .

النقشـبندي فـي الأسـاس مهنـدس غابـات مـن مدينـة دهـوك العراقيـة متـزوج و لـه ولـد و بنـت، و هـو شـغوف بالموسـيقى و الغنـاء و يحيـي أحيانـا حفـلات غنـاء فـي عمـان فـي بعـض المناسـبات و فـي بعـض المطـاعم و يسـكن مـرج الحمـام. و حكـى لـه حمـدان مـا دار بينـه و المـدير ثـم مـا دار فـي الصـف الثـامن بالتفصـيل، فيغـرق النقشـبندي بضـحكة طويلـة . . معلقا:

- عفـارم عليـك! . . و إنـتَ صـدَّگِـت كـلام ابـو فـادي عـن عـدم حـاجتهم لخـدماتك؟ . . أصـلا هـم بـأمس الحاجـة لخـدماتك . . لكـن هنـا هـذا هـو أسـلوبهم دائمـا! . . و لعلمـك مـا حصـل فـي الصـف الثـامن و اللـي سـويته إنـت هنـاك يلبـي حـاجتهم بالتمـام! . . و آنـي أتوقع راح يوقعون وياك عقد . . مبروك مقدماً!
- شلون؟
- صـدقا . . اللـي سـويته بالصـف كـان ضـربة معلـم حقيقـي! . . تلامذة هذا الصف أصابو الإدارة بالمرض و القرف و العجز!
- ليش؟

- لحدُ هسه هم مطفشين أربعة مدرسين گبلك خلال هالسنة . . عراقي واحد فضّل ألا يدخل بمشاكل! . . و أردني واحد ما راد يعرّض نفسه لإهانة! . . و فلسطينيين إثنين گالو نروح نبيع خضار أفضل! . . و هيچي . . تلامذة هذا الصف صارو مشكلة تسبب صداع مزمن لإدارة المدرسة! . . بس إنت تعرف هذوله التلامذة الزعران بالنسبة للمدرسة الأهلية زبائن!
- حقا؟
- حقا . . و لعلمك . . المدرسة و التلامذة الزعران على حد سواء . . بحاجة لمعلم من طراز اللي تعامل وياهم اليوم . . وين تسكن؟
- صويفية . . مقابل السي تاون.
- همم . . صويفية غالية!
- يعني! . . سكني شوية رخيص! . . غرفة فوق السطوح و بيهه تسهيلات.
- شتشرب؟
- لا . . شكرا . . أجله لمرة قادمة لو سمحت.
- إذن . . شراح أقدم بدل المشروب عربون تعارف؟ . . تدخن؟
- لا . . قطعا!
- تحب الغناء؟
- جدا جدا!
- أذن أغنيلك . . شنو رأيك؟

و منذ الوهلة الأولى يحب حمدان في النقشبندي عفويته و تلقائيته، و سيكتشف صدقه أيضا بعد حين، فراقت لحمدان فكرة أن يغني له عربون تعارف . . فأستفسر:

- شتغني؟

تقريبا لأغلب الكبار . . فيروز . . فريد . . عبد الوهاب . . عبد الحليم . . و غيرهم!

- راح أعتمد على ذوقك!

و راحت أوتار العود تسبق صوت النقشبندي في أغنية . . قالت لي بكرة . . لفريد الأطرش . . و سرعان ما سيندمج حمدان مع ترانيم

النقشـبندي و يـروح يغنـي مـع النقشـبندي . . و فـي المقطـع الأخيـر لـم يستطع حمدان أن يمسك نفسه عن الغناء:

- . . طلعت يا فجر بدري . . لو كنت تستنه فجري . . لو كنت تستنه شويه . . أعرفك بيهه . . تشوف الفجر على أصلو بخدودهه و عنيهه . .

صوت النقشبندي ليس قويا، و لكنه جميل و سلس، و هو ينتقل الى أغنية لفيروز . . و عند إنتهاء الأغنية يسمع حمدان من ورائه تصفيقا فينهض فدوى راجعة و يسألها:

- من أي وقت إنت واقفة هوني؟
- مش مهم يا سيدي! . . من بوسو بخدو و طوّلي عليه! . . و كمان كنت مستمتعة بغناء النقشبندي!

و يتوجّه الى النقشبندي بنظرة عتاب . . فيعلق الأخير:

- يا سيدي لك أن تعلم . . مس فدوى هي جوهرة المكان! . . و هي هيك على طول . . عندها أصول . . ما تقاطع و تنتظر!

فردت هي على مجاملته:

- هايده من زوقك أستاز نقشبندي!

ثم توجهت الى حمدان، و أضافت:

- مبروك! . . حصلت على الوظيفة للتو.
- شكرا . . من أي تاريخ المباشرة؟
- من بكرة . . تقدر هلق تروح لأبو فادي . . من شان تحكو بالمصاري.

شكرها و ذهبت . . و هنّأه النقشبندي مصافحا بقوة . . قائلا:

- إذن آني حزرت صحيح! . . هسه صار عليك لازم تسكن في مرج الحمام.
- نشوف!

و ينفرج وجه النقشبندي لتشيع إبتسامته نحو عينيه و نظراته تتيهه بشغف نحو الباب مبتسما . . و قال:

- شوف يا سيدي . . جاء الصباح الطلق ضاحكا!

لم يستطع النقشبندي مداراة الوجد في عبارته . . فيستدير حمدان ليستطلع القادم . . و يضيف النقشبندي:

- بربك قل لي . . ألا تشبه الصبح المنير؟

المـرأة الشـابة تقتـرب منهمـا و يحـار حمـدان بـالجواب فيعلـق بعبـارة مفتوحة:

- Beauty is in the eye of the beholder!

و فتح الإثنان عيونهما إستفسارا للمعنى . . ففسر متخابثا:

- الجمال في عين الناظر!

و كأنهـا فهمـت تلمـيح حمـدان، فوضـعت يـدها علـى صـدرها مغمضـةً عينيهـا و محنيـا رأسـها تعبيـرا عـن إمتنانهـا لحمـدان . . و صـرخ النقشبندي:

- آه! . . هذي ضربة معلم أخرى منك . . أستاذ حمدان!

و كي يعرفهما على بعض . . أضاف:

- هيـدي مـس صـباح مدرسـة الإجتماعيـات . . و هيـدا يـا سـتي أستاز حمدان الجربة معلم إنـگليزية جديد هوني!

يشـكر حمـدان النقشـبندي ملقيـا نظـرة أخيـرة علـى الزميلـة صـباح التـي ذكرتـه بشـرتها الحليبيـة و عيناهـا الخضـراوتين ببثينـة الصـفار فإعتصـره قلبـه. و إسـتأذن منهمـا و مضـى. و سـيعلم حمـدان فيمـا بعـد بعلاقـة عاطفية تربط المدرِّسة الفلسطينية صباح بالنقشبندي.

إسـتقبله المـدير فـي مكتبـه مهنئـا حصـوله علـى الوظيفـة، و أخبـره بـأنهم سـيزودونه بكتـب رسـمية الـى جهـات معينـة عليـه مراجعتهـا لإستحصـال موافقـات أمنيـة و غيرهـا علـى تعيينـه . . و بخصـوص الراتـب سـأله المدير:

- ميتين و خمسين ليرة شهريا كويسة؟

حمـدان مـا يـزال جـاهلا بسلم الرواتـب فـي عمـان، و حـين قلـّب المبلـغ فـي رأسـه وجـده يسـاوي أكثـر مـن ثلاثمائـة دولار. و حسـبه ثانيـة . . المبلـغ يسـاوي ثـروة طائلـة مقارنـة بدخلـه فـي بلـده، عـدا أن العمـل فـي مدرسـة عنده سيكون أفضـل مائـة مـرة من العمـل فـي ورشـة نجـارة كـل شـئ فيهـا يعلـن عـن منظمـة حمـاس . . العقيـدة و العمـل و الأخـلاق و العلاقـات . . و بجـزء مـن الثانيـة قـدر بـأن المبلـغ سـيكفيه هـو و لميـاء ليعيشا عيشة رضية هنا . . فرد:

- هلق أستاز أبو فادي . . خلينا نقول كويسه!

فشكره و إستأذن لينصرف . . قال له المدير:

- بالمناسبة . . هيدا الطالب اللي طردتو من الصف . . إزا إجاك بكرة إقبلو مؤقتا . . إحنا إتصلنا بوالدو و هو جاي بكرة من شان نحل هالمسألة. . بس و حياتك أستاز حمدان . . خفّ عليهم شويه . . بالراحة على الولاد . . هدول زبايني! أقصد مو هيك على طول!
- وْ الله أستاز أبو فادي . . بحسب الموقف!
- يعني . . مع زالك . . خفّ شويه عليهم . . من شان نقدر نزيت الماكنة!

و يغادر حمدان . . و لكنه و بعد توقيعه العقد مع المدرسة، سيكتشف نوع الغبن الذي عرَّضوه له في الراتب، لدرجة إن رواتب بعض المدرسين معه تصل الى الضعف، و سيسقط في يده حين يعاتب المدير على هذا بعد مدة و سيرد المدير عليه مبررا:

- يا أستاز الجربة . . أنا مو سألتك عن المبلغ . . كويس؟ . . و إنت رديت قلت . . كويس . . و مضينا العقد!

***** ***** *****

الجو أقل برودة من اليوم السابق بفعل النهار المشمس . . يغادر المدرسة، و يرى أنه طالما أن عمله سيكون كله في مرج الحمام، سيعزم على القيام بجولة في المنطقة ليتعرف على ما فيها. و لقناعته بنعمة المشي، برأيه مثلما فعل الرحالة الكبار عبر القرون، و لإيمانه بأن ركوب السيارة لا يحقق الغرض المطلوب، راح يمشي على مهل، متوقفا هنا أو هناك لمدة نصف دقيقة أو أقل. و بعد جولة دامت ساعة تقريبا، و لإفتقار المنطقة التي جال فيها لمطعم كبير، وجد مطعما صغيرا، سيتناول طعامه فيه هذا اليوم . . و سيقول له صاحب المطعم بعد حين بأن المنطقة بنيت و ما تزال تبنى في غالبها من أموال التعويضات التي يتسلمها الفلسطينيون الفارون من الكويت بعد الحماقة التي إقترفها الأهوج صدام فيها و هزيمته المنكرة في حرب سماها . أم المعارك . . إجتذبه فضوله نحو المكان و هو يقرأ يافطته . . مطعم أم المعارك للفلافل و المقالي و الحمص . . بعض طاولات المطعم منتشرة على الرصيف العريض. وجد المطعم خاليا إلا من صاحب المطعم . . رجل ضئيل البنية رحب به و خيَّره:

- أستاز راح تقعد برا . . لو تتكرم تقعد جوا عندي؟

فضـّل الجلـُوس خارجـا واضـعا حقيبتِـه علـى أحـد الكراسـي عنـد طاولـة علـى الرصـيف . . تبعـه الرجـل و فـي يـده قنينـة مـاء صـغيرة و ضـعها أمامه . . سائلا:

- يعطيك العافية . . سيِدي.
- و يعافيك . . معلم؟
- أبو عدي . . شو بدك تاكل . . سيِدي؟
- خلينة نجرب الفلافل و المـگـالي!
- تقصد الإتنين؟

و سيفهم مـن كـلام الرجـل أن كـل منهمـا، الفلافـل و المقـالي، تعـد وجبـة مستقلة، و لأنه يحس جوعا شديدا . . سيرد:

- جيب الإتنين . . لو سمحت!

و سـيعلم فيمـا بعـد أن مـن يطلـب الـوجبتين لا بـد أن يكـون زبونـا لـه إعتبـار . . و يـأتي الرجـل بوجبـة أعـدها مسـاعده. وضـع صـحون الطعـام أمامـه و معهـا الخبـز. تفـحّصها حمـدان، أربـع حبـات فلافـل فـي صـحن و أربـع قطـع صـغيرة باذنجـان مقلـي و مثلهـا بطاطـة مقليـة فـي صـحن آخـر و معهمـا صـحني سـلطة لـيس فـي أي منهمـا أكثـر مـن شـريحتي خيـار صـغيرتين و مثلهمـا مـن البنـدورا . . الوجبـة التـي هـي وجبتـين شـحيحة جـدا . . و سـيعتاد حمـدان علـى هـذه الشـحة عنـد الأردنيـين عمومـا لا فـي المطـاعم فحسـب بـل فـي المحـلات و كـل شـئ تقريبـا . . الأردنيـون نفوسـهم شـحيحة حتـى فـي البسـمة التـي يسـتقبل بهـا صـاحب المحل زبونه و تعد من آداب البيع و الشراء في كل أنحاء العالم.
شـرع حمـدان يتنـاول طعامـه علـى مهـل، و سـرعان مـا جـاءه الرجـل بصـحن سـلطة إضـافي وضـعه علـى الطاولـة . . حركـة أريحيـة نـادرة لا يفعلهـا صـاحب مطعـم فـي عمـان. و لكـي يسـتجلي الأمـر، راح حمـدان يتطلـع إلـى صـاحب المطعـم يجلـس قبالتـه . . أريحيـة مـن أردنـي لا بـد أن يكـون لهـا ثمـن! . . و يصـح ظنـه. كـل الـدلائل تشـير الـى أن الرجـل يريـد التحـدث، و بنفسـه شـئ يريـد أن يفضـي بـه أو يسـأل عنـه! . . و يـَصدُق ظنه حين شرع الرجل:

- لا مؤاخزة سيدي . . أنا أشوفك هون لأول مرة!

لم يعتد على الحديث أثناء تناوله الطعام . .عادة تعلمها من والده. و مع ذلك لم يجد ضيرا بالإستماع الى الرجل علـّه يتعرف من الرجل على المنطقة . . فرد:

- مزبوط معلم . . تمام! . . أنا هون لأول مرة.
- حضرتك دكتور؟

غالبا ما يظنونه الناس طبيبا! . . لـِمَ؟ . . لا يدري! . . و هو لا يحب هذا، فسأل:

- إزا تقصد طبيب . . لا!
- بس شو؟
- مدرس . . أستاز كلية.
- ما إختلفنا! . . و كمان راح تظل دكتور . . وين؟
- هون في المدارس العالمية.
- مدارس راقية! . . و حضرتك لبناني؟
- لا! . . عراقي.

فصرخ الرجل:

- يا الله! . . . لهجتك تضرب على لبناني!
- الفضل للسيدة فيروز و الشحرورة و وديع الصافي!

يضحك الرجل معلقا:

- أهلين دكتور . . على الراس.
- شكرا معلم.
- صارلك كتير هوني . . أقصد بعمان؟
- لا.
- إزا إنت عراقي . . أنا عندي سؤال لو سمحت . . أقول لو سمحت! . . تجاوبني عليه بصراحة.
- يا معلم . . الصراحة تتوقف على نوع السؤال!
- حضرتك نبيه!
- و مع زلك تفضل إسأل!
- هوه صحيح . . بموضوع الكويت كان فيه إتفاق بين صدام و الأمريكيين.

آه! . . ها نحن نأتي الى المنطقة الحرام حيث يجري لوك الكلام لوكا و تتيه النوايا بين حسن النية و سوء النية! . . فاجأه الرجل بالسؤال،

بل و ربما ستنسد نفسه عن الإستمرار في تناول وجبته، فتوقف عن الأكل. و راح يتملى الرجل المنتظر منه جوابا على سؤال حوّل عقول العراقيين، و ربما عقول الشرقأوسطيين عموما، الى زبالة خلال السنوات العشر الماضية . . شرب من قنينة الماء كي يسلّك ما غص به و ما تأخر من طعام في مريئه بسبب سماعه للسؤال. و فكر على مهل بماذا يجيب . . ما الذي يمنعه من قول رأيه صراحة و قد صار محرًّما عليه دخول بلده؟ . . فرد:

- إسمع يا معلم! . . من كنيتك أبو عدي و من إسم المطعم أقدر أعرف أنت شو بالزبط.
- صحيح!
- و كمان . . مو بعيد أن يكون إسم إبنك التاني قصي!
- يا رب! . . و الله تمام!
- ظني يا معلم في مكانو! . . يا معلم . . حضرتك أردني لو فلسطيني؟
- الإتنين . . أنا فلسطيني و زوجتي أردنية! . . و أولادي مختلط!
- كلكم هوني بدكم تسمعو حكي يبرئ صدام من الحماقات . . لا! . . ما راح تسمع مني كلام يبرئ الفوهرر صدام من كل الجرائم اللي عملها معانا . . شو الفرق؟ . . إزا كان فيه أو ما كان فيه إتفاق بينو و بين الأمريكيين! . . هايدي سياسة . . إنت بدك تسمع القصة كاملة . . مو هيك؟
- يعطيك العافية!
- إسمع يا معلم . . ما في حدا في العالم ما بيعرف إن اللي هيأ واحد أزعر من نوع صدام و جابو للسلطة عام ١٩٦٨ كان قطار أمريكي . . و بعدين أن يكون إختلف معهم أو ما إختلف؟ . . هم قلبو عليه أو هو اللي قلب عليهم! . . هايدا مش مهم! . . لأن هو ما كان أكتر من صايع أزعر . . و جابوه و عملو منو فوهرر . . و بديّاك تتصور كيف هو الحال لما أزعر يصير فوهررا! . . يظهر همَّ كل الفوهررات كانو بالأصل زعران . . سيرة صدام سدت نفسي! . . قديش ثمن هايدي الوجبة اللي ما راح أقدر أكملها؟

- ما معقول أستاز! . . أنا متأسف!
- هايده هو الواقع . . و بالمناسبة يا معلم . . لا مؤاخزة . . هو إنت من الناس اللي بيتلقو رواتب من صدام؟
- حرام . . دكتور و الله حرام! . . أنا مُش بعثي! . . هون البعثيين لحالهم همَّ بس اللي يستلمو رواتب من صدام . . و هون قريب منا . . فيه إتنين بحسب علمي تجيهم رواتب . . هناك كمان شويه فوق . . فيه واحد يبيع موبايلات . . و فيه واحد شويه قريب منو يبيع كنادر مستعملة . . و أنا مو منهم أستاز . . لا و الله!

بدى الرجل لحمدان مهادناء فقال:

- هيك! . . وين الضمير يا معلم؟ . . أنا العراقي يعطيني أقل من نصف دولار بالشهر . . . ما يسد ثمن هاي الوجبة اللي آكلتها هلق عندك! . . و للبعثيين اللي هوني ما يزال يبعث لأي واحد منهم ألف دولار بالشهر! . . شو رأيك يا معلم بحاكم من هالنوع؟ . . يا معلم ما تجون تشحتونه الملك تبعكم . . و إحنا نشحتكم صدام هو و البترول!

بهت الرجل للإقتراح . . فواصل حمدان:

- . . و مع ذلك . . بخصوص موضوع الكويت . . إزا بدك تجي للواقع . . هو كان فيه بأيديناتو دائما ورقة . . الجيش العراقي القوي . . جيش كان العالم كلو خايف منو . . جيش يشبه ورقة الجوكر . . مخلي الكويتيين و الإيرانيين السعوديين و غيرهم . . لا مؤاخزة . . يبولو و يخرأو على نفسهم من الخوف! . . و يروح هذا الفوهرر الأزعر هيك . . و يحرق هايدي الورقة الجوكر بشوية صبيان . . آمنوا بربهم و إزدادوا بصدام هدى! . . شو برأيك اللي حصل؟ . . واضح إن الأمريكان إستدرجوه . . بعد الحرب العراقية الإيرانية دورو إنتهى . . هم و الروس و غيرهم باعوا كل السلاح الباير تبعهم . . ورقتو تحرقت . . و كان بدهم مش بس يخلصو منو . . كان بدهم يخلصو كمان من البلد و أهل البلد . . و راح هو و غزا الكويت . . و يا ريتك يا صدام ماغزيت! . . و هيك حرق

الجيش . . و حلت الكارثة! .. وجود الجيش لا يعني إنك لازم تحارب!

سكت حمدان . . لم يعلق الرجل و ظل هو الآخر ساكتا، و كأنه يعلم بأن هناك بقية من كلام، و راح يراقب حمدان الذي غيَّر رأيه و قرر مواصلة تناول وجبته . . يضع لقمة في فمه و ينتهي من مضغها . . و يستطرد:

- . . . و هيدي كانت النتيجة . . خرّب صدام البلد و قعد على تلتهه . . مثل ما يقول الصعايدة المصريين . . تبديد للمال و فساد في الأخلاق و خراب للعقول في بلد إحتمال ما ينصلح حالو الى الأبدا! . . مئات آلاف الأرامل . . مئات الآف المعوقين . . تشريد للعلماء . . و حطة لأشراف الناس . . ضياع كامل لمستقبل شعب بأكملو . . و ما فيه حدا بيسأل أو يلتفت الى الكارثة اللي حلت . . و إنتو لهلق مشغولين . . بدكم تعرفو إذا كان فيه إتفاق لو ما كان فيه إتفاق بينو و بين الأمريكان . . أو بينو و بين الشيطان! . . عجيب!
- و الله صحيح يا سيدي! . . و لكن ما حدا من قبل نورنا بالوضع . . مثل ما حضرتك سويت هلق . . بالمناسبة . . أنا بدي أكشفلك سر كبير إحتمال إنتو العراقيين ما بتعرفوه!
- يعطيك العافية . . شو هو؟
- حضرتك تعرف منين بتيجي مصاري هايدا العمران في منطقة مرج الحمام؟
- يعطيك العافية يا معلم . . نورني كمان و كمان!
- هايدي المنطقة أهلها أغلبهم من الفلسطينيين اللي كانو في الكويت و تركوها بسبب الغزو . .
- أيوه!
- إستلمو تعويضات من الأمم المتحدة يدفعها العراق . .إستلم كل واحد منهم مش أقل من ربع مليون دولار . . هاي المباني و العمارات اللي تشوفها بمرج الحمام كلها من هاي المصاري!
- يا سلام! . .

و يتذكر الشتيمة التي إستعملها محمود الحسيني و أضاف:

- معلم . . مش بس يا سلام! . . و كمان . . كس أختو لصدام! .
. و كس إختو كل واحد إنتفع من صدام!

و بسبب نقمته و سخطه على صدام و على الكويتيين و على الأمريكيين و على الإيرانيين شركاء السيناريو و على كل من وهبه صدام ما لا يملك و هو لا يستحق و على كل من إستفاد من حماقات صدام ظل حمدان يردد:

- . . . يا سلام يا معلم! . . . يا سلام! . . . يا سلام! . . و كس أختو لكل عربي أو غير عربي إستفاد من صدام على حسابنا!

فقاطعه الرجل . . كي يفصح عما في نفسه:

- مو بس هيك يا سيدي . . لعلمك . . دول أصحاب العمارات اللي تشوفها كلهم من فلسطينيي الكويت . . و تشوفهم كمان بيتحكمو برقاب الناس هوني و يطلبو الشئ الفلاني من يجي واحد بدو يستأجر منهم محل أو شقة!

توقف حمدان عن الطعام . . و يعلق:

- بزازين!
- شو هاي البزازين؟
- البزون هي اللي تسموها هوني بَسه.
- رباط الحكي وين يا سيدي؟
- عدنه مثل في العراق بيقول . . رزق البزازين على المعثرات!

فعلق الرجل:

- همم . . هلق فهمت!
- العالم كلو تحول الى بزازين تترزق على عثرات الفوهرر العراقي . . أردنيين . . فلسطينيين . . سوريين . . مصريين . . أماراتيين . . إيرانيين . . كويتيين . . سعوديين . . أتراك . . أوروبيين . . أمريكيين . . صينيين . . و كمان الروس . . اليابانيين . . البرازيليين . . هايدا عدا كل من تقيأتهم الأرض من الأفارقة و الأساوسة و الأبالسة و الشياطين و القديسين و حجج الأسلام و آيات الله و آيات الشيطان من السماسرة و اللوطيين و القوادين و العاهرات . . و معاهم أبو مطوة و أبو زلومة اللي زكرهم عادل إمام بمسرحية شاهد ماشافش حاگة!

. . وُ فوقهم كل حشرات الأرض . . كلو يترزق على حساب حق العراقيين بعيش كريم!
الرجل ما يزال ساكتا . . ما أراده حمدان هو إفراغ قرفه على طريقة محمود الحسيني تلميذه . . الأدبسزية مثل محمود الحسيني همين بيهم فوائد! . . يعلمونه شلون نفرّغ سخطنا حتى لا يتحول الى سم بالبطون! . . مع إن الفوائد اللي يعلمونياهه تشبه التفال على السما! . .
أراد أن يقول لأبي عدي . . الكل كس أختو! . . فأحجم عن ذلك و نهض دافعا ثمن وجبته للرجل و غادر . . ظل واقفا أمام المطعم بإنتظار الباص و الرجل واقف وراءه على الرصيف يتطلع إليه. جاءه الباص و ركب . . و توقع صاحب المطعم أن حمدان قد لا يأتي مرة اخرى لتناول طعامه عنده، لكن حمدان سيفاجئ أبا عدي و يجعل من مطعمه محطته طيلة أيام أربعة في الأسبوع تقريبا . . الأحد و الإثنين و الثلاثاء و الأربعاء . . و لن يغير مكان تناوله وجبته لغاية أن تلتحق به لمياء في عمان . . يخرج من المدرسة في حوالي الثانية أو بعدها بقليل و يستريح في مطعم أبو عدي حتى الساعة الثالثة و النصف يتناول أثناءها وجبة الغداء و يغادره الى بيت الحسيني حيث يقضي ساعتين، ثم يعود الى مسكنه في حوالي السادسة مساء . . و قرر أبو عدي الحفاظ على زبونه بألا يتحدث إليه مرة أخرى بحديث الفوهرر المهزوم!
ذاك المساء . . في بيت الحسيني تلقى حمدان مكالمة من محمد الفنان يسأله أسيجده في البيت بعد الثامنة فأجابه بنعم.

* * * * *   * * * * *

جاءه محمد في حوالي التاسعة مصطحبا شابين من بعقوبة عرفهما حمدان . . و يفتح محمد الكيس الذي معه ليخرج منه قناني بيرة و مكسرات وضعها جميعا على الطاولة. و سرعان ما ابتدأت حفلة الشراب . . كان بـأمس الحاجة للشراب. بعد شربه قنينة بيرة، أحس بإرتخاء لذيذ. و سرعان ما تكشفت الغاية من زيارة ضيوفه و هي التوسط عند شفيق النبلاني لتشغيلهم، فوعده حمدان بالمحاولة و ينجح بذلك و سيذهبان ليعملا في مزرعة زيتون و دواجن عند الحدود السورية تعود للنبلاني و الحسيني. بعد مغادرة ضيوفه، و ما يزال بنشوة قنينة البيرة الثانية، تفيقه من سرحانه نغمة الموبايل، فيرفعه

ليرد، و يجيئه صوت ناصر الحسيني من الطرف الآخر ليخبره أنهم بحاجة إليه مترجما يومي الإثنين و الثلاثاء القادمين في المزرعة . . فيرد:

- صار . . و راح أكون بإنتظار السيارة في باب العمارة ساعة ثمانية صباحا.
- . . . .
- و ماكو مانع أيضا ألبي طلبك . . أروح الأحد مساء للمطار ويه طه لإستقبال الخبير الهولندي!

صوت أم كلثوم يصدح بأغنية حانة الأقدار . . و راح يستمع، و عند . . هذه الأزهار كيف تسقيها . . و ساقيها بها مخمور . . كيف يا صاحي! . . بنفسه من زمان أن يغني أحد عند موته أغنية حانة الأقدار على جسده المسجي قبل أن يوارونه التراب بدل خزعبلات يسمعهم يرددونها على جسد الميت . . و لأنه إكتشف أن لمياء عصية دمع، قال لها مرة:

- أشوفج عصية دمع! . . إنتِ ما تبچين؟ . . إعترفلج آني شخص بچاي أبو دميعة . . و إذا إنت هيچي ما تبچين توعديني تنشدين أغنية حانة الأقدار على جسدي المسجي لما أموت؟ . . و تذرين رمادها بالشاخة!

و رفضت ذلك أيضا محتجة:

- إذا أسوّيها غير يحرگوني وياك . . و يعتبرونا إثنيناتنه كفار!

*****　　　　*****

الأحد عند الغروب . . وقف حمدان في باب العمارة بإنتظار المهندس طه، أصغر أخوة ناصر الحسيني، متخرج هو الآخر في جامعة بغداد. إنطلقت بهما السيارة نحو مطار الملكة عالية خارج عمان. و يضع طه كاسيتا لمرتل للقرآن ذي صوت منفر يضيّق حنجرته بنغمة معينة في مواضع أصوات معينة، كي يزيد من رهبة آيات التهديد و الوعيد، فيخرج صوته كأنه ماكنة إنحشر فيها شئ ما . . أو لربما يحس سامعه إن ضرطة حصرت المقرئ و أضطر لتضييق صوته! . . و طه، الذي تعرف عليه حمدان في بيت أخيه ناصر، لا يكف عن البسملة و الحوقلة و الإستغفار في كل ثانية و كأنه هذيان يخرج من

آلة صدئة. و بصلعته الخفيفة و عينيه الجاحظتين بدى لحمدان رجلا أكبر من عمره الحقيقي بكثير، و ذكّره بالصورة العالقة في ذهنه عن بروفروك بطل الشاعر اليوت في إحدى قصائده[12] . . الرأس و الشكل الضفدعي . . و كم تمنى في نفسه لو يسمع محمود الحسيني يقول عن عمه حين يسمعه يحوقل و يستغفر . . كس أختو! . . فابتسم حمدان بمزيج من مرارة و سخريّة و سخط . . و هو على حاله فاجأه طه ملتفتا و سائلاً:

- رحت للحج؟
- لا!
- للعمرة؟
- لا!
- و لا مرة!
- و لا مرة!

مطيلا نظرات إستنكار نحو حمدان، عاد طه الى حوقلاته و إستغفاراته يرددها بنبرة جهادية واضحة . . و حمدان يفسر فورا ما في نظرات طه من سماجة سافرة و تأنيب و إستنكار و إحتجاج و إستغراب معلن، و لربما إنطوت نظراته أيضا على تهديد و وعيد مبطن من إله طه لأن رجلا بعمر حمدان لم يكن لحد الآن قد حج أو إعتمر و لو مرة واحدة في حياته . . هذا لا يغتفر! . . و كرة أخرى من إستغفار و حوقلة و بين البسملات و الحوقلات تمر جملا تبدأ بـ . . قال الله تعالى . . أو . . قال رسول الله . . و ما الى ذلك من كلام بمجمله تهديد مبطنٍ من إله منتقم و جبار . . و تذكر مقولة الفيلسوف الروسي الوجودي نيقولا بريائيف من أنه لا يستطيع أن يتصور إلها بهذا الوحشية يتحرق شوقا لإحراق البشر شيئاً في عالم آخر في مكان ما في السماء بعد أن يريهم من العذاب و الضنى ألوانا يلاقونها على الأرض! . . و تطلع إليه حمدان متخيلا الملاك الذي يشاع عنه جالسا دائما على كتف أيمن الكائن الحي يسجل حسناته و قد رمى السجل و المداد يتأفف تعبا من تسجيل بسملات و حوقلات و إستغفارات و قولات يتفوه بها طه . . و يبتسم حمدان بمرارة و ينفر من طه نفورا

---

[12] القصيدة المعنية هي "أغنية حب لـ ج. ألفرد بروفروك"

شديدا بخاصة حين رأى المسبحة تتدلى من يده و هو يسوق! . . و ما زاد من نفوره درجتين هو وجوده في سيارة واحدة مع كائن من قعر الزمان من شاكلة طه . . بل و أنه كان على وشك أن يتصل بأخيه ناصر ليعتذر له عن القيام بمهمة المترجم و يطلب من طه أن يعود به من حيث أتى، إلا أنه تذكر ما وعد به نفسه يوم تعرّف على أولاد الحسيني الصغار . . اللعب على طريقتهم! . . إنسَ كل القواعد التي تعلمتها! . . اللعبَ دون قواعد! . . فوطن نفسه و إبتسم بوجه طه، و لكن هذه المرة بسخرية واضحة و تحدٍ. و ظل طه على طول الطريق يستغفر و يحوقل. و كي يتحرر من الموقف، أغمض حمدان عينيه متناوما، غير أن هذا لم يمنعه من الإحساس بالرجل، يتلفت إليه بين حين و آخر، بطلعته البروفروكية و بنظرات متوعدة.
السيارة تقترب من باب المطار، و يفتح حمدان عينيه و يقع بصره مرة أخرى على أعلان رآه من قبل لأحدى شركات الموبايل، رآه يوم عاد من ليبيا تؤمل فيه زبائنها الإتصال بالنجوم، فراوده شعور غريب و تذكر ما قرأه مؤخرا في علم الفلك من أن خارج كوننا هذا توجد أكوان أخرى نظيرة لكوننا بها كواكب مثل كوكبنا و عليها بشر مثل بشرنا، مع فارق هو أن مسار الأحداث و نسق حيوات الكائنات هناك قد يكون إتخذ وجهة أخرى . . بمعنى أن هتلر قد يكون إنتصر على أعدائه و حول الأمم كلها الى عبيد يخدمون الرِّس الجرماني بموجب تصنيفه للأجناس . . أو أن يكون مسلمة الحنفي قد إنتصر على جيوش أبي بكر و سار التاريخ هناك سيرة غير التي نراها الآن و بأسماء قديسين غير الذين نسمع بهم . . أو قد يكون المسيح قد أفلت من الرومان و شكل فصائل حرب عصابات و أسقط الأمبراطورية الرومانية متخليا عن مبدأ . . أدر خدك الآخر لتتلقى عليه صفعة أقوى، و بذا قد لا يكون للصليب وجود هذه الأيام بالرموز التي يُشيعها! . . أو أن الفوهرر العراقي قد يكون إنتصر في معركته أم المعارك و إنقلب واضعي العقال على رؤوسهم في الجزيرة كلهم الى بعثيين . . أو أن تكون كومونة باريس قد إنتصرت و تحول تاريخ أوروبا الى شئ آخر! . . أو أن يكون الهنود الحمر قد نجحوا برد كل البيض الحالمين بالعالم الجديد و قد إستعدو لغزو أوروبا! . . أو أن تكون البلشفية قد إكتسحت الرأسمالية عن بكرة أبيها في عهد لينين

لتقطع الطريق على ستالين الرهيب و جرائمه! . . أو قد تكون تلك الأكوان أصلا دون شيوعية أو رأسمالية أو أديان على الإطلاق! . . لا سادة! . . و لا مُقَدَّسي السر! . . و لا آيات! . . و لا شيوخ يتوعدون و يدالسون! . . أو أن تكون الكائنات قد إتخذت وجهة بايولوجية أخرى تتشكل هيئاتها بمربعات و مثلثات و ليس بدوائر . .
و لم ينقطع سيل هذا التيار الكوزمولوجي في ذهن حمدان إلا بتوقف السيارة في باب بهو المطار . . أول شئ تبادر الى ذهنه بصدد تلك الأكوان هو أن تكون خالية من كائنات على شاكلة طه الحسيني . . و ترك هذا الخاطر على وجهه إبتسامة خفيفة واضحة مريحة. و نزل من السيارة والإبتسامة العفوية ما تزال تخايل محياه . . فقال له طه بلهجة إستفزازية:

- فرحان؟

وافق حمدان بإيماءة مضيفا:

- أممم! . . يا طاء هاء . . بالله عليك أيمنع دينك الإبتسام؟
- لا حول و لا قوة إلا بالله . . أستغفر الله . . لكن الله لا يحب الفرحين!

و ها هو حمدان يطلق ضحكة و تعليقا عفويا بدا مفحما:

- يا أستاذ طَـه . . لا يحبهم الله حتى لو كانو فرحين بالله أو لأنهم يفكرون بحب الله فيبتسمون؟
- . . !
- إنتو مو تـگـولون أن الناس بالجنة راح يكون شغلهم الشاغل فقط التطلع الى طلعة الله . . فرحين بوجودهم قربه و يهتفون . . حمدك اللهم! . . و تباركت اللهم! . . سبحانك اللهم! . . و هو ينظر إليهم مبتسما فرحا بهم . . و آنسي هنا مثل ما تشوف فرحان لأن الله جاء على بالي!

و من غيضه أزوّر طه عن حمدان و كأنه أصيب بمس من تيار كهربائي، و توقف ناظرا بحنق الى حمدان الذي مشى داخلا بهو المطار فتبعه.
يتجول حمدان في المطار قليلا قبل الإعلان عن وصول طائرة من إمستردام، تاركا طه يواجه باب القادمين و بيده لافتة ورقية صغيرة كتب عليها Holman Fredrick . . راح لاشعوريا يسترجع

اللحظات التي قضاها هنا عند قدومه من ليبيا مع بثينة الصفار، فإنضغط قلبه و عقله من جديد بسبب ما جرى في ليبيا . . و رفع بصره مرة أخرى نحو باب ساحة المطار، فرأى رجلا أشقرا طويل قامة شبيه بالفايكنز الذين رآهم في السينما، يستلم الرجل حقيبته و يدخل البهو متلفتا، فحزره حمدان و توجه الى حيث يجلس طه. و يصدق توقعه فيدنو الرجل منهما مبادرا و موجها الكلام لكليهما:

- Salam aleikum, I am Fredreck Holman, how do you do?

و يرد حمدان مصافحا:

- How do you do? Nice to meet you, I am Hamdan Ajjarbah, interpreter, and this is Mr. Taha Al-Hussieni representative of the company.

و يمد طه يده للخبير محييا و هو يقول:

- السلام على من إتبع الهدى!

سماجة طه تطلبت من حمدان الإبتسام للرجل و أشار له نحو باب الخروج، و يسير هو و الخبير يتبعهما طه . . و يوصلان الخبير الى فندق شيراتون بالقرب من الدوار الخامس . . و يعود حمدان الى شقته.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

صباح الإثنين سيتفاجأ حمدان بمساحة المزرعة الكبيرة جدا . . مائتا دونم في البادية القريبة من الحدود السورية. عند الباب الرئيس صعد معهم المسؤول الإداري، أبا فواز من فلسطينيي العراق، ليدلهم على حقول الدواجن. تعرف حمدان على أبي فواز عند ناصر الحسيني. السيارة تسير بهم على مهل في طريق ترابي يشق المزرعة الى قسمين. على يمين السيارة سمقت أشجار مزرعة الزيتون كثيفة فحجبت عنهم رؤية الشمس. و ينتبه أبو فواز لحمدان يتطلع منبهرا بمزرعة الزيتون، فيعلق قائلا و كأنها مزرعته الشخصية:

- أستاز حمدان . . عدنه هوني خمسة آلاف شجرة زيتون!

و يطلق حمدان ما يشبه الصفير:

- واووووو! . . رائع!

و تقطع السيارة المسافة أمام مزرعة الزيتون و الشمس تشق طريقها عاليا في سماء راحت غيومها تتجمع رويدا، فتحجب أحيانا قرص الشمس المرتفع من الشرق نحو عنان السماء . . توقفت السيارة أمام بناية صغيرة هي مكتب إدارة المزرعة، و منها نحو الشمال تنتشر حقولُ دواجنٍ عشرٌ، مبنية حديثا باستشارة من شركة هولندية يعمل فيها فردريك هولمان . . المهندسون و العمال العاملون في المشروع كلهم تقريبا عراقيين، يعملون بأجور قد لا تصل الى نصف الإجور التي يتقاضاها الأردني أو الفلسطيني. و يرحب بهم أحمد الشمري مهندس إنشاءات من العمارة و عادل اللهيبي مهندس كهربائي من بعقوبة و فاضل العبيدي مهندس زراعي من كربلاء . . مفارقة نادرة الحصول في بقع العالم الأخرى . . الدولة العراقية صرفت و مولت و رعت تأهيل هؤلاء بالهندسة و بضمنهم أولاد الحسيني و ها هو الأردن أو أي بلد آخر يستفيد من خبرتهم العلمية و العملية! . . تفريط و إفراط! . . و الفضل يعود للفوهرر المهزوم صدام! . . مصائبُ قوم عند قوم فوائد! . . و يزداد حمدان سخطا على سخط.

و عند الذهاب الى الحقول، سيرى حمدان من بين العمال العراقيين عمالا من مدينته بعقوبة بينهم العاملين اللذين توسط لهم عند شفيق النبلاني . . و بدخولهم أول حقل راح فردريك هولمان يفتح حقيبته و يخرج عدته ليفحص نصب الأجهزة التي ورَّدتها شركته و قام المهندسون العراقيون بنصبها فضلا عن تصويره لكل مرحلة من مراحل الإنشاء على كاميرا موبايل صغيرة ترسل الصور مباشرة الى مقر شركته في إمستردام لغرض التحليل و ترد عليه الشركة بتغذية راجعة لتوضيح الخلل الموجود في تركيب الأجهزة، إن وجد، فيشخص للمهندسين و العمال مواقع الخلل و يشرح لهم طريقة تجاوز الأخطاء، بمساعدة من حمدان يبذل جهدا في الترجمة مقرّبا التوجيهات للعاملين بإبسط لغة . .

اليوم كان شاقا. و عادوا جميعا بعد الساعة الخامسة و قد خيم المساء على عمان.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

يصلون صباح الثلاثاء الى المزرعة . . عند نزلوهم من السيارة السماء ما زالت تتلبد تدريجيا بالغيوم و الريح تشتد برودة، فيحس

حمدان بالقشعريرة و الهواء القارس البرودة يدخل الى جسمه من فتحة القميص عند الرقبة. خشي من أن يكون ذلك أمارة لا تأتي بخير. قدَّرَ أن من واجبه إخبار المدرسة بغيابه ليوم ثانٍ، فأخرج موبايله و طلب رقماً، و سمع فدوى ترد . . و هو يتحدث إليها إجتاحت جسمه نوبة قشعريرة . . فإعتذر عن تغيبه و طلب إليها إخبار الإدارة أن القشعريرة تجتاح جسمه كله، و تمنت له فدوى الشفاء.

هبوط تدريجي في قواه و نحول يواكب ساعات يومه، و لكنه و هو ما يزال في المزرعة تلقى قبل الظهر مكالمة الحسيني الكبير يطلب منه الذهاب مع طه الى دعوة العشاء التي سيقيمونها للخبير الهولندي إتماما لواجب الضيافة في مطعم فاخر على تلة عالية مطلة على طريق المطار بالقرب من مرج الحمام. و على الرغم من إحساسه بتدهور قواه بمرور الوقت، لم يستطع الإعتذار عن الحضور لشعوره بواجب إتمام ما كُلِّفَ به . . رجع الى البيت و أراد أن يأخذ قيلولة فلم يستطع.

الساعة السابعة . . نزل من الشقة، و بإنتظار طه جلس أمام العمارة على دكة حوض عالٍ نسبيا مزروعٍ زهرا شتويا . . و أثناء جلوسه لمح على يمينه خيال سيدة تنزل من العمارة مسرعة. و ما أن إقتربت السيدة منه و يداه تستريحان على فخذيه مفتوحتين الى الأعلى، توقفت المرأة أمامه و باغتته بإفراغ ما في راحة يدها في راحة يده . . و بسبب ضعفه لم يستطع أن يستوعب ما جرى و حتى أنه لم يلتفت أصلا لما وضعته في يده من قطع مدورة ذات ملمس معدني، لأنه ظل رافعا رأسه الدائخ من الوهن منشغلا بخيال السيدة ليستطلع من تكون المرأة و ما الذي جرى. و بضوء باب العمارة الخافت خطف نظرة لوجه نحيل نسبيا لإمرأة خمسينية بقسمات دقيقة واضحة في بشرة سمراء و فوق رأسها غطاء لا يكاد يستره من البرد القارس الذي يزداد قرورة بمرور الوقت . . و عاد ليتطلع لما في يده مذهولا . . قطع نقود معدنية . . و من شدة إلتباس الأمر عليه، نهض ليرى ما الحكاية بالضبط! . . و من تكون المرأة! . . لكن الآوان كان قد فات، فسرعان ما وجدت المرأة تاكسيا يمر صدفة و إستقلته. و أفلت الأمر من يده بالكامل تقريبا . . لغز! . . و يفتح يده التي بقيت مضمومة

تتفحص ما فيها . . قطع نقود معدنية . . ربع ليرة . . عشرة قروش . . خمسة قروش . . ربع ليرة . . خمسة قروش . . خمسة أخرى . . عشرة قروش . . عشرة قروش . . خمسة قروش . . عشرة قروش . . المجموع ليرة و خمسة قروش . . و تملكته حيرة أمام اللغز . . ما هذا؟ . . تملكته حيرة و فضول و إستعصى عليه إيجاد تفسير لدرجة أنه لم ينتبه لوقوف سيارة طه أمام باب العمارة على بعد خطوات منه إلا بعد أن زمر له طه بمنبه السيارة، فإلتفت نحو السيارة و هو ما يزال يتحسس قطع النقود براحة كفه، و بان له فردريك هولمان جالسا في المقعد الأمامي يحييه بإشارة من خلف زجاج نافذة السيارة. إقترب من السيارة و لغز المرأة و النقود ما يزال شاغله . . أظنتني هذه المرأة متسولا؟ . . إذا كانت ظنتني متسولا فلم هذه الكثرة في قطع النقد؟ . . لغزا! . . و حين صعد في المقعد الخلفي سأله فردريك:

- Do you feel well?

فأجابه بوهن:

- Actually, I do not feel well. I'm sorry.

ليس بعيدا عن مرج الحمام، صعدت السيارة تلة عالية جدا نحو الفندق في ليلة من أوائل شباط . . نزلوا في باب المطعم، و إذ كانت صحته تزداد إعتلالا، غلبه إحساس شديد ببرودة الجو. دخلوا بهو الفندق و إستقبلهم موظف ليدلهم على قاعة طعام خالية تماما من الرواد. و ترك حمدان لطه إختيار طاولة مدورة ذات أربعة كراسي أمام نافذة تطل على واد عميق مظلم لا يكاد يرى منه شئ. و سرعان ما جاء موظف ليستمع الى طلباتهم و مضى . . إنشغلوا بالحديث عن الطقس، و راح فردريك يتحدث لطه عن الفرق بين جو إمستردام و جو عمان شتاء و حمدان يترجم. و لأن باله ما يزال مشغولا بحل لغز السيدة و القروش التي وضعتها في كفه و تواريها السريع عن ناظريه، إنصرف ذهنه لوهلة عن الوعكة التي تلم به تدريجيا و تتعاظم قوتها . . و يسمع فردريك يقول:

- Today's weather is warmer than yesterday's in Amman.

فتفاجأ حمدان متعجبا و معلقا:

- How come Mr. Holman! I'm almost freezing!

- Yes I know. This is because you told me you don't feel well. As a matter of fact, it's believed that weather becomes a little bit warmer before snow-fall. In the hotel, before coming here, I'v just read on the internet that it will snow in Amman to-night or tomorrow and there may be much of it, and it is for this reason the weather has become a little bit warmer here.

و على الرغم من وعكته و لأنه لم ير في حياته قط ثلجا يسقط صرخ حمدان:

- Wow! Snow? Where? Here in Amman! Wow! Wow! That will be great!
- But, I hope that snow-fall won't hinder me tomorrow catching my plane to Amstridam!
- I hope so!

و خفف حديث الثلج عن حمدان شعوره بوعكته الى حد ما، و ترجم هذه الأخبار لطه. و بذكر فردريك للإنترنيت إستغرب من نفسه ألا يكون له حتى الآن بريد ألكتروني على الرغم من مرور أكثر من شهر عليه في عمان و عزم على تلبية هذه الحاجة. و داهم ذهنه من جديد لغز المرأة و قروشها . . ما الذي تخيلته تلك المرأة بجلستي على تلك الدكة في باب العمارة؟ . . أظنتني فقيرا يستجدي الرائح و الغاديو النازل و الصاعد؟ . . أو ماذا؟ . . و سمع طه يسأله:

- أستاز حمدان . .

طه على عكس أبناء أخيه يريد أن يتقن اللهجة الفلسطينية بالكامل و يبالغ بها . . فيرد حمدان

- أيوه؟
- بدك تدخل الجنة؟

و على قدر ما فاجأه السؤال، إلتفت ليتطلع الى وجه طه الضفدعي يدوِّرُ بمسبحته في الهواء مثل أزعر لا يفقه من اللياقة شيئا . . فرد بسخرية مبطنة:

- طاء هاء . . أي جنة هايدي اللي تحكي عنها؟ . . تقصد جنة الله؟ . . إيدي على كتفك أستاز طاء هاء! . . أيدي على كتفك يا زلمة! . . . إيدي على كتفك يا طهٔ و القرآن المجيد . . إيدي على كتفك يا شيخ المجاهدين! . . . بس قولي كيف؟
- ندخل آني و ياك الجنة بهالزلمة الهولندي القاعد هوني!

و إرتاع حمدان . . فأول ما تبادر الى ذهنه هو الطريقة التي يبغي بها مجاهدين من أمثال طه الدخول الى الجنة . . أقتل كافرا تضمن جنة عرضها السماوات و الأرض مليئة بآلاف الحور الصبايا! . . أيريد طه مني قتل الرجل في وحشة هذا المطعم و رميه في الوادي المظلم المجاور و هو قادر على رشوة من في المطعم؟ . . فقاطعه متسائلا:

- يا زلمة . . بصراحة . . أنا لهلق ما فاهم شو قصدك! . . و كيف ندخل بهالزلمة الجنة؟
- نحكي معو!
- على شو يا زلمة؟
- يصير مسلم!

لم يكن حمدان يتصور أن تصل ضفدعية و زعرنة و صفاقة طه الى هذا الحد من القباحة و الوقاحة و عدم اللياقة . . فرد عليه بما يشبه الصرخة:

- شو! . . كيف يعني يصير مسلم؟

صرخة حمدان أثارت إنتباه الضيف الهولندي، و قد يكون حزر أن شيئا ما يدور بين حمدان و طه، فتطلع إليهما سوية بفضول لا يمكن تجاهله، و يتدارك حمدان الأمر قائلا للهولندي:

- Well, Mr. Holman, in fact, Taha would like to know your opinion about Islam!

طه لا يجهل التحدث بالإنكليزية تماما لأنه خريج هندسة بغداد . . و يتأنى هولمان قليلا قبل الإجابة:

- Er, I think that in Amsterdam, I'm sometimes used to see two men with thick and long beard. They used to appear in short gowns almost to their knees, living in the same building where I live. I saw them

many times kneeling and prostrating in the garden in front of the building. That might be a sort of prayer they said. They kept going so even when it snowed. It was said they are Muslims.

و يمر خاطر بذهن حمدان فور . . حذار يا رجل! . . حذار يا هولندا! . . حذار أيها الهولندي الطائر! . . حذار يا هولندا! . . ها هم الوهابيون يأتونكم من مأمنكم لكي يعلنوا عن أنفسهم و يحولوا داركم فيما بعد الى دار حرب! . . و إنقطعت خاطرة حمدان بإضافة من الهولندي:

- . . . , and they seemed to me peaceful and good people!

فعلق حمدان فورا و بتلقائية:

- يا سلام! . . أهكذا يبدون مسالمين و أخيار؟

يحاول حمدان أن يبدو بلهجته حياديا، و ليفسر ما علّق به أراد أن يضيف . . أولُ الشرِّ خيرٌ و سلام! . . و إلا فلم يا سيد هولمن لا يصلي ذانك الإثنان في شقتهما و ينزلان رغم الثلج ليصليا في الحديقة! . . الصلاة لها خصوصية! . . و لكن نظرات جليسيه المستفسرة نحوه لم تنقطع، فحاول قبل أن يترجم لطه ما قاله هولمن و قد يكون فهم بعضه، وضّح لطه الإلتفاف الذي قام به كي يبقي الهولندي في منأى من السخف الذي تحدث به عن رغبته في أسلمة الهولندي على الرغم من الفضول الذي إرتسم على وجه الهولندي عما دار بينهما بشأنه، ثم أعرب لطه عن رأيه حول قلة لياقة أي إنسان يسأل آخر عن دينه، فكيف و أن طه يريد إغواء أحد ما بترك الدين الذي تربى عليه . . و ترجم لطه ما دار بينه و الهولندي عن الإسلام . . و قطع حديثهما مجئ طلباتهم للعشاء، و سرعان ما عمَّ الصمت لا يُسمع أثنائه في صالة المطعم كلها سوى صوت خافت يصدر من الملاعق و الشوكات تمس الصحون التي أمامهم . . و بعد العشاء أوصلا فردريك هولمان الى الفندق و ودعه حمدان على أمل أن يأخذه طه في الفجر الى المطار ليغادر الى بلده.

* * * * *   * * * * *

الساعة تقترب من العاشرة ليلا . . و على الرغم من الوهن الذي أصابه، طلب من طه أن ينزله من السيارة في الدوار السابع أمام سي-تاون ليذهب من هناك الى سكنه. البرد في طور التمكن منه و يفقده قواه تدريجيا. عبر الشارع باتجاه صويفية و راح من هناك يمشي و يتطلع بين فينة و فينة الى السماء الواعدة بثلج بشّر بمجيئه الهولندي هولمان. و تنتابه فجأة قشعريرة شديدة، و يكاد أن يقع من نوبة إنكماش. و يتمنى إلا تستطيع منه الوعكة تمام التمكن، فتمنعه من الإستمتاع بمهرجان الثلج القادم في عمان. مذ كان صغيرا إعتاد على ألا يبدي إستسلاما للمرض، لإعتقاده دائما أن جيناته القوية هو ما أبقاه حتى اللحظة سليما لا يشكو من علل تداهم عادة الرجال في العقد السادس من العمر . . و على الرغم من مسيره الواهن و أنينه الصامت، يتطلع ما بين اللحظات الى السماء الملبدة بالغيم، فيشيع في نفسه هدوءً و دهشة لم يألفها من قبل . . لا علاقة للهدوء بذاك الصخب السماوي الذي يسبق عادة نزول المطر . . الهدوء يشي بجلال مدهش و مرهب تتسم به الطبيعة حين تعلن عن نفسها . . لا برق و لا رعدا! . . و تذكر عرس السماء النيساني قبل ستة عشر عاما و نهاره المتخوم برقا و رعدا و هطولَ ماء غزير في بستان وائلة الربيعي ترافقه نشوة و عاطفة جامحة حين سبحت أمامه في الحوض ثلاث حوريات . . بثينة و وائلة و كريمة . . و تذكر أيضا صخب السماء أيام كان في المعتقل عام ١٩٦٣، حين كانت السماء تشخُّ عليهم ليلا و هم نيام و الى جانبه رفيقه الشروگي أبي ذر المحمداوي . . و بتأثير الوهن الذي يعانيه من الوعكة التي يعاند في قهرها، إستسلم ذهنه فجأة لبيت شعر مشهور بلآته! . . لا أهل . . و لا وطن . . و لا نديم . . و لا كأس . . و لا سكن!

و تمنى أن يجد صيدلية ليحصل منها على دواء، علّه يساعده على التحرر من الوهن الذي يعانيه. و يمر على الصيدلية القريبة من مسكنه، فيجدها مقفلة . . الوقتُ متأخرٌ . . يمضي الى السكن خال الوفاض من دواءٍ. و على الرغم من وهنه كافح و عاند في صعود سلم العمارة بكل طوابقها. و يدخل الشقة، فتلازمه القشعريرة مرة أخرى على الرغم من أنه إعتاد على ترك المدفأة الزيتية مفتوحة طيلة الأيام و الساعات! . . فكيف سيتغلب على المرض زائرا غير متوقع

كـيلا يسـرق منــه إنبهـاره بمـرأى الـثلج يتسـاقط مثلمـا رآه فـي الأفـلام، و يتفـرج عليـه يتـراكم و يخـرج ليصـنع منـه كـرات يلعـب بهـا و يرميهـا . . يرميهــا! . . يرميهــا علـــى مـــن؟ . . لا أهــلٌ و لا وطــنٌ و لا نـــديمٌ و لا كـأسٌ و لا سـكنْ! . . و يطـــوف فـــي مخيلتـــه خيـــال لميـــاء . . هــل رأت لميــاء ثلجــا؟ . . ثــم بثينـــة الصـــفار . . هــل رأت بثينـــة الصـــفار ثلجــا يتنــدف؟ . . و يداهمــه المتنبــي . . أمــا الأحبــةُ فالبيـداء دونهــم . . و لكــي يقــوّي لنفســه العزيمــة علــى الصــمود راح أولا ليـزيح سـتارة النافـذة كـي يكـون بمقـدوره رؤيــة الـثلج و هـو ينـزل مـن السـماء الحبلـى، ثـم فـتح الراديـو و كـان مـا يـزال علـى أيـف أيـم كلاسـك ميـوزك الاسـرائيلية تبـث أغـــان أوبراليـــة لـــم يتعـــرف علـــى معـــاني كلماتهـــا . . أبالألمانيـــة أم بالإيطاليـة أو . . و تاهـت الكلمـة مـن ذهنـه . . تـرك الراديـو مفتوحـا بعـد أن قلـل مـن صـوته. و راح ينـبش لاشـعوريا فـي أغـراض حقيبتـه الكبيـرة علــه يجـد شـيئا يشـغله بـالقراءة . . مجلـة الموقـف الثقـافي البغداديــة . . و تـذكر أنـه وعـد زهـراء الخـدران أن يقـرأ مقالتهـا عـن القـانون المطلـق فـي المجلـة و يعلـق عليـه، فتصـفح المجلـة و لـم يجـد الطاقـة الكافيـة و لا المـزاج لقـراءة موضـوع متكلّـف يتحـدث عـن جنـة و نـار و عـذاب و جحـيم . . مـا هـذا الهـراء؟ . . فـأرجع المجلـة الـى الحقيبـة. و ظـل يقلـب فـي أغراضـه، فعثـر علـى ديـوان الشـاعر إبـراهيم البهـرزي الـذي نسـيه تمامـا . . آه! . . هـذا الآخـر شـغلتني أيـامي عـن إرسـاله الـى حيـث يجـب أن يـذهب للنشـر، و قـد يكـون الناشـر فـي النمسـا بإنتظـار وصـوله و أسـف لنسـيانه . . و مـع ذلـك وضـع مخطوطـة الـديوان علـى الطاولـة عنـد رأسـه. و كعادتـه دائمـا عنـد الـذهاب الـى السـرير نضـى عنـه ثيابـه كلهـا عـدا اللبـاس التحتـاني و الفانيلـة قبـل أن يـدخل الـى السـرير سـاحبا الغطـاء الثقيـل علـى بدنـه مصـمما علـى أن يقهـر بـالقراءة مـا يشـتت ذهنـه و يوهنـه . . تنـاول أوراق ديــوان البهـــرزي مـــرة أخـــرى، و راح يقـــرأ محـــاولا الصـمود و الإسـتمتاع بـتلاوة الشـعر بصـوت راح يسـحبه عنـوة مـن حنجرته . . و إستسلم لرقاد خفيف يشبه الغيبوبة . .

حـين أفـاق . . كـان الراديـو مـا يـزال يبـث موسـيقاه. و علـى الـرغم مـن تشـوش رأسـه ميّـز نشـيدا الموسـيقار هانـدل . . إلتفـت الـى النافـذة . . و بغـبش عينيـه رأى السـماء و كـل مـا تحتهـا بضـوء مثـل الـثلج . . إذن هـو النهـارُ يغمـره الـثلج و البيـاض! . . و إلتفـت نحـو الطاولـة لينظـر الـى

الساعة . . بتأثير إنطباعة البياض الذي تركته في عينيه رؤية الثلج في الخارج تاهت عن عينيه عقارب الساعة. الساعة تشير اللحظة الى حوالي العاشرة صباحا . . أراد الخروج الى السطح لرؤية الثلج . . و أغنية هاندل قد إنتهت و أبتدأت أغنية أخرى لهاندل عرفها من موسيقاها المرحة المضمخة بتبجيل الطبيعة و الكون المطلق اللانهائي . . و راحت جوقة المنشدين تشدو بصوت مهيب و هو يشدو معها بصوت واهن . .

- Every valley, every valley shall be exalted . . Every valley .. every vally, shall be exalted . . And every mountain . . And hill made low . . The crooked straight .. the crooked straight .

و يحمل نفسه من فراشه عنوة . . الوهن يلازمه فأنساه وضعَ شيئ على جسمه يقيه من البرد و البلل . . توجه نحو باب الغرفة و فتحه . . الهدوء مخيمٌ كاملا على بير السلم. جرَّ رجليه بصعوبة بالغة كي تحملاه نحو باب السطح. و بإمساكه بمزلاج الباب الحديدي، سرت برودة و نداوة الحديد في جسمه مثل تيار بارد صاعق. و مع ذلك قاوم البرد و فتح الباب و إندفع الى السطح، و سرعان ما غاصت رجله في ثلج إرتفاعه لا يقل عن ثلاثين سنتيمتر . . البرودة تصعد الى جسمه مرة أخرى و ترك رجله الأخرى تغوص في الثلج . . متقدما الى الأمام يحس بنداوة و برودة الثلج في جوربيه . . يتقدم الى وسط السطح متلفتا شرقا و غربا . . شمالا و جنوبا . . ليس ثمة ما يُرى سوى البياض، و الثلج ما يزال ينزل نتفا أحسها تتكاثر على شعره و فانيلته. . . الطبيعة تستعرض جلالها بفتنة . . و الله المستتر دائما ها هو يتورَّى خلف حلة بيضاء باهتة من السحب القريبة من الأرض! . . و حيثما إلتفت لا يرى سوى أنوار سي تاون الوحيدة التي تومض في ضحى غابت به الشمس خلف ستار من البياض السرابي . . و أينما إلتفت فثمة وجه الثلج . . و لا شيئ غير الثلج! . . الثلج يتشكل بندف تهطل بغزارة عائمة في فضاء عمان دون ملامح . . إنتابته قشعريرة فإنكمش، و كادت تودي به على بساط الثلج الذي يغطي السطح، و الثلج ما فتئ يزداد سمكا غير محسوس، لكنه تماسك

. . أطحن بـگـايه الروح موش أطحن شعيرا . . المجّن و الميجنة! . .
و تمر بخياله المتعب الواهن أطياف كل النساء اللاتي عرفهن . .
بداعة عيوني عليك شگد تحبني؟ . . . شگلك و إنت مايع و آنه من
الحـُرگه زهدية! . . ما ردت أگولـچ أحبـچ بـگـد ما تتصورين . .
يكفيـچ هذا؟ . . زين . . و ردت أگولـچ . . منين أبوسك إعله گدك؟
. . و إنتَ غيبة . . و كتبة ممسوحة . . و من شويَّة بنفسـچ الله شدك .
. الله شدك! . . و بتفاقم إحساسه بالقشعريرة، ما عادت ندف الثلج
تذوب و تنساب على وجنته بل باتت تتجمع فوق فروة رأسه و على
أرنبة أنفه و حاجبيه و أطراف أذنيه العليا و كتفيه . . بالحلم ختيلة
نلعب . . و إنت بحساب الورد . . لنك ورد من لزمة تتعب . . گـللي
خايف . .گِـتله تلعب . . گـلي خايف . . گِـتله عليك الحمزة أبو
حزامين تلعب . . آنه روحي تندگ هلهولة إبسامير من أشوفك . . و
إنتَ گـلبك ينكسر مسقولة وردية من أعوفك . . يللي نايم إعله طولك
تشتعل چـن خرزة ليلو . . و خرزة كهرب . . إلعب . . إلعب . .
إلعب . . إلعب . . طاقته تنفذ و جسده يهن و صراخه يهدر بوجه
الصمت و السماء النادفة ثلجا . . إلعب! . . إلعب! . . إلعب! . . و
يخترق السكون تسمعه الأرض المكتسية بياضا بإرتفاع غزارة الثلج
المتساقط . . إلعب! . . إلعب! . . إلعب! . . ليتنا نخلة! . . وُلـك
إبراهيم البهرزي . . گـوللي . . هاذي يا نخلة تتمناهه؟ . . نخلة الله!
. . نخلة بهرز! . . نخلة الهويدر! . . نخلة الشاخة! . . نخلة
بعگوبة؟ . . نخلة البصرة! . . ولك إبراهيم كل النخل حرگو! . .
آية الله الإيراني و الفوهرر العوجاوي! . . وِلـكْ إبراهيم ما بقى نخل
ماكو غير الثلج! . . every every valley, every valley
valley shall be exalted . . و قبل أن يعيا بالكامل و بالطاقة
المتبقية عنده إنسحب نحو بير السلم، و دخل غرفته مغلقا بابه و تمدد
على سريره منهمدا في فراشه و بآخر شحنة من متبقية في طاقته
الجسدية سحب غطانه عليه و إستسلم لما يشبه الغيبوبة إن لم تكن
قريبة من الموت.

. . . . الطرق على الباب يزداد قوة و رنين الموبايل لم يتوقف قط
عند رأسه، فتختلط نغمته في رأسه مع نغمات الموسيقى الخافتة التي
تنبث من الراديو القريب من رأسه. و بتأثير الدوخة، خال أصوات

طرق تختلط بنغمات من نوعما تملأ الغرفة و كأنها آتية من حلم مجهول يتسريب من وراء الزمان. إشتداد الطرق على الباب هو الذي جعله يسترجع نزرا من وعيه و يلتفت نحو الطاولة. و ما أن و قعت عيناه المغوشتان على الساعة تبدد وهمه و أدرك أن أصوات الطرق المشتدة على الباب حقيقية و ليست خيالا. . . و خال أيضا أنه يسمع أحدا ما يصيح بإسمه وراء باب الغرفة . . الساعة تشير الى حوالي الثانية عشرة ظهرا، فأزاح الغطاء من على جسده الواهن و نهض. أراد أن يصرخ بمن في الباب أنه قادم ليفتح، إلا أن صوته غار في داخله و لم يخرج. يكافح من أجل الوصول الى الباب، و يفتحه بصعوبة، فيتفاجأ بوجهي فدوى عبد ربه و أحمد النقشبندي و خلفهما وجه خالد الطراونة مدير . . شقق زهرة المدائن . . و و بما يشبع الصرخة قالت فدوى:

- الحمد لله!

و عقب النقشبندي:

- سلامات! . . خير أستاز حمدان؟

لم يقو حمدان على الكلام مطلقا، فحمل نفسه الى الداخل و مباشرة الى فراشه تاركا فدوى و النقشبندي يدخلان وراءه و يجلسان . . فقالت فدوى:

- يومين راحت من ساعة حكيت معي بالتلفون تخبرني إنك مش كويس . . و ظليت طول هاليومين أرن عليك و ما ترد و أسال كمان النقشبندي عنك و هو كمان قلق عليك . . و آخر إشي إحتار الزلمة . . و إضطرينا اليوم نشوف عنوان شقتك من الفورمة الموجودة في المدرسة و إجينا . . و اللي أكدنا وجودك هوني هو تلفونك اللي كان يرن كلما دقينا عليك و إحنا بالباب! . . و كمان معو صوت الموسيقى . .

و يخرج صوته واهنا يكاد ألا يسمع . . ليشكرهما:

- شكرا إلك مس فدوى . . و لصديقي النقشبندي . . أنتم الإتنين أصدقائي هوني!

و يعقب النقشبندي:

- هيدا يعني إنك طول هالمدة لا أكل و لا شرب!

لم يجب . . فيضيف النقشبندي:

- راح أحضرلك وجبة فطور!
و إستبقته فدوى قائلة:
- خليك معو . . أنا أجهز الفطور.
و إنصرفت و جهزت له بغضون دقائق وجبة خفيفة مما وجدته . . كوب حليب ساخن و قطعة جبنة ملفوفة بقطعة خبز . . و قالت:
- . هذا يعني . . إنك كمان من غير دوا طول هاي المدة!
فأجابها بصوت واهن يكاد لا يسمع:
- مس فدوى . . أنا ما معتاد على أخذ الأدوية!
فردت و هي تتطلع الى النقشبندي:
- مع زالك . . شوية مقويات . . فيتامين سي مثلا . . و غيرو!
و يفهم النقشبندي الرسالة و ينهض قائلا:
- على عيني مس فدوى . . بس هايدا يعني لازم أروح لوسط البلد لأن إحتمال ما بلاقي صيدلية هوني هلق فاتحة!
- يعطيك العافية يا أستاز أحمد . . إنت تسوق سيارة . . أخذ سيارتي!

تناول النقشبندي منها مفاتيح السيارة و غادر . . قلَّبت فدوى السكر في كوب الحليب محاولةً مساعدته على إرتشاف الحليب الدافئ . . بضعة رشفات و ستجده يندس لاشعوريا تحت الغطاء و يستسلم لإغفاءة رافقها فورا شخير خفيف، و كأنه لم ينم من قبل . . على بساطة الغرفة التي يعيش فيها حمدان مقارنة بالفيلا الصغيرة الفارهة التي تعيش فيها، و الموسيقى الخافتة المنبعثة من الراديو القريب دون توقف منذ أيام وجدت فدوى لمسة إستثنائية تميِّزُ المكان . . ظلت عيناها عالقتين بما يشبه دفتر مذكرات موضوع على الطاولة. و هي تراقب حمدان المستسلم لإغفاءته، و بسبب فضولها الشديد لمعرفة المزيد عن الرجل الغارق في نومه. و علَّها تعرف نتفا أخرى عن حياة رجل سألته يوما عن نوع العطر الذي يستعمله، تلمست يدها الطريق بهدوء الى الدفتر، و سحبته بحذر، و فتحته لا على التعيين .

و إبتدأت تقرأ . .

بعقوبة- الواحدة ليلا ٢٠٠٠/٢/١٦

إنقطع التيار الكهربائي . . و ها أنني إلتفت لاشعوريا نحو النافذة المطلة على الشرفة و أراها غرقت بنور فضي غامر . . نهضت من على مكتبي مأسورا غير قادر على مقاومة الرغبة بالسباحة في ضوء القمر. فتحت باب الشرفة و ساعة رؤيتي المدينة الصامتة النائمة تلتحف بالنور الفضي، أدركت فجأة أن كل ما تأتي به الحضارة من إبتكارات لتسهيل حياتنا هي في الحقيقة حُجُب يضعها الإنسان بينه و طبيعته . . بينه و منبع سذاجته الأولى . . لم أستطع مقاومة الرغبة العارمة في العوم في بحر النور هذا! . . وضعت الروب على كتفي و نزلت على درجات السلم الضيقة، و عند الباب يستقبلني الشارع بسكونه. بدأت الرحلة وحيدا . . أنا أحب الوحدة إلا في حالة أن يراودني طيف أنثى لما تزال على سذاجتها و براءتها الأولى . . و حين يغيب الطيف أفتقده كثيرا، و أتذكر ما رد به جيكوف حين سألوه لِمَ لَم يتزوج فقال . . أريد زوجة جميلة كالقمر و مثله لا تطلع عليّ كل يوم! . . أهو بَطَرٌ من جيكوف! . . أنا مثله أريد الأنثى جميلة كالقمر و قد أريدها تطلع عليّ كل يوم! . . و لا أدري لم يثير فيّ نور القمر هذا النزوع الوحشي للبحث عن رفيقة وحشية . . مشيت ما يقارب الساعتين جيئة و ذهوبا على جدول الشاخة[١٣] . . أين أنا من تلك الأنثى الوحشية التي عرفتها يوما تريد أن تجوب الفيافي ورائي! . . تحدثت خلالها الى طيف أنثى من وراء الزمان و البساتين و الرعد و النهر و المطر و إنسابت كلماتي في مياه الشاخة . . و ضممت الطيف إليّ في غير موضع على جرف الشاخة، و أنا أصغي الى كائنات متناهية الصغر أحسها تدور من حولي . . و ما أن عاد التيار الكهربائي و شع نور مصابيحه في الشارع تلاشت الفتنة و السحر، عدت الى المنزل . . و الى منضدة الكتابة . . بعد الساعة السادسة صباحا . . جاءت أم كلثوم و رياض السنباطي . . لا أدري لِمَ بِتُّ أعتقد بأن المقدمات الموسيقية التي وضعها السنباطي لألحان أغاني أم كلثوم يتمثل بها ضعفَ الإنسان و لوعته . . مشقة و محنةً و مأزقَ . . و مع ذلك يثير في نفوسنا الرضا . . لِمَ؟ . . تطهير؟ . .

---

[١٣] "الشاخة" هي التسمية الشعبية الموروثة لنهير "خريسان" الذي و بسبب إيحائه الفارسية غيروه في زمن البعث الى "سارية" و هو إسم أحد الغزاة المسلمين العرب لأرض الرافدين.

ألأنــه ربمــا يضــعنا دون لــبس و بضــربة واحــدة أمــام عظمــة وعينــا النــوعي كائنــاتٍ عضــويةٍ و تفاهــة خيالاتنــا و تصــرفاتنا؟ . . مفارقــة! . . جدليــة الإلــه و الــوحش! . . تعــز علينــا رؤيــة أرواحنــا وســطا؟ . . ربمــا! . . ذلــك أن لــب مأســاتنا يكمــن فــي جهلنــا أننــا اليــوم بشــر و كنــا ذات يــوم فــي مملكــة حيــوان و أخرجتنــا مــن هنــاك خيالاتنــا! . . فــي . . جــددت حبك ليــه . . مثلمــا هــو الحــال فــي أغنيــة . . ذكريــات . . و ربمــا فــي جــل ألحانــه يحــاول الســنباطي تجســيد وحــدة و غربــة الإنســان و لســان حالــه يقــول . . ألا مــن معــين فــي هــذا الكــون؟ . . أســتمع لهــذه المقــدمات الموسـيقية و أرى العـالم يـنكمش مـن حـولي و لا يبقـى فيـه سـواي! . . أنـا الوحيـد الواحـد . . أفـي العـيش وحيـدا خلـة؟ . . المعـري عـاش وحيـدا و تـرك مهمـة الحفـاظ علـى النـوع لملايـين الأغبيـاء يتزوجـون و يخلفـون و يتكـاثرون مثـل النمـل و القمـل! . . المتنبـي عـاش وحيـدا و لـم أجـده صـادقا مثلمـا هـو فـي قولـه . . خليلـكَ أنـتَ لا مـنْ قـلتَ خلـّي و إن كثُـرَ التجمـّلُ و الكـلامُ! . . تـزوج أحمـد بـن الحسـين و بمجـرد أن ولـيد لـه محسـد تـرك الزوجـة فـي الكوفـة وظـل مـرتحلا وحيـدا الـى الأبـد! . . أبيقـور الفيلسـوف عـاش وحيـدا بـلا زوجـة مقدسـا الصـداقة و مفضـلا إيـاه علـى رابطـة الـدم . . أفـي هـذا عيـب! . . جـون بـول سـارت و سـيمون دو بوفـوا عاشـا وحيـدين بـالمعنى الـذي أراه علـى الـرغم مـن سـكنهما المشـترك حتـى فرقهمـا المـوت! . . لوحـدنا أنـا و الأوتـار تصـدح إهتزازاتهـا فـي إسـماعي . . أنـا ملـك . . سأمضـي وحيـدا . . بحريـة . . علـى الـدرب الرحيـب . . أينمـا يقـودني عقلـي الملكـي![١٤] . . و لا يعـود وعـيَّ بضـجيج السـيارات المـارة فـي الشـارع أسـفل الشـقة إلا مـع شـروع أم كلثـوم بقـول كـلام الأغنيـة . . و سـرعان مـا إنتبهـت لضـوء الشـمس يسـفع أعـالي النخيـل! . . الكلمـات فـي الغالـب تفسـد الموسـيقى، مـا يجعلنـي أظـن أن الغنـاء يسـتهلك مشـاعرنا، بينمـا الموسـيقى لوحـدها علـى العكس هي ما يساعدنا على توليد مشاعر جديدة!

و تواصل فدوى القراءة . .

بعقوبة- الثانية ليلا ١٨/٢/٢٠٠٠

---

[١٤] فيها إشارة الى ابيات الشاعر الروسي بوشكين " أنت ملك/ فعش وحيدا/ و أمضي بحرية/ على الدرب الفسيح/ أينما يقودك عقلك الملكي"

قبل أكثر من ساعتين إنقطع التيار الكهربائي . . و لأن تجربة ليالٍ فائتة ما تزال طرية في الذاكرة، إلتفت و لكن هذه المرة بوعي و عن قصد نحو النافذة لأرى الشرفة مثلما كانت بآماس سابقة، غارقة و مبهورة الأنفاس بالنور الكوني . . نهضت منِ منضدة الكتابة و تلحفت بملحف قريب و نزلت الى الشارع . . و مثلما يحصل كل مرة إستقبلتني المدينة النائمة الغافلة عن نور القمر يتغلغل في ثناياها ليطيل سباتها . . صدق هيراقليطس . . نحن لا ننزل النهر نفسه مرتين . . رفعت رأسي نحو السماء فإستقبلني ذاك القمر البدر الماكر . . صدقا؟ . . أحاول أن استجلي مشتركات بين طيف الأنثى المثال الذي يراودني و القمر؟ . . أيهما تفيض روح نوره على الآخر! . . من؟ . . كلاهما . . من حيث إلتفتُ يأتي لعيني بنورٍ ثاقبٍ . . و جمرة متقدة هو طيف أنثاي المتقلب الفصول . . نوره مضموم و لطيف . . نور الجمر ثاقب دون ريب و ينفذ الى القلب، فيفيض القلب دفئاً و بهجة . . أتون الجمرة سره دون ريب في جوهرها. تسمع جمرة القلب لفظة . . حب . . فتنفض عنها الرماد و تغري الأكف و الأنامل بالتودد إليها . . و كذا هو القمر . . نوره باهت غير أنه نافذ يجلي الدروب للسواري في الليالي من أمثالي . . أتدري يا طيف أنثاي المجهولة الوحشية أن القمر يبدد وحشتي مثلما يستأنسني خيالك و أنا في عز يقضتي؟ . . و حتى أني صرت ما أن أسبح بنور القمر يداهمني شعور لا يشيعه في حناياي غيرك أنت يا طيف! . . و ها أني أدرك سر العلاقة بينك يا طيف النشوة و نور القمر . . الى أن أعلم إن كان القمر غريما في الحب؟

السادسة صباحا . . و مرة أخرى تأتي موسيقى السنباطي و غناء أم كلثوم و أغنية . . أغار من نسمة الجنوب . . مفارقة! . . إذاعة الشباب تبث الغناء وقتما يذهبُ البعض الى صلاة الفجر . . و أحاول مرة أخرى أن أفهم من الأغاني ما لا يفهمه الناس . . أيغار الحبيب على حبيبه حتى من أفنان الطبيعة . . هذا ما يفهمه الناس! . . و تأتي الأغنية . . يا ليتني منظر بديع تطيل لي نظرة الرقيب! . . هذه ليست غيرة هذه صلاة للطبيعة و للأزل الكوني! . . أبحث عما خفي من معانٍ و ليس بالضرورة أن تصور كلمات الأغنية حبا حسيا . . خلايا الحب الحية . . تموت في جزء من مليون من بحران اللحظة لكي

تتجدد و تحيا بمثلها. فلولا خشية المحب من إنطفاء شبوبة الحب لما غار حبيب على حبيب . . الغيرة بارقة إستشراف . . بالإمكان أبدع مما كان! . . من ذا القائل . . أجمل ما في الكون ظاهرة الحياة و أجمل ما في الحياة ظاهرة الحب و أجمل ما في الحب ظاهرة الجنس؟[١٥] . . و تأتي كلمات الأغنية . . أظل أسقيك من هيامي سلافة الروح و القلوب! . . القلوب هنا هو الجنس! . . أنا لا أنسى الطيف إلا كي أتذكره بسقياه من هيامي! . . و لا أغار عليه سوى من نفسي الكدودة! . . لك يا طيفُ أن تتوارى كي تعود و تكتسح أدق الأشياء في كياني . . مثل نبع يجزر كي يفيض من جديد بسيل يغطي وديان و سهوب روحي الكدودة . . روحي تنحدر الى وديانك يا طيف و نحو سهولك و لا يشق عليها صعود هضابك! . . ركوب الموج في بحارك رحلة سحر . . و التيه في غاباتك سِفرُ مسرةٍ! . . ما يراودني من طيفِ أنثى هو غابةً بكرٌا! . . و يأتي غناء أم كلثوم . . تميلني نحوك الخزامى إذا سرت ساعة الغروب . . أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبي!

بعقوبة- ليلة الأربعاء على الخميس ٢٠-٢١/٢/٢٠٠٠

الطيف الجميل . . ها أنتَ تذهب و تتركني لوحشةٍ و وحدةٍ و لحظاتِ حنين . .

و تتوقف فدوى عن القراءة و تسرح لحظة متسائلة . . و مين هي بالزبط هيدا الطيف اللي بتحكي عنو؟ . . أفصح يا زلمة! . . و تستمر فدوى تقرأ بلهفة . .

. . تركتَ وراءك عِطرك الأثيري يملأ المكان و أنفاسك ما زالت عالقة تختلط بأنفاسي في منامي . . أهكذا يا طيف تدنو مني و تقبلني على شفتي و تعض أرنبة أنفي و أنا أضعف من يحتمل قلبي كل هذا! . . أتريد الصدق يا طيف؟ . . أتأمل تحولات أثيرك يفيض عليَّ ضياءً و مسرة . . أتخيل صورتك غارقا بفيضان المطر و أحولها مدركا بكل الحواس . . أتخيلكَ تضحك . . و أتخيلك مستغرقا بالحديث إلي بلغة الصمت . . يا طيفُ!

---

[١٥] العبارة منسوبة لماركس

و تتوقف فدوى مرة أخرى عن القراءة . . مش راح تقوللنا مين هي تبع هيدا الطيف و تريّحنا! . . شو إسمها؟ . . و تعود قارئة . .

. . أحاول أن أستجلي سر الحب فيك . . يا طيف! . . أين يكمن نبعه و من أين يفيض؟ . . تزودنا إنطباعاتنا أحيانا بمعرفة نحبذ أن نراها مقنعة، حتى لو كانت وهمية، و لأني في الحقيقة عاجز عن إكتشاف ذاك النبع حين تزورني فراشة روحك و تناغي فراشة روحي! . . فراشتان تجوسان خلال ديار لهفتنا اللامتناهية . . يا طيف ما زلت أجهل سر الحب فيَّ أنا . . فأنَّى لي أن أعلم سر الحب فيك! . . أحاول أن أستجلي و كأني برومثيوس مدحرجُ صخرة العذاب الى أعلى الجبل . . أهي صخرة عذاب أم صخرة لوعة؟ . . و ما أن يشارف على القمة ينشغل وعيه مستشرفا نشوة الذروة التي سيبلغها . . يقولون أن حظه العاثر يجعله يستعجل تصور بلوغه الذروة فتفلت الصخرة من بين يديه لتنحدر و تستقر في قعر الوادي . . سوء تقدير جميل! . . بإمكاني أن أتصوره بعد أن تفلت الصخرة من يده و ما يزال فوق، ينحدر نظره نحو الوادي حيث إستقرت الصخرة و يرى أن عليه معاودة المحاولة . . واهمٌ من يزعم بأن برومثيوس كان شقيا و حظه عاثر و ليس سعيدا؟ . . سحقا للآلهة التي ظنت أنها حكمت عليه بالشقاء! . . كأني به أراه و سعادته برأيي تكمن في تجديده محاولة الوصول الى ذروة لا تتكرر! . . و في كل مرة يجرب طريقا جديدا للوصول الى الذروة! . . الوصول الى الذروة في الحب ليس أمرا هينا! . . واهم من يزعم أنه وصل الى الذروة في الحب! . . و أتذكر ما قاله لي والدي مرة . . هذا البئر لم يصل و لا يصل الى قراره أحدٌ فهون على نفسك يا ولدي! . . بعد الذروة يتلاشى الحب . . أحاول يا طيف أنثاي الوحشية المثالية المجهولة بلوغ أعاليك . . فإن كان نبع الحب في قمتك فإن شربته يا طيف هو لي علَلٌ! . . سأكرس حياتي لبلوغ ذاك النبع. و إذا ما بلغته سيكون هو سر خلودي . . لست من محبي الصومعات و لا المحاريب . . و كي أصل الى سرك الخالد سأظل أجوب مسارب المياه . . و حين أبلغ ذاك النبع سر الحياة، سأفترش مياهه و ألتحف سحاب سمائه، و أنهل منه كل يوم . . تحتي ما و فوقي ماء . . أتوضأ بفيضه و أصلي لحمد النبع صلاة وحشية

مـلأها السـذاجة و الرغبـة . . نشـوتي بـك يـا طيـف تغسـل أدرانـي حلمـا و يقضـــة. تحثنـــي فـــي كــل لحظـــة علـــى إنبعـــاثٍ أســـطوريٍ . . مــرة بروميثيـوس سـارق النــار مـن الحـداد كـي يهبهـا الـى أنـاس مثلـي يتـدفأوا بهـا . . ســحقا للأربـــاب و الآلهـــة جميعـــا دون إســـتثناء لأنهـــا تقتـــات علـــى جهلنـــا! . . و ســـاعة بـــوذا . . المرتقـــي بالحـــب الإنســـاني الـــى مصـــاف المطلـق المثـالي فحـوّل العلاقـة بـين المـرأة و الرجـل الـى لغـز يسـتحق التأمـل . . و أخـرى يوليسـيز . . المتلقـي عقـاب الآلهـة بتيـه جـاب بـه العـالم و بحـاره و لاقـى مـا لا يحصـى مـن نسـاء أنمنـه فـي أحضـانهن لهفـة منـه هـو أيضـا لمعرفـة سـر الحـب و لغـزه قبـل عودتـه الـى بينولـوبي ناسـجة السـجادة! . . و هـا أنـي أيضـا أتسـائل . . أيـن سـر الحـب فيـك يـا طيـف أنثـاي المجهولـة؟ . . و أحسـني مـرة غوليـات المـارد و أثنـاء تحطيمـه للمعبـد ليحـرر حبيبتـه أصـابه حجـر و قتلـه قبـل أن يعـرف أيـن يكمـن نبـع الحـب عنـد زليخـا المحـررة! . . ياللحسـرة! . . الـذروة قاتلـة! . . سـحقا للمعابـد جميعـا! . . سـجون الحـب! . . سـأحاول فـي كـل مـرة تكـون فيـه يـا طيـف بـين ذراعـي و أولئـك كلهـم مجتمعـين بـيّ أن أستكشـف أين يكمن نبع الحب . . و من جد وجدا! . .

الحـــب فـــي كـــل الأوقـــات أجـــده موازيـــا للحكمـــة! . . و أتـــذكر قـــول الكسندر بوب عن الحكمة:

A little learning is a dangerous thing,
Drink deep or taste not the Pierian Spring,
There shallow draughts intoxicate the brain,
And drinking largely sobers us again

حـال الحـب هـو حـال الحكمـة . . تـذوُّق القليـل منـه يكـون مصـدر خطـورةٍ ومبعـث ألـمٍ، فعلينـا إذن أن نتـرع مـن نبعـه، و إلا فالأفضـل ألا نتذوقـه! . . أقـول نتـرع و لا أقـول نبلـغ ذروة! . . قطـرات قليلـة منـه تغفـي القلـب وتسـممه بـدل أن تنشـطه و تذكيـه . . و الإغتـراف منـه يعيـد إلينـا دائمـا توازننا الروحي و صحونا.

الحـب يـوازي الحكمـة . . و هـذا ربمـا هـو مـا جعـل الله، فـي أسـطورة آدم و حـــواء، أن يغضـــب هـــذا الغضـــب المطلـــق منهمـــا، فسـلط عليهمـــا الشـيطان يغويهمـا. بإمكـاني أن أتصـور إن الله بعلمـه الكامـل الكلـي تفـرَّج

علـى آدم و احـواء يمارسـان الحـب. و مـا هالـه أنـه وجـد حبهمـا كـاملا و كليّـا. و لأنــه كِـذلك ظـن الله أن حـب آدم و حـواء بكمالــه و كليتــه يـوازي حكمتــه الإلهيــة فــي كمالهــا و كليتهــا، فشــعر بالتهديــد . . التنـــاظر و التــوازي غيــر مسـموح بــه خــارج نـاموس الطبيعــة . . الله شـعر بالتهديـد مـن وجـود كينونـة تـوازي كليتـه و كمالـه. و هـو دون ريـب مـا أراد فـي الجـوار مـا يـوازي كمالـه و كليتـه . . شـعور بـالغيرة مـن وجـود نظيـر! . . الله المـاكر لـم يـرد فـي مملكتـه أن يـرى قـوة أخـرى تـوازي قـوة كمالـه و حكمتـه الكليـة فـي كينونتـه، فقـرر طردهمـا . . إلـه مـاكر! . . نعـت نفسـه مـاكرا و هـو جـدير بهـذا النعـت . . دبَّـر لهمـا قصـة تلـك التفاحـة المشـؤومة كـي يطردهمـا . . سيناريو! . . هـو بعلمـه الكلـي علـم أن لـيس للشيطان دخـول الجنـة، و بعلمـه أوحـى للشـيطان إقنـاع الحيـة كـي تبلعـه و تمــوّه علــى رضــوان بــواب الجنــة عبــوره إلــى الفــردوس. و جعـل الله الحيـة بـدورها ترضـى بـابتلاع الشـيطان و تمـر بـه مـن بوابـة الفـردوس . . و هـذا مـا حصـل عبـرت الحيـة بالشـيطان فـي جوفهـا . . أزاعتـه هنـاك عنـد شـجرة التفـاح و تحـدث بنفسـه لحـواء؟ . . أم أنـه إسـتغل لسـان الأفعــى لـيفح كلامـا معسـولا يغـوى بـه حـواء أولا؟ . . و هــي التــي أغـوت آدم بقضـم التفاحــة! . . آدم حمــار! . . آدم حمــار دائمــا! و هــذه الحمرنـة مـن آدم هـي مـا ورط نـوال السـعداوي و جعلهـا تـروج لنظريتهـا عـن الأنثـى الأصـل! . . و لا أتراجـع عـن قنـاعتي بـأن الله لـم يـرد هنـاك أيـاً ممـا يـوازي حكمتـه و كمالـه و كليتـه . . و حـب أدم و حـواء نـوع مـن إكتفـاء ذاتـي . . رغبـا ببعضـهما رغبـة مطلقـة فمـا حاجتهمـا بعـد ذلـك للتناسـل و توليـد الأعبـاء و الأعـداء . . رعشـتهما بالحـب كانـت لـذاتها و بـذاتها . . الله غـار منهمـا . . غـار مـن الثنـائي الجميـل آدم و حـواء و مـن كمـال حبهمـا و كليتـه! . . الله هـو كـان العـذول . . السياسـة كلهـا نبعهـا من هناك . . من الله! }

و تصـاب فـدوى بالـذهول ممـا تقـرأ و تتوقـف عـن القـراءة . . و مـع ذلـك يظـل يتـردد فـي داخلهـا . . يعنـي مـا راح تقوللنـا يـا أسـتاز جربـة . . هـَيدي مين هـيَّ تبـع الطيـف اللـي تحكـي عنـو و تريحنـا! . . و تمنـت ألا يعـود النقشـبندي الـى الأبـد كـيلا يحرمهـا ممـا تقـرأ! . . و تسـرح عيناها نحو حمدان المُسبيِّ . . **و تعودان لتواصلا القراءة . .**

بعقوبة- الجمعة على السبت ٢٤-٢٥/ ٢/ ٢٠٠٠

القمر هذه الليلة متوارٍ خلف السحب يراقب بمنظاره الأثيري مدينتي تستعد لحمام سماوي إنتظرته طويلا . . و مدينتي بدورها كأنها تستعد للحمام القادم . . تفرد فروة رأسها نافشة شعرها كي تغسله من أدران مسارب الزمان . . و من إنكبابي المستغرق على مكتبي، أفقت فجأة على صوت المطر على الدرب ينسكب ماؤه نازلا من مزاريب السطوح . . بضعة دقائق تبقت لعقارب الساعة و تبلغ الثالثة فجرا . . لا أقاوم الرغبة بالخروج الى الشرفة . . (أخرج الى الشرفة و أعود) . . أكاد أفقد مقاومة رغبتي بالنزول الى الشارع لرؤية ماء المطر ينساب على الأرض في وقت لا تلوثه إطارات السيارات . . قمت لألبس الجاكتة المطرية. وضعتها و كان عليّ أيضا أن أجد المظلة، فوجدتها أخذتها و نزلت و بعد حوالي أربعين دقيقة عدت الى الشقة.

و ها أنا أكتب من جديد! . .

يا طيف أنثاي . .هناك تحت تفرجت على مدينتي عروسا تستحم ليوم عرسها، و كأنها تتهيئ لليلة مجيدة. و في ليلة منقوعة بالمطر لا بد لشبكة التيار الكهربائي في مدينتي أن تخسر جولتها! . . و بهدي نور نافذ من خلف السحاب . . القمر لا ينساني! . . ينسلل نوره المختلط بلمعان النجوم البعيدة من بين ثنايا السحب، و بهديه أتفرج على ثنايا المدينة يسح فوقها ماء السماء مثلما يسح مائي أنا على ثناياك الأثيرية يا طيف، فيتركها طرية و جديدة و طازجة . . مدينتي . . يا طيف . . تتضمخ مثلما كانت تتضمخ شمخات و أتانا خبرها عبر آلاف السنين . . تستحم بعطر سماوي غامر قبل أن تغوي أنكيدو المستوحش . . ماكرة شمخات! . . حواء أغرت و شمخات أضا أغوت! . . و بغياب السيارات شممت هناك في الهواء ريحا طيبة غير ملوثة، ريحا لا تكتفي بالنفاذ الى رئتيّ بل أيضا الى قلبي المكدود . . صدقني يا طيفها المستأنس . . كدت أبكي هناك و أنا تحت المطر! . . صرت رجلا بكتاءً . . ما الذي يضطرم في داخلي؟ . . لا أدري! . . أحس بتلك الكائنات الصغيرة إصدقائي الليليين غير المرئيين تجوس الأرض و تشارك السماء و الأرض مهرجانهما . . ومرة أخرى أعود إليك يا طيف أنثاي المجهولة . . أنثى الكهف الأول . . أنت و مدينتي واحد . . أحبك قدر ما أحبها! . . و أمنيتي هناك تحت كانت رؤيتك يا طيف

الأنثى تستحم بماء المطر مثلما تفعل الآن مدينتي . . أتخيلك تستحم بماء المطر . . واقفا يا طيف هناك في وسط الشارع الخالي من الناس و الكائنات، و أتفرج عليك و معي تلك الكائنات الصغيرة . . أنا مبهور بالمنظر و الكائنات الصغيرة مسحورة! . . ما أكثر شوقي إليك! . . و أتمنى لو أستطيع ان أقبلك تحت المطر . . و القبلة تعميدٌ لرابطة أزلية . . أجمل ما فينا، أنا و أنت، هي طبيعتنا لأنها أقوى من كل العقائد . . و ما نقوم به هو تسويغ لفطرتنا السليمة . . فطرتي الحسية و فطرتك الأثيرية . . نحن الإثنين نلبي نداءً . . نلبي حاجتنا مثلما لباها أي إثنين متوحشين قبل آلاف السنين . . إمرأة نوعية في الكهف و رجل نوعي في الغابة . . سر الحياة و جدليتها . . أتدري يا طيف؟ . . منذ الآن لم يعد القمر لوحده . . بل و معه المطر . . ما يثير بيّ تلك الرغبة الوحشية الجامحة للبحث عن رفيقتي المجهولة الوحشية . . صاحبة الطيف! . . أريد أن أمطرها مثلما تمطر السماء مدينتي الوادعة . .

(بعد الساعة السابعة صباحا) . . يأتيني صوت فيروز و بسبب ما قرأته في الكتاب الذي أترجمه عن الملك لير و الجحود الذي يُقابل به المرء حين يتخلى عن كل مصادر القوة لأبنتين جاحدتين لا تستحقان التقدير . . أخطأ لير الإنسان و ليس الملك، فظنهما تحبانه بقدر ما يحبهما، و زعل من إبنة ثالثة لأنها قالت له . . أحبك الحب الذي لا بد أن تمحضه إبنة لأبيها دون تزويق أو رياء و إذا شئتَ يا أبي فأنا أحبك بقدر ملح الأرض! . . ملك جاهل بخس قدر الملح و أساء فهم إبنة صادقة الوعد لا تعرف التملق و النفاق مثل أختيها . . و حرمها من الميراث! . . لير هذا مسكين! . . ملك غبي يستحق الشفقة فعلا! . . كيف لَمْ يتسنى له و هو ملك أن يعلم أن كوكب الأرض ربعه ملح؟ . . ليت لي أبنة تحبني بقدر ملح الأرض! . . و أعود الى فيروز و أقرأ للتو و أترجم . . يبدو لنا لير و هو هائم في البرية و كأنه مقياس للعطف و القسوة في الطبيعة الإنسانية . . و لا أدري لم أعطى صوت فيروز عندي لهذه العبارة شحنة مضاعفة! . . ألأن صوت فيروز يعكس معرفة الأشياء بأضدادها؟ . . . يعيدنا لعهد سحيق مضى، ربما و كأنه يأتي من قلب طفولة جنسنا الذي ورث القسوة من مملكة الحيوان؟ . . أم لأن صوت فيروز على قدر رقته

يعكس تضرع الإنسان لما يحيط به من قوى لا يفقه عن سلطانها شيئا؟ . . أو ربما لأن صوتها السحري نسمع به عشرات الكلمات من تلك التي تنضح غربة و بعادا و هجرا و رسائلَ مُنتظَرَةً؟ . . أهذا ربما لأن الأغاني لا تخاطب فينا إلا تصوراتنا عن الحبيب المثالي الذي لا وجود له في الواقع و نسقط على الحبيب إنسانا صفات ليست به لمجرد إرضاء وهمنا ما يقودنا الى الندم؟ . . يا طيف أنثاي المجهولة لأعترف لك . . أنا أرى أن الشرق ليس فيه حبيب مثالي! . . و لا حبيبة مثالية!

و أنا أخشى أن يتحول أي حبيبين بعد الزواج الى مجرد دميتين مثلما تقول شاعرة[16] في قصيدتها عن سندريلا:

سندريلا و الأمير
عاشا حسبما تقول الحكاية بسعادة دائمة
مثل لعبتين في علبة متحف
لا تزعجهما قماشات تنظيف الغبار
و لا يتجادلان حول حسن توقيت سلق بيضة
و لا يرويان القصة ذاتها مرتين
و لا يعانيان من فراق أواسط العمر
و تمضي إبتساماتهما الحميمتان نحو الأبدية
توأمتين ثقالتين متسقتين.
تلك هي الحكاية.

يا طيف أنثاي المجهولة . . لو أن الكرى يخطر في عيني كي أرتاح!

و تخفق فدوى في مقاومة إغراء الإستمرار بالقراءة . . و قبل أن تواصل سرحت عيناها مرة أخرى تجاه حمدان لترى إن كان الكرى ما يزال خاطرا في عينيه . . **وتعود الى الدفتر لتقرأ بنهم . .**

بعقوبة– يوم عيد المعلم ١/٣/ ٢٠٠١

هذا اليوم . . طالباتي في معهد المعلمات في بعقوبة أعددن لي إحتفالا خاصا . . غمرنني بالهدايا و معها بطاقات تحمل مشاعرا مؤثرة تجاهي . . ليت أحدا كان معي كي يرى بأم عينيه كيف إستحال عليّ

[16] الشاعرة هي الأمريكية آني سيكستن

أمامهن إخفاء تأثري بهذا الجو المشحون بعاطفة غامرة الألوان . . نعتنني بأب مِثالي ثم بمرشد أمثل و برجل مؤتمن . . ألنا حقا كذلك؟ . . جمعت كل البطاقات المرفقة بالهدايا و قلت لهن . . من كل هداياكن هذه البطاقات فقط هي ما سيدخل سِجل أرشيفي و صندوقي السحري الصغير و هذا يكفيني منكن. أما الهدايا فقد أرجعتها جميعها إليهن و رجوتهن أن يتفهمن أسبابي في زمن الحصار و هو زمن صار فيه المدرسون هم الذين يطلبون من طلبتهم هدايا و رشاوي. إستجبن لمطلبي آسفات و لكن متفهمات و مكبرات روحا تأبى الفساد . . و سوغت لهن ذلك قائلا . . ليت هداياكن هذه كلها كانت زهورا و عملتن منها طوقا تطوقن به أنتن بأيديكن رقبتي . . و ندمن أسفا لأن الفكرة لم تخطر ببالهن . . تناولت معهن شيئا حلوا و لكنه ليس أحلى من اللمحات الأثيرية التي أتناولها مع طيف أنثاي المجهولة!

بغداد- الحديقة الخلفية- كلية التربية (ابن رشد) ٢٠٠٠/٣/٣

تحدثت اليوم الى لمياء عن الإحتفال الذي نظمته طالباتي في بعقوبة بمناسبة عيد المعلم، فأبدت رغبة بزيارة المعهد. . زعِمت أنه مجرد فضول ينتابها لرؤية طريقتي في التدريس . . أظنها الغيرة! . . ألا يقال أن الفضول قتل القطة! . . غيرة إمرأة و فضول قطة! . . و ما في ذلك؟ . . نساء هذه الأباطح كلهن سواسية لا ترتاح إحداهن إلا بعد تطمغ الزوج بطمغتها كاملا غير منقوص! . . لتأتي إذن!

و أخبرت طالباتي في أسبوع تال أن زائرا سيكون معي ضيفا يشاركنا الدرس في يوم من أيام الأسبوع القادم، فأبدين إستعدادا لإستقبال الضيف.

بعقوبة – معهد المعلمات ٢٠٠٠/٣/١٧

هذا اليوم . . جاءت لمياء معي . . و صدق ظني . . الغيرة! . . ثمة أكثر من أمارة . . فكرة الزيارة لم تكن سوى ذريعة لكلينا . . غطاءً لا شعوريا لمآربِ أحبةُ كلانا و سعى إليه . . ميل للإستقاء من نبع معين عفويا و تلقائيا . .

حضور لمياء الى المعهد مفاجأة أصابت مديرة المعهد بالذهول و هي صديقة لزوجتي أم إبنتي . . هذه ديار لا أسرار فيها! . . و لا بد أن

يكون خبر علاقتي بلمياء قد وصل الى هنا . . إنذهال المديرة جاء لربما بسبب فرق السن الواضح بيننا . . ألحظها تنعم النظر بلمياء، ربما لتجري مقارنة فورية تقع بها النساء عادة في مثل هذه المواقف بنظرات خاطفة متفحصة . . و معاونة المديرة هي الأخرى زميلة لأم إبنتي، جاهدت كعادتها للحفاظ على وجهها باشا . . هذ المرأة معروفة بدمائة الخلق. رحبت المديرة بلمياء و تركتنا مع معاونتها لدقيقتين كي تعود و معها بثينة الصفار . . يا للخبث! . . أنا أتحاشى لقاء بثينة الصفار لمعرفتي بوجود زوجها معها في المعهد مع أني لم أكن قد إلتقيت هذا الزوج بعد . . و مع ذلك جرى التعارف وسط لحظات مشحونة بالإحراج و الإثارة و الإنفعال، سرعان ما فرَّجهُ دخولُ مدرسٍ علينا صدفة و عرفته بثينة علينا . . عدنان المجمعي زوجها . . أنا كنت على معرفة بالمجمعي كنت منذ جاءني يوما يسألني عن بثينة بنيتِهِ الزواج فأثنيت عليها إمرأة و زكيّتـُها له زوجة في المستقبل . و صوت جرس الدرس يدق و يكون عذرا مناسبا للإستئذان و الإنسحاب الى الدرس مصطحبا لمياء التي لم تفارقها عينا بثينة على الإطلاق . .

بناتي الطالبات عودنني على لياقة عالية في التعامل . . سكون إستثنائي لف الصمت المعتاد، هدوء و ترقـُب أستـُقبـِلتْ به لمياء . . ما كن يتوقعن أن الضيف سيكون إمرأة . . الأنظار كلها نحوها و لم تعـُد الأنظار إليّ إلا و أنا أقدم الضيف الذي وعدتهن بإصطحابه كي يشاركنا في درس الأدب . . ما كن يتوقعن أن يكون الضيف إمرأة! . . الفضولُ يطفحُ على الوجوه و الملامح بالذات حين قدمتها لهن بصفة صديقة . . أبصارهن تائهة . . يتأملنني وكأنهن يرينني لأول مرة و يتأملنها . . من تكون؟ . . مجيؤها كان حصاة ألقيت في بركة معهد المعلمات الهادئة من المشاعر و العواطف! . . فضولي أنا الآخر راح يجهد في تفسير ما تفصح عنه نظراتهن الماضية بتقليب الضيفة بكل الإتجاهات . . أنا واثقٌ من نوع الوقع و الدوي الذي أحدثه إحضار لمياء معي في دواخلهن . . و حتى أني توهمت و كأني أسمع ذاك الدوي يملأ أذنيّ على الرغم من السكون السائد في الصف، بل و ربما كان السكوت قد إزداد صمتا! . . غيرة تطفح على الوجوه . . إنفلات رغبات دفينة عصية على التخفي . .

سيماؤهن تتلون! . . بعضهن قد تكون ضاعت هباءً تصوراتهن الحالمة عن أستاذهن . . من تكون هذه السمراء الممتلئة؟ . . سمات الطالبات تعكس ردود أفعال يتفاوت تفسيرها عندي بين ذهول و إعجاب وتعاطف و فضول و غيرة . . بل قل و حتى لربما رضا . . و بعد لأيٍ فسحت إحداهن في الصف الخلفي مكانا للضيفة . .
و قبل التحدث عن كرستينا روزيتي الشاعرة رحتُ أعيد قراءة قصيدتها الشهيرة When I am dead, my dearest . . صمت مهيب يرين على الجميع أثناء القراءة . . و في حصة سابقة كنت قد فسرت ثيمة القصيدة و ما فيها من تفانٍ واضحٍ و صادقٍ . . أنا بانتظار ردود أفعال الطالبات على ثيمة القصيدة . . أتحدث مرة بالعربية و مرة بالإنگليزية متيحا لجميع الطالبات التواصل معي . . لا حاجة في هذه المرحلة لتحليل بنيوي للقصيدة و التركيز على الثيمة و دلالاتها كي نتيح لمزاج الطالبات و هن يقرأن القصيدة أن يعبرن عن أنفسهن بحرية و تلقائية . . الطالبات مأخوذات برقة و صدق مشاعر روزيتي الإنسانية بخاصة بعد أن أخبرتهن بإخفاق الشاعرة في الحب أكثر من مرة لدرجة أنها قررت آخر الأمر ألا تحب و تتزوج على الإطلاق . . شجعت الطالبات على الحديث و كن متأثرات بمشاعر الشاعرة أمرأة و إنسانة . . أغلبهن من قرى محيطة ببعقوبة و مساهماتهن تحرك المشاعر و تدل على فطنة و لهفة على معرفة المزيد . . شجعتهن و ها هي الثمار تؤتى! . . يتحدثن بحرية يفتقدنها في بيوتهن عن المشاعر الإنسانية و الحب و الإخلاص و التضحية المتناهية و ألم الفراق الأبدي بين المحبين . . بعضهن قلن بحمى شعور جمعي أن ليس من العدل أن ينسى الحبيب محبه بمجرد رحيله من هذه الدنيا . . و طالبة وحيدة منهن، و كانت أذكاهن على الإطلاق، أعربت عن رأي مغاير في حق الإنسان بالحصول على فرصة ثانية . . و ثالثة! .

. . . وتتوقف فدوى عن القراءة فجأة لتسرح لاشعوريا تجاه حمدان الذي بدى غافيا تردد لنفسها . . المهم فرصة ثانية و ثالثة و الحي أحق بالرحمة . . يعني يا أستاذ جربة عندك هوني ... لمياء و بثينة الصفار و جمع الطالبات اللي بعضهن تفاجأو بحضور لميا و غارو

منهـا عليـك بالتأكيـد . . مـين هـي لميـا؟ . . و مـين هـي بثينـة الصـفار و كـان فـي جـو إحـراج لمـا عرفتهـا بـالزات علـى لميـا؟ . . المهـم هـو هيـدا الطيـف اللـي تحكـي عنـو هـوني . . هـو تبـع أي واحـدة مـنهن؟ . . رمـز لميـا! . . إشـارة لبثينـة! . . لواحـدة مـن طالباتـك كـان بـدك تغيضـها و تغيـّرها و جبتلهـا لميـا! . . و إلا لـيش جبـتلهن لطالباتـك لميـا ضـيف؟ . . و ليش عرَّفتها على بثينة؟ . . **ثم توصل القراءة متلهفة . .**

. . الحيـاة لا تتوقـف، فأطريـت أنـا الـرأي الجـرئ للطالبـة المغـردة خـارج سـرب زميلاتهـا و أثنيـت علـى شـجاعتها و تطرقـت الـى قـول شكسـبير . . صـحيح أن المحبـين مـاتوا و لكـن الحـب حـي لا يمـوت! . . ثـم تطرقـتُ الـى الألـم الإنسـاني . . و الـى موضـوع طابعـه الوجـودي و فحـواه التسـاؤل فيمـا إذا كـان الألـم هـو جـزءٌ مكـونٌ أسـاسٌ فـي تركيبـة الكـون أم أنـه شـئٌ عـارض جـاء مـع وجـود النـوع الإنسـاني و أصـبح لـيس أكثـر مـن إسـقاط يمارسـه البشـر علـى نـوعهم بعـد خـروجهم مـن مملكـة الحيـوان . . حسب علمي أن بعض الحيوانات أيضا تبكي!

و عقبـت بعـض الطالبـات بإضـافات قليلـة . . و قـد أكـون واهمـا . . خلت أن في بعض تعليقاتهن لربما تلميحات مبطنة للضيفة و الأستاذ!

و سـرعان مـا إنقطـع النقـاش مـع رنـين جـرس الفرصـة، فشـكرنا أنـا و لميـاء الطالبـات و إسـتأذنا مـنهن و مشـينا خـارجين، و سـرعان مـا تحلقـت الطالبـات مـن حولنـا فـي السـاحة إرضـاءً لفضـول تفضـحه عنـد بعضـهن نظـرات غيـرة و إضـطراب و إرتبـاك مـن نـوع مـا . . و أثنـاء إنشـغالنا بالحـديث مـع جمهـرة الطالبـات لحـظتُ بثينـة الصـفار تراقـب مشـهد مغادرتنـا مـن وراء نافـذة غرفـة المـديرة، و علـى الـرغم مـن ضـبابية زجـاج النافـذة خـُيـّـل إلـي أن الأسـى يطفـح مـن وجههـا علـى زجـاج النافذة و يسفعه مرتـدا الـى وجههـا مثـل موجـة مدّ عاليـة تنفث حسـرات و لظى . . بعد دقائق كنا خارج المعهد . .

و تتوقـف فـدوى عـن القـراءة ينتابهـا فضـولٌ كاسـح . . يـا سـيدي النـايم أنـا كمـان بـدي أتنـور . . نـورني يـا أسـتاز جربـة! . . بثينـة تراقـب مـن ورا النافـدة و حزنهـا و غيرتهـا تفـيض علـى زجـاج الشـباك ؟ . . ويـن الفـزورة . . هـي شـو بالنسـبة إلـك؟ . . و تجيـب كمـان لميـا! . . مـين فـيهن هـي الأنثـى الوحشـية؟ . . و هيـدا الطيـف اللـي تحكـي عنـو هـو تبـع

مين؟ . . بثينة! . . لميا! . . واحدة من طالباتك و جبتلهه لميا تغيّرها بيها؟ . . مجرد لعبة إثارة إهتمام و غيرة عند واحدة من الطالبات؟ . .
و تمضي قراءة فدوى بفضول يتزايد . .

بعقوبة- السبت ٢٤/٣/٢٠٠٠
حضور يا طيف أنثاي الوحشية هو في آنٍ مثل كل مرة و ليس ككل مرة . . يغمرني إحساس جديد تنطلق به قيثارة الأثير بأنغام بولوفونية . . كل وتر فيها يصوغ لحنا نغميا مختلفا من ألحان نشوة غامرة . . و تتآلف الأنغام فأحسها بإنتفاضاتي و الطيف كأنه سحابة يتضمخ بها سقف أول كهف جمع كائنين وحشيين في تاريخ الرض حول موقد نار و من هناك خرجا بالرغبة الى رحاب الحب . . ميل لاشعوري بالعودة الى رحاب طردهما منها الله غيرة! . . العزف عزفي و الأغنية أغنية الطيف . . الطيف كأنه قارة تموج في كياني! . . يا ربات الحب! . . يا شمخات المؤنِسة مروضة المعاندين بوحشيتهم! . . يا نينيتي سيدة الحياة! . . رفقا بي من نشوة يغمرني بها طيف أنثاي المجهولة! . .
و تنقطع فدوى عن القراءة سارحة بنظرها نحو حمدان مستثارة . .
و كمان يا أستاز جربة . . كان فيه عندك شمخات و نينيتي . . مين هشَمَّ دول؟ . .و شو هالأسماء الغريبة؟ . . أي واحدة منهن هي أنثاك الوحشية؟ . . أو إنتَ إحتمال بتحكي مجرد خيالاتْ . . و بهيَدي الحالة . . فيه إحتمال تكون أنثاك الوحشية المجهولة إشي تتطلعلو لساتو ما متحقق . . و إحتمال هذا الطيف راح تلبسو واحدة من مدرسات المدارس العالمية! . . و تبهرها خيالات فكرتها فتحلم . . و **تواصل القراءة . .**
. . يا طيف الحب الوحشي رفقا بكهولتي! . . يقول كولن ولسن إن الفن يوفر لنا متعة لا تضاهيها متعة سوى المتعة المتولدة من ممارسة الحب لأنها عند ذروتها تترك المرء رضيّا و خاليا! . . فكيف و أنا أمارس الحب مع طيف أثيري لأنثى وحشية؟ . . ما أن يغادرني هذا الطيف يتركني رضيا و خاليا! . . الحب هو كرنفال الفن البدائي . . بل و أزعم إن الفن تولّد من الحب! . . فولّد بذلك نيات بلغ عددها عدد الطيور . . مستوطناتٍ و مهاجرة . . الطيف ينفث أنفاسه برموز

لغات الماء كلها . . هو سيمياء مياه . . تنوع هائلٌ و بساطة و غنى . . سموٌّ خليطُ من الحسي و و ما فوق الحسي . . يا طيف لستُ شهريارا . . غير أني يا طيف أنثاي أراك في كل مرة جديدا! . . أنا العازف الأزلي و طيف أنثاي هو القيثارة . . أنا عازف كل الآوانات المطلقة. . و يهمس لي الطيف . . أناملك على أوتاري تذهب بي الى حيث عرش الرب و سدرة المنتهى! . . بشراك إذن يا طيف فأنت الذي يغشى هناك ما يغشى! . . الطيف يصيبني أحيانا بعدوى أثيريته . . طيفين أثيريين . . و شِعَبٌ يصعب وصفها!

بعقوبة ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٠

أزعم أن لكل منا أسطورته الخاصة . . يبتدعها لنفسه بنفسه؟ . . فأتساءل أحيانا أنحن نعيش حياتنا على وفق تفصيلات رواية مكتوبة سلفا؟ . . لا أنا لا أؤمن بمقولة اللوح المحفوظ! . . أم ربما نعيش فصول رواية لم تكتب بعد؟ . . ما أكثر ما يلتبس الأمر عليّ هنا . . بخاصة في الوقت الذي يختلط فيها عندي الوهم بالحقيقة . . و الواقع بالخيال . . بحيث يتعذر عليّ معرفة ما إذا كنت أعيش حلما أخاف أن أصحو منه . . أأنا في رحلة حقيقية في عالم السحر و الأطياف للبحث عن الأنثى الوحشية التي إخترعت هي و رجلها المتوحش أول قبلة في الكهف و على ضوء لهيب نار الموقد، فأهتزت لها صخور الكهف و حصل أول زلزال في تاريخ كوكبنا الأرض! . . أسينتهي هذا السحر على غير توقع! . . ثم . . ما أصل هذا الإحساس و ما مصدره؟ . . يا للدهشة! . . أهو ربما لأن الأشياء لا تبدو لنا جميلة بهيجة لأن دوامها بذاتها قصير الأجل؟ . . أم أنه قصور راسخ فينا نحن عن بلوغ الغاية فصرنا نشبه تماما السهم الفلسفي الذي لا يبلغ غايته، لأنه يظل أبدا منشغلا بقطع أنصاف المسافات؟ . . أهو خوف كامن فينا؟ . . لا أذكر من حولي شيئا سوى حلم صحوت منه . . أنا السهم الفلسفي . . لازاروس الخارج توا في منتصف المسافة بين عالم الأموات و الأحياء مشغولا بقطع النصف المتبقي من المسافة التي لن يتسنى لي قطعها كاملة . . فأجد نفسي صارخا . . أنا العائد إليكم من عالم الأموت! . . فأين أنت يا طيف أنثى الوجود الضائع؟ . .

و تسمع فدوى وقع أقدام خارج الغرفة . . و تمتعض من وقع تلك الأقدام تقطع عنها فيض سحر الكلمات . . فتنقطع مجبرة عن القراءة و ترمي بالدفتر جزافا لتعيده الى مكانه على الطاولة. و صدق ظنها النقشبندي قادم.

عند دخول النقشبندي وجدها سارحة بحمدان المغمض العينين، فتقدم منها ليضع كيس الأدوية على الطاولة، و ملقيا هو الأخر نظرة على حمدان . . همس لها:

- آسف مس فدوى . . تأخرت عليكي شوي . . كيف قضتي و قتك مع الموسيقى؟

و لأنه ما تزال تعيش أجواء ما قرأته للتو في أوراق حمدان، أفلت لسانها لاشعوريا قائلة:

- شو هو هذا طيف الأنثى اللي ما عرفنا إسمها؟ . . تبع مين؟ . . بثينة! . . لميا! . . واحدة من الطالبات المغرمات! . . و كمان . . جايبلنه . . شو سمتاهن؟ . . نينيتي و شمخات و ما بعرف شو كمان!

و يلتفت النقشبندي نحوها مستغربا تساؤلاتها، و قبل أن يعقب أو يسأل، أدركت أن لسانها أفلت، و لكي تداري قامت بحركة تنضح إرتباكا تحاول بها إغلاق الدفتر . . فوجدت نفسها تكذب مبررة:

- أستاذ نقشبندي . . هيدا فلم عربي تفرجت عليه مبارح!

النقشبندي يكتم ضحكة لظنه أن الغيرة من شئ ما وشيت بنفسها . . فأثناء تجهيزه قرص فيتامين سي فوار و ضاعاً إياه في قدح و معه قرصا دواء، لم تفته رؤية الدفتر الذي نسيته مفتوحا على الطاولة، و حاولت فدوى تصحيح نصابه بحركة مرتبكة فضحت بها نفسها . . حمدان لم يكن غافيا أصلا أكثر مما هو مستسلم للوهن الذي غيَّبه عما يدور حوله، فأيقظه النقشبندي كي يشرب الدواء، و عرض عليه البقاء معه لغاية أن يتقوى، فرفض حمدان موضحا أنه بدأ يسترجع قواه على الرغم من الدوخة التي تلازمه . . و قبل أن يغادرا قالت فدوى لحمدان:

- هلق إطمئنا عليك . . لكن راح يظل قلبي عليك و معك! . . و كمان راح أظل أحكي معك بالموبايل من شان أطمن عليك أكتر!

يشكرهما حمدان و تظل عينا فدوى معلقة بالدفتر و هي تغادر، تقتلها رغبتها بقراءة المزيد و يعذبها فضول معرفة أي من النساء اللاتي ورد ذكرهن فيما قرأته هي التجسيد للطيف . . أيهن هي الأنثى الوحشية؟ . . و لحق بها النقشبندي بعد همسه في أذن حمدان:

- بصراحة أستاذ حمدان . . هلق صار عليك بجد لازم تنقل سكنك لمرج الحمام . . إنتَ شغلك كلو بمرج الحمام يا سيدي . . تمام؟
- صحيح.
- طيب . . أشوف لو نلقّيلك سكن هناك قرب المدرسة!
- راح نشوف!

* * * * *   * * * * *

أيام الجمعة . . إعتاد حمدان على النزول الى السوق في وسط البلد . . ثمة مطعم مجاور لمحطة الباصات في الساحة الهاشمية يقدم وجبات طعام عراقية يتناول غداءه فيه. و ماشيا من هناك يقطع الساحة الهاشمية وصولا الى سوق الخضار المجاور لمسجد الحسين. يجمع إحتياجاته و يشتري جريدتين تصدران الجمعة ملحقا خاصا بالأدب و الفن.

. . الساعة تجاوزت الحادية عشرة بقليل عند نزوله من الباص في الساحة الهاشمية . . خطر في باله أن شعره يحتاج الى ترتيب، فعاد إلى وسط البلد حيث الحلاق الذي إعتاد عليه منذ مجيئه الى عمان . . بعد الحلاق لا بد من جولة في سوق البالة القريب و قد إعتاد على المرور به بين جمعة و جمعة يتخير من الملابس المستعملة المتوفرة . . إدراكه لقيمة المال جاء متأخرا، مع أنه إعترف مائة مرة ببعد نظر القائل . . الفقر في الوطن غربة و المال في الغربة وطن! . . دَخلـُهُ ما يزال لا يقوى على إمداده بفرحة شراء ملابس جديدة عدا الملابس الداخلية . . و من السوق إنحدر بعدها سيرا بإتجاه الساحة الهاشمية داخلا إياها من جهة المسرح الروماني، متوانيا و متفرجا على البضاعة التي يعرضها الباعة داخل الساحة الهاشمية على طولها و على الرصيف الذي أمامها. و بتأثير حرارة الشمس فوق رأسه، توقف أمام بائع للقبعات:

- يعطيك العافية . . قديش هيدي القبعة؟

- بليرة و نص سيدي.
- لا . . كتير! . . نقول ليرة؟
- و لا يهمك سيدي . . تقول ليرة خليهه ليرة . . معوّضين إن شاء الله!

يضع حمدان القبعة على رأسه و ينظر الى نفسه في مرآة يناوله إياها البائع و يدمدم لنفسه . . كاري كوبر؟ . . جون وين؟ . . أيهما لا بأس طالما أصبحنا نسخا في طبعة رخيصة! . . ثم ينقد البائع دينارا أردنيا و يمضي. و مرورا بموقف الباصات، في آخر طرف الساحة الهاشمية شرقا، دخل حمدان . . مطعم الشباب . . لم يجد مكانا غير كرسي على طاولة لمّت حولها ثلاثة رجال . . و يطلب . . وجبة تبسي باذنجان و رز . . و ها هي وجبته تحُط رحالها أمامه و يشرع على غير عادته يأكل على مهل مستمتعا بمذاق الباذنجان المالح المقلي مع بطاطا و طماطا و بصل في مرقة ثخينة جدا ذكرته بمرقة باذنجان أمه أيام زمان.

و يطلب شايا يشربه و يغادر آخذا طريقه نحو وسط البلد للتسوق. و بعودته نحو موقف الباصات في الساحة الهاشمية، إشترى من بائع صحفٍ في الطريق جريدتي الدستور و الرأي. يصعد الى الباص، فيجده خاليا،و يتخيّرُ الجلوس في مقعد خلف السائق، واضعا أكياس تسوقه بين رجليه، و شغل وقته بتقليب صفحات الجريدتين . . الراكبون يصعدون الباص فرادى . . و ها هو يعثر على خبرين يهمانه . . عرضُ فلم في اليوم ذاته الساعة السادسة مساءً في قاعة الفنانين الأردنيين عن حياة الشاعر تي إس إليوت . . و خبر آخر عن حاجة كلية تارازانتا لمدرسين، فتذكر المرة التي ذهب بها الى تارازانتا عند مجيئه الى عمان و تمنوا له حظا سعيدا لعام قادم . . الذهاب الى هناك مرة أخرى لا ضير فيه! . . و ها هو خبر ثالث وجده أول الأمر لا يعنيه لأنه ملَّ منذ زمن بعيد قراءة أو سماع أخبارا لأحداث لا تخلو من سماجة . . سفير العراق ياسين الصبّاحي يتحدث بعد حوالي أسبوعين في قاعة نقابة الفنانين الأردنيين في ندوة عنوانها . . حصة العرب في نفط العراق . . و يبلغ سخطه الذروة . . طززززززززز بالعرب! . . و طززززززززززززززز بالنفط! . . و طززززززززززز بسفير بعير لرئيسٍ فرير! . . وحشٌ

علينا و في الحروب ألعوبةً ميكانو! . . و يتذكر محمود الحسيني . . و الكل كس أختووووووووووووو! . . الرئيس و النفط و العرب! . . و مع ذلك، عندما يأزف موعد الندوة سيأكله الفضول مثلما أكل القطة و قتلها، سيجد من الأسباب كثيرةً مما يهمه و يعنيه في تلك الندوة . . و سيذهب.
الركاب يصعدون فرادى و هو منشغل بتقليب صفحات الجريدة . . مرور سريع على العناوين الرئيسية . . و يقرأ عمودا عن تصاعد لهجة الرئيس الأمريكي جورج بوش عما سماه مؤخرا بمحور الشر و دوله الثلاث . . العراق و إيران و كوريا الشمالية . . و يخص العراق بخطاب أسخن بكثير من خطابات سابقة. و يتساءل حمدان . . أولئك السحرة الأشرار . . أهم آتون بجيوشهم قريبا؟ . . و تمر عيناه على العناوين الصفحات الداخلية و تتطلعان أحيانا الى باب الباص . . لديه فضول لرؤية مطلع الآدمي و هو يصعد الباص! . . و في مرة من المرات يلفت إنتباهه وجه إمرأة تصعد الباص . . أين رأى هذا الوجه؟ . . تقدمت السيدة إليه و توقفت عنده مادة يدها تستعطيه دون كلام. و لكي يعطي ذاكرته فرصة إستحضار الموقف الذي رأى به وجه المرأة، فطن لحيلة البحث عن نقوده في جيوبه كي يخطف نظرات إضافية الى وجه المرأة عساه يتذكر. رمى الصحيفة من يده في المقعد المجاور و وقف متصنعا البحث عن قطع النقد . . آه! . . و أخيرا ها هو يتذكر . . سيدة القروش! . . وضع في يدها قطعة خمسة قروش، مستزيدا من التطلع بوجهها. و تمضي المرأة في طريقها الى داخل الباص . . أي لغز! . . ما الحكاية؟ . . تستجدي من الناس و تضع ما تجمعه في يد أي عابر سبيل يصادفها؟ . . أم ماذا؟ . . ما الذي يجري في زمن السخط هذا؟ . . أعروة بن الورد في عصر الإنحطاط هذا! . . أروبن هود!
طوى الصحيفة التي في يده و ضمّها الى الأخرى و تهيأ كي يتفرس مزيدا في وجه المرأة حين تمر نازلة من الباص. و تعود المرأة الى باب الباص، فيتطلع الى صفحة جانب وجهها و يحاول ربط صورتها بما رآه من جانب صفحة وجه سيدة القروش ذات مساء . . و تبددت عنده آخر الشكوك . . تسع و تسعين بالمائة إنها هي نفسها المرأة واهبة الحفنة قروش . . بنزولها من الباص لم يستغرق الأمر من

حمدان سوى ثوان ليقرر النزول وراءها. و بمجرد نزوله حاملا مشترياته تحرك الباص مغادرا الكراج. ظلت عيناه عالقتين بحركة المرأة التي صعدت باصا يقف في موقف خط سير آخر . . هو في صراع . . ما الذي يريد معرفته؟ . . مشدودا لحل لغزها . . ما الغاية؟ . . إمرأة تبسط يدها سائلة لتذكر الناس بإنسانيتهم؟ . . أم لمجرد الرغبة بمعرفة أن البشر ما يزال فيهم خيرٌ يصنعونه! . . تستجدي و ما تجمعه يدها تضعه في يدٍ أخرى! . . و ها هو قد وضع للتو حلا غفتراضيا لما تقوم به السيدة . . فما باله إذن؟ . . و لم يريد أن يعرف السبب؟ . . و ماذا سيفعل إن لم تنزل من الباص؟ . . أسيصعد وراءها؟ . . في غمرة صراعه مع نفسه رآها تنزل . . الصراع يتفاعل . . هو بصدد تحديد غايته من تتبع المرأة إن إحتاج الى تتبعها . . و تجتاح رأسه فورا ذكرى مغامرته في ليبيا و ما حصل هناك في نزوة من هذا النوع . . نزوة! . . أكانت نزوة؟ . . ألنا شارلوك هولمز؟ . . مرة أوديسوس و لغاية غير واضحة! . . و مرة شارلوك هولمز و ليس لغاية! . . أم لغاية؟ . . أهذه أيضا بداية تحقيق نزوة؟ . . أوديسوس! . . يا أوديسوس! . . و يظل فضوله أكبر من أن يكون قادرا على قمعه في داخله . . و يراها تصعد في باص لخط سير آخر مجاور . . و ها هو يقرر . . أكياسه بيده و ينتظر . . أيصعد وراءها إذا بقيت في الباص؟ . . و ها هي تنزل، فيتبحر في وجهها ليختبر ما جال في رأسه من حدوس . . وجه بسيط نحيل تشوبه سمرة خفيفة و لا يخلو من جاذبية لمن يتأمله جيدا. و مثلما قدر حين خطف نظرة إليها و هي تضع القروش في يده . . المرأة خمسينية على الأرجح بمسحة حزن أضفت على نحول الوجه جمالا أنثويا يشدُّ الإنتباه ببساطته . . و ترمقه المرأة بنظرة خاطفة و هي تمر، فإلتفت وراءها ليرى الى أين ستتوجه . . كاليبسو!

رآها تترك مواقف الباصات الحكومية و تتوجه الى موقف سيارات المينيباص و تاكسيات السيرفس. فضوله يتفاقم، فيتبعها من بعيد. و يراها تصعد في ميني- باص تشير لافتة خط سيره الى . . جبل لويبيدا . . يا أوديسوس هذه المغامرة لن تكلفك ركوب طيارة! . . و يحدس أن المرأة لبدت في الباص و غير نازلة منه. و على الرغم من حزنه الشديد بتذكره بثينة الصفار و ما جرى في ليبيا، صعد

الميني‌باص جالسا في المقعد الخلفي خلف مقعد المرأة مباشرة، فشم منها شذى لطيفا و باردا . . إمرأة ذكية ليست رائحتها كرائحة باقي الشحاذين! . . وقوفها أمام أي مُستـَعطى يبعث إرتياحا . . بعد دقائق يتحرك الميني- باص مغادرا الكراج و مخترقا الساحة الهاشمية بإتجاه جبل لويبيدا.
يسير الباص في الشارع الرئيس لمنطقة لويبدا لبضعة دقائق، فيسمع صوتا مريحا للأذن يقول:
- . . يعطيك العافية أسطة!
يتوقف الباص و تنزل منه السيدة، و يتبعها حمدان بالنزول . . ظل واقفا على الرصيف يتابعها تعبر الشارع و تمشي، فمشى وراءها تاركا بينهما مسافة بضعة أمتار. و يراها تتوقف أمام عمارة جديدة أمامها حوضي زهر يجلس على طرف أحدهما رجل تجاوز مرحلة الكهولة. و يتوانى حمدان قليلا على الرصيف تاركا مسافة تمكنه من رؤية و سماع ما يحدث. رآها تمد يدها في جيب قمصلتها الأيمن لتخرج حفنة نقود بدى له أنها تتخير منها ضم تضع جماع ما في كفها في يد الرجل و سمعه حمدان يضج رادا عليها:
- . . كثّـر الله من أمثالچ أم بطرس . . هذي همين من الويلاد بأستراليا؟ . . سلميلي عليهم و أشكريلياهم!
من بعيد بانت له لهجة الرجل عراقية الى حد ما، و سمعها ترد بنبرة لينة مليئة بوقار نادر:
- أبو محمد . . هايدي من نِعَم الرب!
و يراها تسير عشرين مترا أخرى مستديرة الى اليمين لتدخل عمارة قديمة، فخف حمدان رجليه وراءها كيلا تفوته معرفة المكان الذي تدخله و محاذرا ألا تكتشف المرأة غايته . . لحق بها تصعد السلم و صعد وراءها . . في الطابق الثالث توقفت المرأة أمام باب من أبواب الشقق الأربعة، و أخرجت من جيب قمصلتها الأيسر سلسة مفاتيح و ضعت أحدها في الباب. و محاذرا ألا تراه، إستمر حمدان صاعدا السلم الى الطابق التالي كيلا يثير ريبتها . . أجمل ما في سكان السكن العامودي في عمان هو ألا شغل لهم بما يجري عند جيرانهم! . . و هو هناك سمع باب شقة المرأة ينغلق، فعاد نازلا الى الشارع.

و من أجلِ أن يأخذ نفسا عميقا و يفكر في ما رأى و يفسره، مشى على مهل مطرق الرأس لغاية أن وصل الى العمارة حيث يجلس الرجل الذي تلقى من المرأة العطاء. الرجل ما يزال جالسا على طرف حوض الزهور . . أهو بواب العمارة و حارسها؟ . . . هذا ما خطر ببال حمدان. يسلم على الرجل و يضع أكياس تسوقه على الرصيف و يسمع الرد على تحيته أثناء ما كان يجتلس طرف حوض الزهر الثاني أمام العمارة . . . و يضيف الرجل:

- مساك الله بالخير!

ذيلُ تحيةٍ لا يستعمله أحد غير العراقيين . . فتأكد حمدان من عراقية الرجل. و يستغرق أمر المرأة تفكير حمدان كله . . ما الذي أردته من مجيئك وراء المرأة؟ . . ها أنت قد عرفت و تأكدت بأنها تجمع النقود من الناس كدية و تعطيها لغيرهم! . . و ما الغاية؟ . . إمرأة من هذا الطراز النادر وسط الأردنيين الجافين مثل جفاف الصحراء و في زمن السخط هذا! . . مفارقة! . . و يلح على نفسه بإختراع تبرير يبيح له الذهاب الى نهاية منطقية في ما يجري بإستقصاء لغز هذه السيدة . . و راوده خاطرٌ . . أمثلما حصل مع حيثيات قرار الذهاب الى ليبيا؟ . . قلبه يغوص مرة أخرى في هاوية و لكن لها قرار . . أوليست لديك نية كتابة رواية؟ . . ها هو التبرير و ها هي إذن ثيمة الرواية أمامك و لا يتبقى سوى معرفة التفاصيل . . و كيف أعلم التفاصيل دون إتصال بالمرأة؟ . . عند هذه المحطة من التفكير قام حمدان لاشعوريا. لكن الرجل الذي ظل ربما يراقب حمدان منذ جلوسه على حوض الزهر قبالته . . إستفسر من حمدان:

- عمي أشوفك حاير و غرضاتك وياك! . . إنت جاي تدوّر هنا على شي؟ . . گولي و آني حاضر أساعدك باللي أگدر عليه!

و في غمرة إنشغاله بإتخاذ قرار يتذكر ما قرأه عن حاجة كلية ترازانتا الى عمل. و متصنعا البحث عن عمل . . يرد على الرجل:

- آني مدرس . . و جاي أدوّر عن عمل! . . و يگولون كلية تارازنتا هنا بالمنطقة.
- أي تمام . . هاي هي كلية تارازانتا گريبة بذاك الفرع . . توكل على الله و مرّ بيهم! . . خويه بس اليوم جمعة . .

صحيح هي مال مسيحيين . . يگعدون بالجمعة ما يگعدون؟ . . ما أدري!

و الرجل يتحدث إليه تذكر حمدان حكمة قافز الزانة، التي دأب على تذكرها في مواقف مشابهة . . يرجع القافز الى الخلف بضعة أمتار من أجل تحقيق قفزة أفضل. فقرر أن يدخل للمرأة و لكن في يوم آخر و رد على الرجل شاكرا:

- إي . . و مثل ما تگول . . أروحلهم!

و يستأذن من الرجل و يمشي عائدا. و بعد حين سيأخذ أول مينيباص يمر به ذاهبا الى الساحة الهاشمية . . و في الباص راح يعد خطة يسوغ بها دخوله بيت المرأة.

* * * * *   * * * * * * * * *

عند وصوله المسكن رتب وضع الأشياء التي جلبها في الدولاب . . و نظر في ساعته . . ما يزال أمامه أكثر من ساعتين قبل موعد عرض الفلم في نقابة الفنانين، فنضى عنه ملابسه و دخل السرير بملابسه الداخلية و راح يبحث عن الموسيقى في الراديو . . و جاءته الأوركسترا تعزف كونشيرتو بيانو للموسيقار گرَيگ و سرعان ما أغفى.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

الساعة تقترب من السادسة . . المساء النيساني في عمان يحمل قرصات برد يجدها هو لذيذة. يدخل حمدان نقابة الفنانين، فيجد المكان خاليا إلا من بضعة أشخاص. و يسأل عن القاعة فيدلوه عليها. و يخطو داخل قاعة العرض الصغيرة، فتواجهه شاشة العرض مقابل الباب و يتلفت في القاعة، فيجدها خالية تماما. قرر الجلوس في الصف الأول من المقاعد ينظر الى ساعته . . دقيقتان و يبدأ العرض، و يسمع خطوات من ورائه، فيلتفت فضولا ليرى الداخلين. و لم يكن ثمة سوى رجل واحد، بدى له ثلاثينيا، يتقدم من الصف الأمامي. الرجل يتلفت قبل أن يختار مقعدا لا يفصله عن حمدان سوى مقعد واحد، و يلقي السلام قبل جلوسه . . و يسمعه حمدان يعلق:

- ما حدا بهذا البلد إلو شغل بالثقافة و الشعر و السينما و غيرو!

يا غريب كن أديب! . . لم يعلق حمدان أو يعقب لكن الرجل فضل تقديم نفسه قبل أن يواصل الحديث. و مادا يده تجاه حمدان . . يتواصل:

- طالما إحنه لحالنا . . و ما فيه حدا غيرنا . . إحنه الإنسانين الغريبين اللي جايين نشوف سينما! . . لازم نتعرف على بعض . . شو رأيك؟

و يمد حمدان يده نحو الرجل:

- حمدان الجربة . . مدرس إنگليزي.
- ناهض حتـثـر . . إعلامي . . أنا أعرف إن الجربة موجودين بالعراق و بسورية
- عراقي!
- على الراس . . هو صحيح إحتمال الفرجة على الفلم في دور عرض السينما تكلف مصاري . . و لكن هوني تتوفر الفرصة بلوشي . . الناس ليش ما تجي تشوف أفلام و تتنور؟
- أستاذ ناهض . . الذهاب الى السينما إلو تقاليد . . و الحال من بعضو . . إحنه في العراق . . ما كان فيه بلدة ما فيها دار عرض . . حتى لو كانت أصغر بلدة . . بغداد كان فيها عشرات دور العرض الكبيرة و الزغيرة . . كلها هلق بدت تختفي بالتدريج . . عورة بالوعي تعم المنطقة!
- أحسنت التعبير . . فعلا عورة بالوعي! . . البدو بإمكانهم الرجوع قهقرى بوعي الناس و قت ما بدهم!

و إنطفأت أنوار الصالة ليبتدأ العرض و توقف الكلام المباح و المتاح بين ناهض و حمدان . . و عند إنتهاء العرض تمشى حمدان و ناهض خارج نقابة الفنانين . . و شرع ناهض معلقا:

- أستاز . . الشاعر بزاتو . . أي شاعر بمستوى إليوت . . هو شويه أقل من نبي! . . و على اللي شفناه بالفلم . . لِزالك بدي أعرف . . شاعر كبير مثل إليوت شو حاجتو يبدل مذهبو من طائفة الموحدين الى طائفة الأنگلوكاثوليك . . شو الفرق؟ . . الأديان و الطوائف كلياتها متساوية بأساسيات . . متساوية بأشياءها الكويسة و هي قليلة جدا . . و متساوية بترهاتها و هي عشرات أضعاف الإشي الكويس اللي بجي منها!

- أتفق معك!
- أقصد هو بوصفو شاعر هو بحاجة الى دين إزا كان شعرو و فنو يجددلو طاقتو الروحية مع كل قصيدة؟ . . إنت قريتولو شعرو؟
- بالتأكيد . . و بحث التخرج تبعي بالبكالوريوس كان عنو . . و ترجمت منو أكتر من قصيدة . .
- جميل . . همَّ مُش بيقولو إن الفرق بين النبي و الشاعر مجرد شعرة؟
- بيقولو هيك!
- طيب . . أنا برأيي إن الشاعر لازم يكونلو دينو الشخصي اللي مالو علاقة بكل الأديان و الطوائف . . و إلا فهو ليس بشاعر! . . زي المتنبي مثلا مع إنهم ما تركو يكمل دينو!
- وجهة نظر!

و يشير ناهض الى مينيباص قادم فيقطع كلامه و يستأذن من حمدان و يستقل الباص . . و يمضي حمدان لوحده ماشيا لمسافة طويلة في ليلة يتبدد بعض ظلامها بالأنوار الكابية المتناثرة في الشارع. و أوقف مينيباص ركبه.

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

بعودته السكن خرج الى سطح العمارة، و شرع يتطلع الى السماء تتناوب فضاءها النجوم و السحب و الى أنوار سي تاون المتلألئة بإنتشار ضوئها نحو الدوار السابع و عبر النفق المجاور . . أمامه مهمتان تتطلبان العودة الى جبل لويبدا . . أم بطرس و كلية تارازانتا . . أسيكون بمقدوره إنجازهما بِرَوحَةٍ واحدة؟ . . ممكن! . . و نيته الإنتقال الى كلية تارازانتا تولدت من رغبته الخلاص من زعران المدارس العالمية الصغار السن . . تارازانتا مدرسة إعدادية للمسيحيين المارون و تلامذتها أكبر سنا و فارق السن برأيه أمارة على النضج النسبي . . و ها هي ندوة السفير العراقي تراوح في باله، فينتابه فضول لمعرفة الكثير عن صفاقة دبلوماسسي الفوهرر . . أجل بإمكانه الذهاب في وقت متأخر الى تارازانتا و من هناك الى أم بطرس . . و بالنور الخافت الواصل من أضوية سي تاون يرى خيال رجلين يظهران من حيث لا يدري . . من اللامكان! . . و أسوأ ما في

السكن العمودي يظهر حين تكون العمارات متلاصقة بحيث يسهل التسلل من واجدة الى أخرى دون علم أحدا! . . و يرى أحدهما يمد يده إليه قائلا:
- علي السبسي! . . طالب بجامعة اليرموك.
و متطلعا الى ملامحهما و من لهجة المتحدث تعرف على تونسيته . . فرد:
- حمدان الجربة . . عراقي!
و لم يتحدث الثاني و لم يزد حمدان و إستاذن منهما تاركا إياهما على السطح مغادرا.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

تقليبٌ بالأيام . . الذهاب الى جبل لويبيدا قد يكون يوم إثنين أو ثلاثاء أو أربعاء . . أم بطرس معتادة على الخروج يوميا، صباحا و مساء، لممارسة طقوس الإحسان متلقية و واهبة . . فمتى إذن سيكون الوقت المرجح لوجودها في الدار؟ . . إذا كان خروجها صباحيا . . لنقل أنها تخرج عند الحادية عشرة و تعود في حوالي الثانية بعد الظهر . . ثلاث ساعات؟ . . معقول جدا! . . لنجرب هذا الترتيب و نرى! . . ليكن الذهاب الى هناك أولا بحدود الساعة العاشرة صباحا إن أمكن . . حين ألقت براحة كفه حفنة القروش قبل أشهر كان الوقت مساء! . . سنرى و نغير الوقت بموجب الظروف! . . و لنفترض أنها ليست لوحدها في الدار؟ . . و لقناعة أتته حدسا بأرجحية عزو سلوكها الإحساني في الغالب الى وحدة تعانيها سيترك هذا الأمر للصدفة . . و يختار يوم الإثنين التالي للذهاب الى لويبدا . . الى أم بطرس و من هناك الى كلية تارازانتا.
يوم الإثنين التالي . . بإنتهائه من حصة الدرس الأولى طلب إذن مغادرة بذريعة أمر هام و غادر . . قبيل الساعة العاشرة حمدان يقف أمام باب شقة أم بطرس و يضغط على زر جرس الباب، فتمر دقيقة و ينفتح الباب لتظهر أمامه السيدة الواهبة، و بهيئة مختلفة تماما عما رآها عليها من قبل. و لولا مخاطبتها من لدن رجل العمارة بأم بطرس ما كانت هيأتها و ملبسها الحيادي آنذاك ليوحي له بأنها مسيحية، بل على العكس لكان ظنها مسلمة . . و ها هي أمامه سيدة لم

تفارقها الفتنة مطلقا . . فستان أخضر حشيشي بفتحة جيب مُسبئعة تصل الى نقرة ما بين النهدين بقليل و تتدلى من رقبتها سلسلة فيها أربعة فيروزات كبيرة نسبيا على شكل صليب. محتارا و مرتبكا يلقي التحية و ترد المرأة عليه . . فيتلعثم قائلا:

- يا سيدتي . . أنا أستاز بالمدارس العالمية بمرج الحمام و إحتمال راح يكون لي هون كمان شغل قريب . . في تارازانتا!

يزداد إرتباكا و كأن عزمه الذي إرتجل به يوما ما فكرة الذهاب الى ليبيا كله تبخر . . و لتباطؤه في الحديث كأن المرأة أنقذته حين علقت:

- إحنه شفنا بعض من قبل؟ . . أتزكر وكأني شفتك في مكان من قبل!

بهرته ذاكرتها إذ تذكرت رؤيته في مكان ما . . قارب إنقاذا! . . فيعيد هذا له عزمه السابق . . لكن إرتباكه لم يتبدد كاملا فعقب:

- بالزبط! . . و هـيدا هو اللي جيت من شانو . .
- يعني صحيح . . إحنا بحق شايفين بعض من قبل؟
- أيوه . . مرتين.
- مرتين؟
- أيوه!
- بأي وقت؟
- مرة بالجمعة اللي فاتت في باص بالساحة الهاشمية . . و كانت هي المرة التانية مش الأولى . . كـُنت قاعد بالباص ورا الشوفير . . لا مؤاخزة . . لما حطيت بإيدك خمس قروش!

بهتت المرأة و كأنها أخذت على حين غرة . . فسألت:

- و المرة الأولى؟
- قبل تلات شهور تقريبا . . وقتها كـُنت أنا قاعد على دكة في باب العمارة اللي أسكنها بصويفية . . و حصل ذيك المرة مش أنا اللي حطيت بإيدك . . إنتِ اللي حطيتي في إيدي حفنة قروش!

لون وجه السيدة يتغير فتسطبـِغُ سمرته بحمرة خفيفة زادت من فتنة ملامحها الخمسينية . . قوة الروح التي وشيت به ملامحها تشجعه على الذهاب بالموقف الى غايته المنطقية . . فيواصل:

- و هـيدي هـي المفارقـة . . متلقيـة إحسـان و واهبـة إحسـان فـي الوقـت نفسـه . . هـيدا إشـي نـادرا . . إسـتثنائي! . . بـل و فـي زمـن السـخط هـيدا و فـي عمـان هـيدا إشـي محتـاج لتفسـير . . لا! . . و مـش نـادر بـس و يكـاد يكـون مثـال مـالو وجـود غيـر بقصـص مـن نـوع روبـن هـود و ولـيم تيـل و عـروة بـن الـورد و الشـاطر حسـن و دليلـة و الزيبـگ! . . و لـو سـمحتِ . . إعتبرينـي إنسـان فضـولي! . . متطفـل! . . و اليـوم جـاي هـون من شان تفسريلي هيدي المفارقة . . لو سمحت!

تـاه نظـر المـرأة لثوانٍ، فيجـد حمـدان نفسـه قـادرا علـى تعزيـز مقولتـه التـي رددهـا مـع نفسـه مـن قبـل عـن نيتـه فـي تـأليف روايـة . . المـرأة أمامـه و كأنها أسقط في يدها . . فأضاف:

- يـا سـتي . . أنـا فـي الواقـع مـدرس إنـگـليزي . . و مثـل مـا يقولـو أنـا كمـان أكتـب و أخـربش شـوي بالجرايـد . . مقـالات و قصـص . . بس مش هون بعمان!
- كاتب!
- أيـوه . . و موضـوع أن يكـون الواحـد مـن نـوع يطلـب إحسـان مـن شـان يوهبـو لإنسـان تـاني . . هـيدا إشـي نـادر و فريـد مـن نوعـو . . و برأيـي لا يخلـو مـن جمـال أو مـن رومانسـية . . و لا بـد أن تكون ورا هـيدا كلو قصة و حكاية!
- قصة!
- أيـوه . . و أنـا بـدي أسـمع مـن حضـرتك هـيدي القصـة . . لـو تسمحي!

و لربمـا أسـقط فـي يـدها أمـام إصـرار حمـدان. و هـا هـي تـدعوه عفويـا الى الدخول قائلة:

- إنـت إنسـان جـرئ . . بـس وجهـك شـفاف و مقـروء . . يـوحي بأمان . . تفضل أدخل!

و يـدخل حمـدان صـالة الشـقة متأنيـا بخطواتـه ملقيـا نظـرة عامـة علـى المكـان . . الجـدران فـي مستوى النظـر مغطـاة بلوحـات و صـور متنوعـة . . رفـوف كتـب و نباتـات زينـة ظليـة موزعـة فـي الزوايـا . . و تحـفٌ صـغيرة بسـيطة خلـف زجـاج عارضـات صـغيرة . . و قبـل أن يجلـس علـى الكنبـة الموضـوعة أمـام الجـدار المقابـل لبـاب الشـقة توجـه بإنحنـاءة

لسيدة المكان تصحبها نظرة عرفان بالجميل، فوجدها تنظر إليه مستسلمة و حائرة . . أمامه إمراة جميلة بدى تكوينها بالفستان الذي ترتديه منسابا و متناسقا على عكس ما تظهر به بالقمصلة الشتوية في مشوارها الرومانسي. و ما أن جلس سمعها تقول له و هي واقفة بصوت يبعث على الطمأنينة:

- أهلين على طاقين . . أستاذ . . ؟
- حمدان الجربة . . يعطيك العافية يا ست . .؟
- كاتي . . كاترين الدبابنة.
- أهلين مدام كاترين . . و يشرفني أعرف حضرتك!
- في الحقيقة . . أنا كان في بالي دايما لازم راح يجي يوم يكون فيه حدا يكتشف اللي بأعملو . . لكن حيرتي أصلا كانت مشغولة بنوع الإنسان اللي راح يكتشف هيدي القصة . . و هيدا إنتَ هوني . . خليني قبل كل إشي أروح أعملك فنجان قهوة . . كيف تحبها؟
- مرة و ثقيلة . . لو سمحتي!
- زوقك بالقهوة مثل زوق أبو بطرس . . زوجي!
- و أتمنى ألاقي كمان أشياء تانية نتشابه فيها!

و تمضي كاترين لإعداد القهوة . . و يجلب إنتباهه حين جلس صورة كبيرة نسبيا على الجدار المقابل لرجل بدى له عشرينيا أو ثلاثينيا و بجانبها صورة لسرب حمام أبيض يحلق نحو السماء و تحت الصورتين منضدة صغيرة فوقها وعاء مفلطح فيه بقايا شموع ذائبة ما حفزه ليقوم و يستطلع الصور المنتشرة على الجدران. بنهوضه توفرت له فرصة أفضل للرؤية، و راح يدور ببصره . . فوق الكنبة التي جلس عليها نسخة من لوحة يوجين ديلاكروا . . الحرية تقود الشعوب . . موقعة بالعربية في زاويتها السفلى اليسرى بإسم . . جرجيس . . ثم لوحة فيها فدائي فلسطيني معنونة . . قدر الإنسان . . موقعة بالإسم نفسه . . ثم لوحة فيها الثائر جيفارا للرسام نفسه . . لوحة لشخص باللباس العربي التقليدي مكدود الوجه و مُعفَّرٍ شاهرا سيفه و في أسفل اللوحة مكتوبة عبارة . . عجبت لمن لا يجد الدقيق في بيته و لا يخرج شاهرا سيفه . . للرسام نفسه . . أيكون الرسام هنا قد تخيل وجه شهيد الربذة أبي ذر الغفاري؟ . . ربما! . . صورة

لمقاتل مقطوع اليدين مع نبل في محجر العين أسال الدم و غطى وجهه و في أسفل اللوحة عنوانها . . السقاء حامل اللواء . . و داهمت ذهن حمدان فجأة صورة متخيلة للعباس قمر بني هاشم . . و الى جانبها لوحة أخرى يتصدرها قولٌ . . إني أنا الحر إبن الحر . . و يتذكر حمدان الحر بن يزيد الرياحي، وراح يتأمل ما تصوره الرسام عن الحر الذي إنتقل في أرض المعركة و لدوافع إنسانية بحتة من معسكر غالب بكل مقاييس الحرب الى معسكر خاسر بكل مقاييس الحرب . . مقاتل بيده السيف و بجانبه فرسه المتعقربة محاطا بجثث المصروعين و يشد عليه فرسان العدو . . و محاولا أن يحبس دمعه ما إستطاع، بتوليد إنطباعات عن الرسام . . ألوانه و خطوطه الفطرية واضحة . . و ها هي عيناه تمر مرورا خاطفا على رفوف الكتب . . أميل حبيبي . . أندريه مالرو . . مكسيم غوركي . . نجيب محفوظ . . سميح القاسم . . وول ديورانت . . أمل دنقل . . الجواهري . . لويس آراغون . . جبران خليل جبران . . الأخطل الصغير . . حسين مروة . . حنا مينا . . غائب طعمة فرمان . . و في باله . . من تكون هذه السيدة؟ . . و ينتقل لجدار الباب الذي دخلت فيه كاترين لإعداد القهوة . . أربع صور فوتوغرافية تحيط بها لوحات مستنسخة للرسام جرجيس لإيقونات . . المسيح مصلوبا . . مريم و في حضنها المسيح الرضيع . . العشاء الأخير . . و يعود بنظره متأملا الفوتوغرافات الأربعة . . في الأعلى صورة زوجين شابين في لباس العرس . . فيتعرف على الزوجة كاترين سيدة المنزل في عز شبابها و بانت لحمدان أصغر من الزوج نسبيا . . و تحته فوتوغراف لشابة في مقتبل العمر يحيط بها فوتوغرافان لشابين . . ثمة ما جعل حمدان يعاود النظر في صورة الشابة، فيتذكر فورا أين إلتقاها . . و يقترب من الصورة كي يتبحر فيها زيادة . . فيسمع كاترين من ورائه تخاطبه:

- هيدي بنتي رولا . . الصورة اللي فوقها أنا و جرجيس . . و الصورتين اللي جنبها أولادي الإتنين بطرس و إيليا.

لفظها لكلمة . . أيليا . . إستدعى في خاطره فلسفة إسم أيليا عن علاقة كونية بين إسماء من قبيل إيليا و علي و أليأس و أليكس و غيرها ! . . و مفاجأة معرفته بأنها أم رولا شغلته لثوان متذكرا ما

قالتـه رولا عـن شـبه لمزاجـه بمـزاج أبيهـا و كانـت كـاتي قـد قالـت للتـو شيئا عن شبه في الذائقة بينه و زوجها جرجيس.
كـاتي مـا تـزال واقفـة تشـرح لـه و بيدها صـينية فيهـا فنجـاني قهـوة و قـدح مـاء، فإعتـذر منهـا لسـهوه و رجـع الـى الكنبـة لـيجلس، و كـاترين تـدني طبلية قريبة تضع عليها الصينية و تجلس الى جانبه تدعوه:

- تفضل قهوتك!
- متشكر كتير . . هيدا من زوقك.

و هي ترتشف شرعت كاترين تتحدث . .

- إنت بدك تسمع قصة رومانسية لو واقعية؟
- اللـي يشـوف وضـعك هـون بهالعيشـة المرتاحـة و يقـارنو بجولاتـك فـي منـاطق عمـان تطلبـي مـن النـاس المسـاعدة مـن شـان تعطيهـا لآخرين . . هيدا كلو مية بالمية رومانسية!
- يعني؟
- يعني . . هلق أنا متشوق . . بدي أسمع القصة الواقعية!
- كرمالـك . . و علـى عينـي! . . يـا سـيدي . . زوجـي جـرجيس كـان مـأخوز هيـك . . عنـدو عشـق لتحقيـق العدالـة . . و هـذا طبعـا بسبب أفكارو اللي تربى عليها . .
- و جرجيس هو اللي رسم كل الرسومات الحلوة اللي هوني؟
- أيوه! . . يـا سيدي . . حلمـو بتحقيـق العدالـة هـو اللـي خـلاه يـروح و يلتحـق بـالحرب اللبنانيـة سـنة تسـعة و سـبعين . . و تركنـي هـوني أشـتغل و أعـيش الأولاد . . كانـت أمـي لسـاتها عايشـة أخلي معها الأولاد . . راح يقاتل مع اليسار اللبناني . .
- و إنت كنت مقتنعة باللي يعملو؟
- ولـو! . . إيـوه . . مـا أنـا تربيـت متلـو . . نـاس كتـار مـن الدبابنـة تربو هيك!
- الطاقة الروحية لتحقيق العدالة!
- أيـوه . . قضـى هنـاك بـالحرب سنتين . . و بـآخر مـرة إجـا بيهـه لهـون قـاللي إن الحـرب فـي بيـروت حـرب عبثيـة . . و هـي مـو أكتـر مـن معـارك بـين طوانـف تتمـول كلياتهـا مـن بـرات لبنـان . . لدرجـة أنـو صـور الوضـع هنـاك . . مجـرد رغبـة مـن الـكل بقتـلِ الكل!

و بثانية تمر بخاطر حمدان رواية . . بيروت بيروت . . التي قرأها تصور مقولة جرجيس أبي بطرس فقاطعها:

- الحكمة اللي تصور الحقيقة للأسف غالبا تيجي متأخرة . . و من يتأخر تعاقبه الحياة!
- آه . . مزبوط . . و قال كمان إنو الناس هوني بطينين و ما بيعرفوا الحقيقة القاتلة إلا بوقت متأخر!
- و بعدين ست كاتي؟ . . شو هو لب الحكمة اللي وصلها؟
- . . قال أنو ما كان لازم على اليسار اللبناني يحشر حالو بهذيك الحرب . . و ما كان لازم يجر وراه لهذيك الحرب آلاف اليساريين من المنطقة!
- ليش؟
- قال . . لأنو ما كان فيها حدا بيستاهل . . و كان حزين لأن اليسار حشر نفسو في حرب مالو مصلحة فيها . . حرب لإقتسام الغنائم مش لتحقيق العدالة . . كان يستغرب كيف تحولت الحرب عند اليسار الى مجرد دفاع عن النفس و أحيانا نفاق! . . و بالمرة الأخيرة اللي جا فيها قاللي إنو رايح للمرة الأخيرة عبيروت يودع بيهه رفقاتو و يرجع . . و أنا بوقتها كنت حامل بابني التاني إيليا . . رولا عمرها إشي يجي عشر سنين . . و بطرس عمرو إشي يجي سبع سنين . .
- و بعدين؟
- بعدين . . راح و ما رجع . .
- خسارة!
- . . و أصلا . . أنا قبل ما يروح . . لما سمعتو يوصيني على اللي في بطني . . إزا بنت أسميّها روزا و إزا ولد أسمّيه إيليا . . عرفت أنو ما راجع . . بس كيف كنت أقدر أقنعو ما يروح . . و هو كان بدو يودع رفقاتو؟

و بثانية ها هو حمدان يتذكر مرة ثانية فلسفة العلاقة الدلالية بين تسميات مثل أيليا و أليـاس و آلكس و علي و إليشا و غيرها . . و يسمع كاترين تواصل:

- و من وصيتو . . عرفت أنو مش راجع!
- و ما رِجع؟

- أبدا! . . و لا حتى عرفنا فين و مين اللي دفنو . . أو إحتمال حتى ما كان فيه حدا يدفنو!
- و بعدين؟
- ظليت أشتغل خدامه و مُنَظِّفَة و غيرو من شان أربي الأولاد . . لكن بعدين رولا بعد التوجيهية راحت تشتغل . . و بطرس فلت لأستراليا . . و بعد سنة تقريبا سحب أخو إيليا معو . . و رولا ما كان بدها تروح لأستراليا و ظليت أنا معها هون.
- . . الإبنة و الأم في الوطن الأم!
- أيوه! . . و الأولاد صارو يبعتولي مصاري من الغربة!
- بس هيدا كلو اللي حكيتيه لهلق ما فسرلي موضوع اللي جيت من شانو!
- أستاز . . و بعد ما الولاد صارو يبعتولي مصاري . . فضيت شوي . . و حلم جرجيس بتحقيق العدالة . . و ضحتى بحياتو من شانو . . ظل عايش جوايه . . هوني!

و تشير كاترين بيديها الى موضع قلبها . . و تواصل:

- بعد إستشهاد جرجيس . . و لأني حبيت جرجيس و هو كمان كان يحبني . . ظليت أظن أن تربية أولادو على مبادئو هو تحقيق للعدالة . . و بعد ما كبرو و صارو يتحملو المسؤولية فضيت تقريبا . . و فكرت في وقتها . . لازم ألاقي طريقة أستمر فيها بتحقيق حلمو عن العدالة . . طريقة إشرك فيها ناس تانيين!
- يعطيك العافية . . و لقيتي هايدي الطريقة!
- أيوه . . إجتني هيدي الفكرة البسيطة على أد الحال! . . آخذ من حدا و أعطيها لحدا محتاج . . و إنت تعرف أستاز اللي مستعد يعطي لا بد أن يكون أولا كريم . . و ثانيا لا بد أنو كمان شايف عندو زيادة يقدر يعطيها لغيرو!
- يا سلام على الرومانسية الإنسانية! . . و أظن هيك كان نصيبي قبل تلات شهور . . إن أكون أنا واحد من هالحدا المحتاجين؟

- بالتأكيد . . و إلا ليش ظنيتك هيك؟ . . أقصد محتاج . . لولا إني شفتك بعيني فعلا باين عليك هيك تستحق الشفقة!

يا لنعمة البصيرة! . . و يتذكر أنه كان آنذاك فعلا وحيدا و حزينا و مريضا و ساخطا و بحاجة الى الإشفاق . . فكيف سيبدو إنسان بهذا الوضع غير أن يبدو بائسا و محتاجا للعطف و الشفقة! . . يحاول أن يضبط مقلتيه كيلا يفلت منهما الدمع فتشيا بما في مكنونه . . ما تفعله المرأة و تفعله دون حاجة لقوس و نشاب روبن هود! . . و دون غزوات عروة بن الورد . . تأخذ من الناس بطواعيتهم و رضاهم . . و سألها:

- و رولا بنتك تعرف بهالمغامرة الرومانسية؟
- لا! . . أبدا! . . و ظليت هيك من ذاك الوقت . . و هلق الأولاد يبعثولي مصاري من أستراليا . . و رولا كمان بتشتغل . . شوف الصدفة! . . لعلمك . . أنا مرات قليلة بس كنت طلعت بوقت المسا . . و حصل بمرة نهن شفتك محتاج للعطف . . و خليت بايدك حفنة قروش!
- طيب . . لهلق ما في إحتمال أن يكون فيه حد من القرايب أو من المعارف إكتشف هالمغامرة؟
- ما بعرف! . . و إزا كان حصل . . أو راح يحصل . . و أنو حدا منهم إكتشف أو راح يكتشف . . ما يهمني كيف هذا الحدا فسّر أو راح يفسّر الوضع أو شو اللي راح يقولو!
- بطولة! . . منتهى البطولة!
- . . و ظليت اللي أجمعو أقطع منو حق المواصلات بس . . و أروح أعطيه لأي حدا أظنو يستحق . . و أجي في نفس اليوم أوقد شمعة تحت صورة جرجيس اللي هناك قبالك!

هذه السيدة الجليلة تخوض معركة مع الكون على قدر طاقتها! . . تتحدى السماء بقبضات عارية! . . أيبكي تأثرا؟ . . أينتحب من عجزه؟ . . أيجرؤ على أن يقوم و ينحني لهذه المرأة و يقبّل يديها؟ . . و صدقت جدتي! . . تعالي جويدة جدتي الجميلة زرقاء العينين . . تعالي و أنظري! . . هذي إمرأة حظي زوجها بأربعة عشر حظا و ليس بسبعة! . . و يحاول مرة ثانية ضبط مقلتيه مخافة أن تفضحه و

سمعته كاتي يتمتم . . و صدَقت جدتي! . . كاتي تتفرج عليه، و تمر بخاطره بثينة الصفار و يتذكر وائلة الربيعي تسأله عن حظوظ جدته جويدة السبعة التي يحتاجها الرجل كي يكون سعيدا و لم يكن قد سمعها من جدته أصلا فارتجلها أمام وائلة الربيعي . . و صدقت جدتي! . . يا جدتي جويدة و ها إني لخاطرك و لأجل عيني هذه السيدة أرتجل هنا حظا ثامنا و تاسعا و عاشرا . . و . . و . . و . . حرصُ الزوجة على تحقيق حلم زوجها المستشهد من أجل العدالة فيه مائة حظ للشهيد! . . و لا بد هي أيضا ستكون شهيدة كيفما تموت! . . و يمر في خاطره أيضا تعليق بثينة الصفار و هي تغادر عمان . . كاليبسو! . . لا! . . لا بثينة ليست كل النساء اللاتي ألتقيهن هنا يوفرن إغراءات كاليبسو! . . المرأة التي أمامي هنا اللحظة تعادل مليون كاليبسو! . . و تخنقه العبرة و لا يستطيع هذه المرة أن يضبط مقلتيه . . و كيلا تنكشف محنته أمام كاترين إستأذن منها بذريعة الذهاب الى الحمام فدلته عليه . . و هناك أفرغ ما في محجريه من دمع حبيس متذكرا إستعصاء دمع لمياء الفتلاوي زوجته، و عاد بوجه مغسول و عينين محمرتين تفضحان ما كان فيه . . تطلّعُ كاترين الفضولي المستمر في وجهه يفضح سره . . ود مرة أخرى لو أنه يستطيع تقبيل يدي كاترين . . ود بقوة تقبيل قوس و نشاب كاترين . . لكن طاقته الروحية كانت أدنى من أن يستطيع تسويغ طلبه لها . . تقبيل اليد أيضا فيه إغراء!

و دون أن تسأله شرع يحدثها هو الآخر عن نفسه و عن وضعه في عمان و أنه بإنتظار أن تلتحق به زوجته و أنه يتشوق لتعريف زوجته بها إن جاءت . . و لم يخبرها عن تعرُّفِه على رولا إبنتها تاركا ذلك للأيام! . . و ظلا يتحدثان لمدة غير قصيرة و قبل أن يستأذنها مغادرا، سألها إن كان يستطيع زيارتها مرة ثانية فوافقت . . و سيتحمس لفكرة قيام تعارف بين كاترين و لمياء حين تلتحق به في عمان . . و لكنه حين ستلتحق به لمياء في عمان و تفاجئهما كاترين يوما تصعد الى الباص الذي هما فيه، مادة يدها و لمياء الى جانبه، ستتطلع كاتي إليه و الى لمياء، و ستفهم من رد نظراته أن من معه هي زوجته . . و لسبب أخلاقي و جمالي، سيقرر في حينها ألا يكشف سر كاترين، و سيمد يده في جيبه ليخرج قطعة خمسة قروش يضعها

في يد كاترين، و ستضم راحة يدها على قطعة النقد بقوة تعبيرا عن إنفعالها مع إنحناءة عرفان بالجميل كاملا، لأنه يفضّلُ ألا يشي بسرها . سيخشى من الإساءة الى جمال صنيع كاترين الدبابنة لو إنكشف! . . و لن تفت لمياء النظرات بين زوجها و السائلة، و ستعلق:

- شنو هالنظرات المريبة؟ . . و شنو هالإنحناءة؟ . . هالمرأة منين؟ . . تعرفهه؟

و سينكر معرفتها و يكذب و يلف و يداور قائلا:

- إمرأة سائلة عون . . و عندها لياقة . . الحق وياج! . . لأن المستجدين في بلدنا ما متعلمين ينحنون للواهب و يدوخونه بأدعية كاذبة! . . صمت هالمرأة يعادل ذهب عالم كله!

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

الساعة تشير في يده الى منتصف النهار حين دخل كلية ترازانتا . . و هناك إستقبله القس عميد الكلية. و مطلعا على سيرته الذاتية يأمر القس بإجراء إختبارا له . . و ينجح في الإختبار و لكنهم يختلفون على تفصيلات العقد ما يجعله يفضل البقاء في المدارس العالمية و يغادر . .

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

دعوة من فدوى لتناول الغداء في منزلها . . الجمعة ظهرا في بيت فدوى عبد ربه الفتحاوية حتى النخاع إلتقى حمدان ولديها ياسر بإثنتي عشر عاما و قاسم بعشرة أعوام . . و ستحكي له عن زوجها الفتحاوي الذي رحل بحادث سيارة في رام الله أثناء زيارته لوالديه . . و أثناء تناولهما للغداء سيتطرقان في الحديث الى زملاء العمل . . زاهد الحمساوي العائد من حرب إفغانستان ضد السوفيت و تعاطفه السافر مع بن لادن . . أحمد النقشبندي الكردي الدهوكي الفار من علاقات العشيرة . . صباح و قلبها المفطور على بيت جدتها في القدس . . نجاة الوائلي عابدة صدام الفوهرر المهزوم . . . .

و . . عند إنتهائهم من تناول طعامهم ستعرض عليه الإنتقال الى الفرندة لشرب الشاي، و كأنها بذلك ارادت ان تنفرد به و تصرف الولدين . . و أثناء إحتسائهما للشاي يتشعب الحديث عن أزمة منطقة الشرق الأوسط و ما ينجم عنها من نزاعات و معارك و

حروب، فيعرب لها عن رأيه بوجود قوة مهيمنة لها أذرع خفية تخطط لحروب المنطقة لدوافع إقتصادية و ثقافية و بأن العراقيين باتوا في تيه يشبه تيه الفلسطينيين. و يصل معها بالحديث الى خلاصة مفادها برأيه ألا شرف في أية حرب، فتغرق بالضحك و تعقب:

- و هيدا برأيك يشمل حتى حربنا إحنه مع الإسرائليين؟
- ربما! . . لا أؤمن بوجود حرب شريفة . . إذهبي الى تاريخ الحروب ستجدين أن كل الحروب جرت و تجري و ستجري أما بسبب خلاف بين سارقيّن إثنين حول قسمة السرقة، أو برغبة سارق قوي تالت طماع بدّو يدخل هالقسمة . . و إلا قوليلي . . يعطيك العافية مدام فدوى . . هو ياسر عرفات شو كان حالو لما أسس منظمة التحرير؟ . . موش كان فقير حالو متل حالك و حالي . . منين إجتلو هايدي عشرات ملايين الدولارات اللي نسمع عنها في حسابو الشخصي و حساب زوجتو!

و تضحك فدوى . . و تعقب مازحة:

- أشوفك كمان . . راح تنشّن علينا كمان!
- الخلاصة . . يا ستي . .المتحاربون كلهم أوغاد . . و لو خُيِّرَ الرجال بهالمنطقة بين الحرب و السلام . . في أي وقت . . حتى لو كان بإمكانهم الوصول الى تفاهمات لكانو إختارو يروحو للحرب . . ببساطة لأن الحرب ترضي غرورهم الغريزي تحت دوافع و ذرائع شتى . . ناهيكِ عن إننا هلق نشوف الجنود ينقتلون . . و نشوفهم كمان يقتلون و بوحشية . . و الآلهة سرحانة تتفرج عليهم . . الآلهة بكِل أنواعها أرجلها بالماء و تتفرج . . و الآلهة على رأي مكيافيللي تسلب الناس حريتهم و تشاركم المجد إذا إنتصرو و تتبرأ منهم عند الخسارة . . و الآلهة طبعا هي نفسها تقول للفقراء . . إن الفقراء أحباب الله . . لكنها في الوقت زاتو تسمح للأغنياء أن يشتروا نصف الفقراء لكي يقتلو بهم النصف الآخر! . . و هيك نشوف أن أي جهة من المتحاربين إذا ربحت الحرب تروح تشكر الآلهة اللي رجليناتها بالماي . . و إذا خسرت هذيك الجهة الحرب نشوفهم يروحو يتوسلو

للآلهة كي تنجيهم من عقابيلها! . . مهزلة العقل البشري! . . ما فيه حرب شريفة . . و هوني في الشرق الأوسط بدي أسالك مين هو أذكى المتحاربين؟

- مين برأيك؟
- السارق الإسرائيلي اللي دخل لهون . . و أسأليني ليش هو أذكاهم؟
- ليش؟
- لأنو هو أوسخ المتحاربين هوني على الإطلاق! . . و إسئليني كمان مرة ليش!
- ليش؟
- لأن الساحر اللي خلق المحارب الإسرائيلي هندسو كويس . . هندسو على مثالو . . على مقاسو هو . . تقليد . . و المحاربين الباقين . . على رأي إفلاطون إجو تقليد للمثال الإسرائيلي أو ردة فعل! . . و بعد إزنك . . شوفي خاتمتكم أنتو الفلسطينيين . . و بعدكم شوفي كمان خاتمتنا إحنه العراقيين . . هيدا لو كنا إحنه فعلا واصلين الى خاتمة! . . و كمان إحنه ما بنعرف خاتمة مين هي اللي جايه ورانه!

و تحاول أن تنأى به عن حديث الحروب . . و تعقب:

- أنا مستغربة . . إنت ليش هيك؟ . . أقصد إنت ليش لازم تكون هيك؟ . . تضغط على نفسك بالهالطريقة . . ليش تحمّل نفسك كل هيدا الهم؟ . . متشائم و ساخط هيك على طول الخط . . شو الفايدة؟
- الفايدة؟ . . فشّة خلق . . على رأي وديع الصافي . . و الفايدة أنو الواحد منا لازم يفهم أنو خلاصو فردي . . مش بإيد حدا غيرو . . و خلاصو مالو علاقة بحروب قبائل و جماعات و بحروب تحرير و بحروب عادلة و غير عادلة . . طززز بكل الحروب! . . الصداقة الفردية تلعب دور رئيس بالخلاص و ليس الجماعات! . . أقصد الصداقة من النوع اللي يهوّن على الواحد مصايبو و توفرلو فرص الخلاص!

و تفاجئه معقبة:

- تقصد الصداقة من النوع اللي بيني و بينك . . مثلا؟

آه! . . ها هي زلات اللسان توقع المرء في مصيدة كاليبسو عبد به! . . و هو يعلم أن فدوى بأغلب المقاييس هي كاليبسو، لإدراكه تقريبا ما يجول في خاطرها، تأنى كثيرا قبل أن يجيبها بسؤال:

- قصدك صداقة بين رجل و امرأة؟
- أيوه . . هو بزاتو!
- ما بعرف! . . يظن جيمس جويس أن الصداقة بين رجل و رجل ممكنة . . و كمان بين إمرأة و إمرأة ممكنة . . لأن الرغبة الحسية و الجنس و الرغبة ما يكون حاضر بين الإتنين إلا في حالات شاذة . . و هو كمان يعتقد إن الصداقة بين إمرأة و رجل مستحيلة طالما أن الجنس ممكن أن يكون حاضر . . و الحس كمان يعرض نفسو بوسائل شتى على الإتنين!
- و هيدا شو يعني؟
- يعني ما يمكن تحصل بين رجل و إمرأة إلا العلاقة اللي يكون فيها الحس و الوجدان قويين جدا . . يعني الرغبة و الحب أو مثالو!

صامتة تتطلع إليه و كأنها بإنتظار شئ تال في حديثه. و حين أطال النظر في عينيها تواصلان التحديق فيه، تراءى له بياضهما يزداد إصفرارا . . و خال أنه ما أن يمعن التحديق فيهما، سيرى اللوعة و اللهفة التي فيهما تتبدد و تتلاشى في وقت ما، و تترك فراغا لامتناهيا. و لكي يهرب من الموقف سيزيده حرجا . . فيضيف:

- و أعذريني من حدة التعبير إزا قلت . . أن المرأة و الرجل ما أن يدخلا الفراش متلهفين لتحقيق غاية حسية راح تشوفين الصداقة تنسل هيك من تحت اللحاف في اللحظة ذاتها . . و تتبخر مع أول نشوة يحسانها سوا!

و هي ما تزال تتحداه بنظرات من عينين لا تطرفان أبدا، مرت بخياله صورة كاترين أم بطرس التي ود لو يقبل يديها، و بثانية . . يا جربة! . . بالله عليك! . . إتلك أيضا إمرأة لا تصلح للصداقة؟ . . فأدرك أنه تهور بإنسياقه و تسويقه لنظرية جيمس جويس عن العلاقة بين المرأة و الرجل . . و سمع فدوى تفاجئه محتجة:

- أنا ما بوافق تماما على اللي تقولو أستاز حمدان . . ليش المرأةِ و الرجل يا سيدي ما بيقدرو يجمعو الصداقة و الحب في نفس الوقت؟

و عقب مبررا:

- شُفتي؟ . . هاي إنت بنفسك قلتيها بلسانك! . . الصداقة لحالها غير ممكنة . . بس إزا معاها حب ممكنة . .
- و شو فيها؟ . . صداقة و حب! . . و إزا رحل الحب تبقى الصداقة!

فقاطعها:

- مدام فدوى . . شو هذا اللي بدك تبرهني عليه؟
- أن المرأة و الرجل إزا بدهم . . يقدرو يكونو على علاقة من نوع ما إزا كانو قريبين من بعض!
- ممكن.

و يأخذهما الحديث لمة نصف ساعة أخرى عن الغناء و الفن . . و يشكرها حمدان على دعوتها له و يعبر لها عن إمتنانه و عن إعتزازه بزمالتها. و ظن أن الرسالة التي بثها قد تكون وصلت، و غادر. و لكن فدوى لن تكف، و ستكرر في مرات قادمة محاولة إستدراجه الى بر الكاليبسو!

* * * * *　　　　* * * * *　　　　* * * * *

القاعة مكتظة بمراسلي الصحف و محطات التلفزيون و قد إنتشرو في مدخل القاعة بإنتظار وصول السفير . . الحضور كثيف، فظل حمدان واقفا في الممر الوسطي يتلفت بحثا عن مقعد خال . . ثمة من يلوِّح له في صف المقاعد غير بعيد عنه، و يحاول أن يتذكر الرجل . . آه . . ناهض حتر! . . و يتوجه نحوه و سلم عليه و جلس الى جانبه. و يجري بينهما حديث عام عن الثقافة و مشاكل الشرق الأوسط . . بوصول السفير و إعتلائه المنصة، و بعد تقديمه، يشرع السفير بالحديث عن العنوان الذي تحمله اللافتة المعلقة وراءه على الجدار . . حصة العرب في نفط العراق . . و حمدان على معرفة بأخبار ما سمي . . كوبونات النفط . . الفوهرر يتكرم بها على كل من هب و دب من مادحيه عربا و أجانب . . أدباء و فنانين و مثقفين و مدبجي مقالات عن صمود العراق العروبي . . كس أخت الكل! . . كوبون

باخرة نفط تذهب الى فلان الفسوي . . و أخرى الى علان الضرطي و ثالثة الى فستان الخروي . . و يستمع الجمهور الى السفير يتحدث عن بذخ و كرم الفوهرر العوجاوي تجاه أخوانه العرب في وقت يقيت به شعبه بخبز لا يصلح طعاما سوى للحيوانات . . حديث السفير عن حصة العرب في نفط العراق يزيد عند حمدان من طينة بلاوي الفوهرر بلة. و من السخط الذي يأكله، لا يحتمل حمدان فيردد لنفسه ما ظنه همسا:

- . . لعد و آني العراقي صاحب النفط! . . آني وين حصتي بنفط العراق؟

و يندهل من سرعة إلتفات الجالسين في الصف أمامه نحوه يحدجونه بنظرات ضارية، و معهم الجالسين على جانبيه، جميعهم يمدون رؤوسهم ليروا من الهامس الصائت المتجرّئ، فإرتعب حمدان . . و سمع ناهض حتر يهمس له:

- قوم معي!

و خرجا من القاعة . . و هناك حاول أن يبرر لنفسه معلقا لناهض:

- أستاز ناهض . . كنت أهمس لحالي!
- هدول يا سيدي . . جمهور صدام هون بعمان بيسمعو حتى ضراط القمل! . . و كمان أنصح . . لا تصعد في باص . . أدخل بالشارع الفرعي القريب . . و من هناك خد تاكسي . . بس قبل ما تروح إعطيني رقم الموبايل تبَعَك!

و يعطيه رقم الموابايل ثم يودعه و تخف قداماه للدخول في الفرع القريب.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

يمضي أسبوع واجد على حادثة ندوة السفير العراقي . . عائدا من المدرسة، أول ما شدَّ إنتباه حمدان عند دخوله لغرفته هو إختفاء الراديو مسجل من على الطاولة، و راح يتفقد أشياء أخرى قد تكون إختفت . . أول ما قلق عليه هو جواز سفره و نقوده التي إعتاد على تركها في الدولاب . . و يتفاجأ بوجودها في مكانها فيطمئن قلبه. و يروح ليتفقد أشياء أخرى قد تكون إختفت، فيكتشف خسارة صغيرة أخرى لا تتعدى قميصا بتقفيلة صغيرة سوداء و بيضاء أتى به معه من بعقوبة . . لغز! . . سارق يدخل غرفة فتعاف نفسه ما موجود من

نقود و جواز سفر قد يصل سعره عند المزورين في عمان الى ما لا يقل عن ألفي دولار و يكتفي السارق بأخذ راديو و قميص؟ . . لغز! . . الباب كان مقفلا و راح ليتفحصه عسى أن يجد أثرا يدل العين على مفتاح للتفسير . . ليس ثمة أثر! . . و يدخل الحمام، فيجد هناك الأثر . . شباك الحمام الألمنيوم الذي لا تتجاوز قياساته خمسين في سبعين سينتمتر منزوع من مكانه و معاد إليها بطريقة مستعجلة فجة . . بالموبايل طلب مدير زهرة المدائن، فأتى الطراونة و ظل حائرا بما رأى و سأل من حمدان إن كان ينوي تقديم بلاغ الى الشرطة فأجاب أن . . لا!

و يطلب من محمد الفنان المجيء، و سيحكي له حكاية ندوة السفير و يريه واقع السرقة التي تعرض لها . . وسيظل محمد يتفرج حائرا، و سيحكي له حمدان أيضا عن التونسيين اللذين رآهما قبل أسابيع عديدة فوق سطح العمارة، و سيزداد محمد حيرة . . و يعلق:

- على أي وجه ممكن يتفسر إقتحام الغرفة؟ . . الباب سليم . . فتحة شباك الحمام الدخول منها مو بالسهولة اللي نتخيلها . . الدخول منها يحتاج وقت و ترتيب لأن الدخول و الخروج منها ما يصير غير حشر! . . العملية ما تتم و تجري إلا بوجود شخصين . . واحد هنا ينفذ و واحد في باب العمارة يراقب و ينطي بالموبايل تقرير عن وصولك المفاجئ!
- أتفق و ياك؟
- و إذا كانو التوانسة الإثنين هم أصحاب العملية . . فهل من المعقول إن هذا اللي چان فوگ بالغرفة ما چان عنده وقت يشيل الدولارات و جواز سفر يسواله أقل شي ألف و خمسمية دولار . . و هالأشياء موجودة و ممكن شوفتهه من ورا الزجاج؟
- إذن؟
- إذن . . يبقى الإحتمال الثاني المتعلق بحادثة ندوة السفارة!
- اللي هو؟
- غارة مخابراتية من نوع ما . . و على طريقتهم بالصلافة . . حتى يتركوه للواحد حاير و مبلبل . . مثل ما هسه إنت مبلبل و آني حاير وياك!

- شلون محمد؟
- شالوا المسجل و القميص حتى يتركون أثر لغارتهم . . حتى ما يروح بالك لإحتمال أن يكون اللي دخل عليك حرامي! . . و عافو الفلوس و الجواز حتى يگولولك بكل صلافة . . نحن هنا . . فدير بالك!

يعقب حمدان بجملة:

- محمد . . على الأغلب . . إحتمال هذا هو اللي جرا و صار!

و يخرج حمدان الموبايل و يطلب رقما . . و بعد ثوان يتحدث:

- يعطيك العافية أستاذ نقشبندي . .
- . . . !
- . . أظن هلق صار بدي أسكن مرج الحمام!

* * * * *　　* * * * *　　* * * * *

الشقة التي إستاجرها . . صالة متوسطة المساحة و غرفة نوم بمساحة معقولة و مطبخ صغير لا تتعدى مساحته إثتني عشر متر و حمام صغير . . حصل عليها بعون من النقشبندي، و هي ملحق فيلا مبنية على منحدر. الفيلا في طرفها العالي مواجهة الغرب و طرفها الواطئ تجاه الشرق، و بنيت فيه تحت الفيلا شقتان نوافذهما نحو الغرب صغيرة و قرب السقف لدرجة تبان منها أقدام الماشين على الممر الأمامي للفيلا. أم يعگوب صاحبة الفيلا فلسطينية عائدة من الكويت . . تزويد الشقة بأثاث مستعمل بسيط إستغرق أسبوعا . . ستائر قصيرة للنوافذ الصغيرة . . غرفة نوم رخيصة . . طقم كنبات مستعملة بحالة لا بأس بها . . ثلاجة . . طباخ غازي . . تلفزيون . . و إضافة للمدفأة الزيتية التي معه جلب مدفأة غازية . . و أشياء أخرى. و بإنتظار وصول لمياء . . ظل يقضي أمسياته أحيانا في مرج الحمام مع النقشبندي يتمشيان و يغنيان . .

* * * * *　　* * * * *

كان محمود الحسيني قد أخبره أول ما إلتقاه في بيتهم أن أباه و أعمامه و معهم النبلاني يبنون فيللات لهم على مساحات واسعة فوق رابية في محيط شميساني. أسبوعان يمضيان و هو في مسكنه الجديد في مرج الحمام، و يأتيه خبر إنتقال الجميع بما فيهم النبلاني الى فيللاتهم الجديدة. إمتحانات الأولاد جميعا كانت قد إنتهت و بدأت عطلتهم

الصيفية، غدا محمود طالب التوجيهية. و بوصف من محمود لطريق وصوله الى الفيلات، سيصل حمدان الى هناك .
أول أسبوع من حزيران . . الرفاهية تشي عن نفسها بالمظهر الخارجي للفيلات . . في الشارع أربعُ فيللات جنب بعضها لناصر الحسيني و أبيه و أخويه خالد و طه، تقابلها أربعٌ أخرٌ لشفيق النبلاني و ثلاثة من أبناء عمومة الحسيني. مبهورا بما يرى يأخذه محمود الى هناك . . الحديقة الواسعة ينتهي جانبها الأيسر من جهة الشرق بقواطع عالية من الزجاج المظلل، سمع من ورائها طشطشة مياه و صراخ أولاد، فإستنتج إحتمال أن تكون تلك بركة سباحة مجاورة لمبنى الفيلا الرئيس . . و خطرت في باله كوبونات النفط المتناثرة يمينا و شمالا من يد الفوهرر و أسرته، و تذكر ما سرَّه به أحدهم في عمان عن تلميذه شفيق النبلاني و شريكه الحسيني إدارتهما لشركة وهمية لصالح الفوهرر لها علاقة بكوبونات النفط . . و يقوده محمود الى داخل الفيلا ليريه تفصيلات الطابق الأرضي و أجنحته و صالاته . . ديكور الجدران و ريازة السقوف و المحجرات و الأبواب و الشبابيك المصنوعة من الخشب الساج . . إستعمال الخشب الساج هي عادة إلتقطها الحسيني من أهل بغداد المغرمين بخشب الساج الذي لا يستسلم للنمل البيض حشرة الإرضة . . الإنارة و الثريات الفارهة المدلاة من السقوف ذكـَّرته بالثريات السامقة الفارهة المتدلية فوق مرقد الكاظمين . . ستائر متدلية بألوان و تصاميم لم ير لها مثيلا من قبل، فتذكر الستائر الخرق القصيرة التي كانت أمه تعلقها فوق الشبابيك و هو في الإبتدائية و يمسح بها بعد الأكل ما علق بيديه من مرق بعد الأكل . . . و داخل الفيلا تدور الدنيا برأس حمدان . . ثم يصعدان السلم ليفرِّجه محمود على ما موجود من رفاهية في الطابق الأعلى . . إفراط في الرفاهية . . و تذكـَّر شهيد الربذة و أم بطرس . . أين الربذة في هذا الزمان يا كاتي؟ . . و أين جرجيس يا كاتي؟ . . و أيهم المهذب كي يكون شهيد ربذة هذه الأيام! . . و عند باب جناح من الأجنحة من جهة الشرق و يطل على المسبح مباشرة بنافذة عريضة جدا، توقف محمود مفسحا المجال لمعلمه قائلا:

- تفضل أستاذ . . هذا جناحي!

صالة بمساحة عشرين متر . . أمام الجدار على اليمين ثلاث مقاعد بنجارة راقية و جدار باب الجناح وضع أمامه مكتب فاره و في الأركان توزعت دواليب ثلاثة صغيرة للتحفيات و الكتب . . و تؤدي الصالة الى غرفة نوم دعاه محمود لإلقاء نظرة عليها ففعل ذلك فضولا، و بانت له أوسع مساحة من الصالة و بجانبها غرفة ميني مطبخ فيها كل التسهيلات التي تتطلبها الضيافة و غرفة الحمام بتسهيلات كلها مودرن . . بانيو و شاور و مغسلة، فعلق محمود:

- أستاذ . . هذا السيراميك و الفرفوري كله أسباني!

كوبونات النفط! . . و لم يعلق حمدان أو يعقب على جودة السيراميك، و لكي يصرف ذهنه عن سخطه المتعاظم، و ما يزال واقفا قال:

- ها محمود! . . أخوتك و خواتك نجحو و بتقديرات أفضل من السنين السابقة . . و إنت؟

لم يتلق حمدان جوابا فجلس، لأن محمود تركه وذهب ليزيح قليلا ستارة النافذة المطلة على المسبح و يلقي نظرة. و سمعه حمدان يتأفف و هو يفرك منطقة عانته، و حين عاد ليجلس جنب حمدان كرر سؤاله:

- و إنت محمود؟
- إسمع أستاذ . . آني ما أريد أنجح و أفرخه لهذا . . ناصر الحسيني!
- ليش؟
- كس أختو!

و يخطر ببال حمدان ألا يكون للحسيني أخوات و إلا لسمع بهن، فابتسم . . أسينفع إلقاء محاضرة في الإخلاق و البرّ لشاب من شاكلة محمود، و مع ذلك سأله حمدان:

- غريب! . . ليش ما تريد تفرّحه؟
- لأن ما يخليني أسبح ويه الجوق . . ما يخليني أسبح غير بس من هو ينزل للمسبح!

كان الحسيني قد طلب من حمدان وضع برنامج لأولاده لقراءات في الصيف، مدرسية و غير مدرسية، و سيظل يضغط على محمود و يواصل محمود تلهّيه عن القراءة، و إن حمدان لا يستطيع تقديم عون لمحمود سوى بدرسي العربية و الإنكليزية . . و في مرات قادمة

سيلاحظ حمدان إطلالات محمود على المسبح عبر النافذة و سينتبه أكثر لمعاودة محمود فرك منطقة عانته كلما ألقى نظرة الى تحت يصاحبها تكرار لعبارة . . كس أختو! . . و لكي يرضي فضوله و يبدد ريبه، و كيلا يثير ريّب محمود نفسه فكر في إحدى المرات أن يسأله بنبرة بذل جهده كي تبدو حيادية:

- محمود . . ما راح تگولي! . . هاي شكو بالضبط؟
- تعال شوف!

و يقوم حمدان، و الفضول يكاد يقتله، متوجها نحو النافذة . . و يلقي نظرة خاطفة و يرتد مرتهبا ليتكئ بظهره على الجدار الملاصق للنافذة مطلقا ما يشبه الصفير:

- فووووووووووووووووووووو!

مرتجفة الردفين و الكتفين و النهدين هناك مستلقية بالبكيني . . و بلمحة بصرٍ إستغرقت لربما جزء من مائة من الثانية لمح الصبية و كل شئ فيها ساكن . . جسمها الممتلئ ساكن لا يرتج . . من أعلاها الى أسفلها بساط لذة . . نهدين نافرين لم يتوارَ منهما سوى الحلمتان و ردفين دبدوبين و قامة مدحدحة . . و أحس حمدان بالذنب فورا لتماهيه مع شطحات محمود، فلام نفسه و إحتقر محمود و نفر منه تلك اللحظة نفورا شديدا . . و إستغرب من الحسيني الأب أن يمنع محمود من السباحة مع أخوته و يتيح له من فوق الفرجة على ما تحت! . . و ينتابه نفور شديد حتى من المكان لدرجة أنه أراد ذاك اليوم بالذات أن يستقيل من عمله في بيت الحسيني، لكنه تريث و أمهل نفسه و سيدع الأمر لتقلبات الأيام.

* * * * *   * * * * *   * * * * *

في مطلع عطلته الصيفية . . أوائل تموز سيرن الموبايل قريبا منه . . تلك فدوى فيرحب بها:

- أهلين على طاقين مدام فدوى!
- أستاز جربة . . أنا رايحة مع مجموعة سياحية لقبرص لأسبوع منتصف هيدا الشهر . . ليش ما تجي معي من شان تتفسح شوي!

ذهنه يومض فورا . . هذه الكاليبسو لا تستسلم، مع أنها لربما أقل سمرة من كاليبسو الأمازيغية التي رآها في فلم الأودسيا! . . و يستمع لفدوى مواصلة تشجيعه على الذهاب معها . . عبارات جذابة

مستدرجة . . و لربما قد تكون حتى على إستعداد لتقول له أن سفرته ستكون على حسابها الشخصي، لكنه في الواقع لم يكن يفقه مما تقول شيئا لأن حديثها يأتيه مختلطا في ذهنه مع ما قالته له مرة بثينة الصفار و هما يتحدثان عن الأوديسا:

- . . كل رجل تقريبا و دون إستثناء . . قد يرغب بامرأة مثل كاليبسو يقضي وياهه وقت على جزيرة نائية . . و قت حر . . و يتيه بلذة الكاليبسو المتناهية النشوة دون أية عواقب . . حتى لو چانت بإنتظاره إمرأة أجمل مائة مرة من پينولوپي!

و إذ لم يعلق أو يعقب في حينها لأنه لم يكن مستعدا لما قالته، ما يزال يتذكر ما أضافته:

- . . ها؟ . . شراح تگول؟ . . راح تگوللي أنتَ رجل حباب و ما ترغب تروح بتيه من هالنوع!

لم يعلق آنذاك و إكتفى بضحكة صامتة . .

و ما يزال يسمع فدوى لربما تكرر عبارتها لأكثر من مرة:

- . . ها أستاز! . . شو رأيك؟

فوجد نفسه يرد على فدوى:

- لا . . متشكر كتير . . مدام فدوى . . هايدي المبادرة جايه من لطفك و زوقك الحلو . . شكرا إلك . . أنا آسف . . ما بقدر أغادر عمان . . و سفرة سعيدة!

و أخيرا . . الزوجة تأتي

حمدان ينتظر في الساحة الهاشمية حيث تحط السيارات الآتية من بغداد رحلها . . ليلة وصول لمياء الى عمان في أيلول ٢٠٠٢، توقفت السيارة، و عينه ترنو إليها فيرى لمياء ما تزال تتحدث إليه من موبايل السائق . . أستخرج مثلما يرى في الأفلام و من لهفتها للقائه سترمي بنفسها عليه. يراها تناول السائق تلفونه و ما يزال يتذكر ساعة كان يودعها في باب بيتهم مغادرا الى عمان، و لامتها أمها مشجعة:

- و لچ إنت لا أشوفچ تحضنين رجلچ المسافر و لا تبوسينه!

لم تفعل مثلما طلبت منها أمها و لم تحضنه أو تبوسه مودعة و إكتفت بغشارة من يدها و نصف جسدها متوارٍ وراء باب الحديقة و هو على الرصيف . . أستقول له . . زوجي حبيبي! . . و ترمي بنفسها عليه شوقا و لهفة؟ . . و تذكر أيضا أنها لم تقل له قط مرة كلمة . . أحبك! . . مثلما يفعل المحبون، بل و أعربت له أكثر من مرة عن نفورها

من إستعمال الأزواج لعبارات من قبيل . . حبيبي وحبيبتي و أحبك و أحبج! . . و مع ذلك . . في هذه اللحظة في عمان في هذا المساء . . هو الذي يرى . . لم تصدق عيناه ما رأى! . . أنثى غابة أسرار الرغبة آتية إليه . . رآها ترجع التلفون الى السائق شاكرة. و قبل أن تكمل واجب الشكر، دنى منها و وثب عليها يحتظنها، و ضمها مستنشقا أريج الأنثى بشهقة سمعها سائق السيارة و راكب آخر خرج من السيارة ضاحكا و مطلقا تعليقا:

- . . عندك الليل كله عشا!

لم يعر حمدان لتعليق الرجل بالا، و واصل ضمته الحميمة التي إشتاقها لزوجته، و السائق ينزل حقيبتين و يضعهما قربهما دون أن يدريا، لدرجة أنه حتى لم يسمع محرك السيارة يدور و تغادر و هو ما يزال في عناق بدا سرمديا.

* * * * *　　　* * * * *

في المدارس العالمية ستحصل لمياء على فرصة عمل جزئية لتنمية قدرات مجموعة من بطيئي التعلم . . و من هناك ستُعرَفُ لدى العديدين مدرِّسةً خصوصية، ما سيخفف عن كاهل حمدان و يساعده على الإستغناء عن عمله مع أبناء الحسيني.

إرهاصات الزلزال القادم

بداية عام ٢٠٠٣ . . تهديدات بوش الإبن لا تكف بالعلن عن الدعوة لغزو العراق معززة بأفانين توني بلير لنزع بقية أسلحة دمار شامل مزعومة في العراق كانوا قد نزعوها في حرب سابقة عام ١٩٩١ . . مع ذريعة جديد هي دعم الفوهرر العراقي للإرهاب الدولي، و الفوهرر ليس بريئا . . يوارون أسبابهم الحقيقية ببشرى جلبهم الديمقراطية الى البلد يكون لبنة الأساس في شرق أوسط جديد . . و سيبرز نجم محمد سعيد الصحاف وزير إعلام الفوهرر ليخترع مصطلح . . العلوج[١٧] . . يطلقه على الغزاة القادمين . .

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

إسبوعان يمضيان على بداية سنة ٢٠٠٣ . . يوم جمعة و يتلقى حمدان مكالمة من مجموعة مدرسين آتين من بعقوبة في الساحة

---

[١٧] مفرده "علج" . . و هو عند العرب الرجل الضخم الجثة الكافر من العجم و غيرهم

الهاشمية. طلبوا هم منه المجئ إليهم، بسبب ضيق الوقت، و طائرتهم تقلع الى طرابلس الغرب بعد ساعات قلائل . . غادر البيت و الجو يزداد برودة منذ اليوم السابق. و الغيوم تتلبد في السماء، و تتشكل في ما يبدو غيمة كبيرة واحدة ذات لون رمادي، تغطي سماء عمان من جميع جهاتها، دون فواصل بيّنة تُرى بين سحب فرادى دأبت على الإندماج ببعضها البعض لتغطي سماء عمان مثل خيمة تطايرت أوتادها بفعل ريحٍ فإنتصبت دون عَمَدٍ.

الساعة الثالثة بعد الظهر . . وجد أهل مدينته بإنتظاره أمام الساحة الهاشمية، منشغلين بالتفرج على الأجهزة الكهربائية الصينية الرخيصة التي راحت تغطي الرصيف الممتد أمام الساحة، من الطرف الغربي للمدرج الروماني و لغاية الطرف القريب من محطة الباصات . . عناق و إحتضان، و أخبروه أنهم تناولوا غدائهم قبل مجيئه إليهم بقليل، و سيكتفون بشرب شاي ساخن في مثل هذا الجو الملغوم بردا، و يمر صدفة بائع شاي متجول سيمدهم بشاي ساخن و يقول أحدهم:

- يذكرني جو عمان الحالي بالجو مثيله في بعقوبة قبل أكثر من ثلاثين سنة!

فيعقب زميله:

- يگولون الجفاف و ندرة المطر بالعراق سببه حرب الكويت گبل عشر سنين!
- الله أعلم بالضرر اللي راح تضيفه الحرب المنذرة اللي جاية! . . و بالتأكيد ما راح تكون هالمرة أم معارك بل أم كوارث!

من بين الثلاث إبن عم لإبن أخته كريم علو . . و سيتفاجأ حمدان منه بإستفسار يشي بفضول لمعرفة ما حصل في ليبيا. و يتطلع حمدان الى وجوههم التواقة جميعا لمعرفة ما جرى، فأحس بوجع في قلبه قبل أن يرد:

- قصة طويلة!

حمدان شبه متأكد بأن تفصيلات قصته هناك مع بثينة الصفار لا بد أن تكون قد وصلت الى بعقوبة، بزوائد شحمية و لحمية و عظمية، من سوء نية في المعاني الماسخة و المالحة، و ليس لبثينة من دور فيها. و برسالة من كريم حملتها لمياء معها، وصله خبر طلاق بثينة من

عدنان المجمعي بطلب منها. إبن أخته صديقه و نديمه و كان على علم بقصته مع بثينة الصفار . . فيقرر الإحجام عن الحديث عما جرى أمام أبناء مدينته، و يصرخ في داخله صوت . . سفاهة متناهية و حماقة! . . و كأن المستفسر هو الآخر لربما أحس تهورا بإستفساره عن هذا الأمر و حاول تغيير الموضوع:

- كريم إبن عمي ينصحك بعدم العودة الى بعقوبة حاليا . . الناس هناك في البلد شبه متأكدين من سقوط صدام و نظامه بحرب راح تشنها الولايات المتحدة . . لكن في أي وقت؟ . . ما أحد يدري!

و يعقب حمدان:

- إذن . .الناس متأكدين من مجئ بندورا! . . و تجيب وياهه صندوگهه المليان شرور!

فراغٌ من شُربِ الشاي و توديعٌ . . يرفع حمدان رأسه الى السماء و هو يمشي الى موقف الباصات في نهاية الساحة الهاشمية. الغيوم ما تزال تشكل حاجزا ثخينا من البخار الكثيف بين السماء و الأرض، و الروابي و الجبال التي تقع عليها عمان، ما عادت تُرى قممها و البيوت التي عليها بسبب الضباب الكثيف جدا. يصعد الباص و يذكّره طقس اليوم بالليلة التي جمعته بِطه الحسيني و الزائر الهولندي قبل عام في مطعم السدير على طريق المطار . . دخل البيت فتلقفته لمياء متلهفة:

- الأخبارتـگول . . هالليلة راح ينزل ثلج بعمان!

في نبرة كلماتها لهفة لرؤية ما لم تره في حياتها قط! . . رؤية الثلج يتساقط، فيتذكر حمدان الوعكة الشديدة التي ألمت به قبل عام عند سقوط الثلج على عمان و حالت دون مشاهدته لمنظر بواكير الثلج يتندف على الأرض. و أصبح أشد لهفة منها للتفرج على الثلج في أول نزوله.

تلك الليلة . . سهرا طويلا يراقبان السماء من النافذة، آملين برؤية بواكير الثلج و هي تلامس الأرض، بل و راحا أحيانا يمدان رأسيهما في الحديقة ليسألا الريح عن موعد مجئ زائر أبيض ظل طيلة يومين يرسل إمارات مجيئه . . ريح متقلبة و سريعة تسبق السكون الذي يرافق سقوط الثلج، لدرجة أن حمدان ظن أحيانا أن سقوف المنازل تكاد تطير، فقال للمياء:

- . . إن طارت سأطير معها! . .

يومان ظلت فيهما السحب الداكنة و الرمادية و البيضاء تندس في ثنايا بعضها لحمل رسالة الزائر الأبيض بشكل سحابة غامرة متجانسة تغطي الأفق بكل الإتجاهات و كأنها ستارة تمدها يدٌ خفية بين الأرض و السماء . . يرافقها برد و ريح صرصر. الزائر الأبيض يدعو الكائنات لإستقباله، فخرج حمدان الى الحديقة لكي يراه، مثلما رآه عشرات المرات في الأفلام يكسو البسيطة و يحول السماء في الوقت ذاته الى نور باهت حليبي القوام. و لكي يعوض مرة سابقة، حرمته علته من رؤية الثلج يسقط، ما أشد شوقه الآن، و هو بكامل وعيه، لرؤية الثلج و الإحساس به يلامس وجهه برقته و خفته، و تتلقاه عيناه و أنفه وجنتيه و هو صاحٍ . . و راح بعدها يتخيل كيف سيفتح فمه و يترك الثلج يلامس شفتيه، كي يتذوق به طعم البحر الذي تبخرت منه المياه و تعالت فصارت بخارا ثم ثلجا . . و لمياء تتفرج عليه و تصغي إليه يعوض حرمانه في مرة سابقة و هو يعبر عن تحقيق رغبات لإستقبال الثلج عاريا مثلما جاء من رحم أمه . . منتهى الجنون! . .

و يترك لمياء في الشقة و يخرج الى الشارع، فتلحق به. تهيأ له أن كل ما في الشارع، المارة و السيارات و المحلات و الناس، و كل شئ يهلل للقادم، و كأنه طقس للتقرب من القوى العظمى في الكون . . فإجتاحته رغبة عارمة بأن يحنو الثلج عند مجيئه على كل ثنية في جسده. ميل يشبه رغبة كامنة في أعماق الإنسان و شوقه أيام كان في الغابة يستمتع من كهفه بمرأى العاصفة . . و تتفاقم رغبته بالتعري تحت الثلج حين يأتي للتوحد مع الطبيعة و بها ميل رمزي لإستعادة الإنسان الأول الكامن فيه أيام كان ما يزال في الكهف.

جولتهما طالت لأكثر من الساعة، و عند العودة الى المنزل وجدا نفسيهما و كأن جولتهما في الشوارع شحنتهما بطاقة تفوق حاجتهما لإنتظار الزائر الأبيض، و تجلت لهما رغبتهما ببعضهما كأقوى من رغبتهما رؤية الثلج. نعيم في المتناول! . . و سرعان ما أخذتهما الرغبة برحلة الى عالم النشوة . . و سرعان ما غفيا . .

. . يصحو حمدان بعد وقت لا يدري كم طال. ثمة في الجو رائحة تسربت الى الشقة لم يألفها، و ينهض من السرير مسرعا نحو باب

الشقة ليفتحها . . مفاجأة كبرى! . . ثلج بارتفاع لا أقل من شبر، يغطي كامل الحديقة أمام الشقة. الصبح جاء و الزائر الأبيض وصل و هما نائمان، و ضاعت منه للمرة الثانية فرصة إستقبال الثلج و الترحيب به وقت وصوله! . . إلتفت ليرى الساعة و قد تجاوزت السابعة صباحا . . نعيم أقرب من نعيم! . . و هكذا فاتتهما رؤية بواكير الثلج تلامس الأرض. رجع الى السرير ليوقظ لمياء ويقودها نحو الباب، فإندهشت بشدة بياض ما حولهما من أرض و شجر. السماء ما تزال تنث وفراً . . لمياء تنشغل بإعداد الفطور، و راح هو يعمل ساعة على الأقل ليزيح الثلج كي يفتح ممرا من باب الشقة نحو أعلى الحديقة . .

تناولا فطورهما . . تدرعا بلباس و أحذية مناسبة و خرجا ليغوصا في ثلج الحديقة . . عند باب الفيلا إلتقيا أم يعگوب صاحبة الفيلا، فصبحّا عليها بنشوة. ردت المرأة تحيتهما . . و إستفسرت:

- أستاز حمدان . . أنا قبل شوي سمعت أخبار على البي بي سي تقول أن الأمريكان و رئيسهم بوش عم بيجهزو حالهن . . صحيح هالحكي؟ . . هو بجد راح تكون فيه حرب!

ما بال أم يعگوب تشوش عليهما بهجتهما بالثلج! . . و كأن سخط العالم كله نزل على حمدان في تلك اللحظة . . فعقب عفويا:

- مدام . . ليش بدك تعرفي إزا راح يكون فيه حروب أو ماراح يكون فيه؟ . . ليش إنتو بدكم تقوم حرب تانية على العراق . . أو تالتة أو حتى رابعة . . إحتمال أسو لهاق فيه هدا من الفلسطينيين بدو يستغل فرصة الحرب و يطالب بدو لاراضي تعويضات من مصاري البترول العراقي!

صاحبة الفيلا لم تكن تتوقع تعليقا أو ردا من هذا النوع، فظلت تنظر إليه، ملتبكة لأنها لربما عسر عليها تفسير مرمى حمدان . . و سمعته يضيف معلقا:

- مدام أم يعگوب . . رزق البزازين على المعثرات!

و تزداد المرأة لبكتا ربما لأنها لم تسمع من قبل المثل العراقي المشهور . . و تمر ثوان، و تضطر لمياء الى سحبه. و عند صعودهما درجتي الباب الخارجي، يزداد حمدان سخطا . . ويواصل قائلا:

- يا لمياء . . لو كان حاكمنا هناك في بغداد شريف . . چان هسه الوضع بالعكس . . چان هسه هذي المدام هي اللي تستأجر مني شقة مو آني اللي أستأجر منهه . . بس منين نجيب إزرار لزيگ هذا الفوهرر العوجاوي اللي في بغداد . . بسبب حماقاته كل البشر اللي ما يسوون شي شبعو من دولارات البترول . .

و تقاطعه لمياء:

- ما تجي! . . عوفك من الفوهرر . . شجابه ببالك و الدنيا كلها غرگانة بالبياض! . خلينه نروح نستمتع بمهرجان الثلج!

و تواصل سحبه الى الخارج، و هو يرد متنرفزا و ساخطا:

- هو آني اللي جبته بالبال لو أم عبوب!

. . الثلج الذي يغمر الشارع من أمامهما بدى لهما أكثف بكثير من ثلج الحديقة. . و أجمل متع لمياء ستكون الإستلقاء على الثلج ناشرة ذراعيها و ساقيها، و حمدان يصورها فرجة للناس . . إمتلاء جسدها و سمار بشرتها وسط الثلج بدت بهما لعينيه أدكن بكثير مما هي عليه . . و بسبب إرتباط دكنة البشرة في حواسه و مخياله بالجماوة . . راح يصورها بسرعة معلقا:

- . . خليني أصورچ گبل ما يموع الثلج جواچ!

و فهمت قصده و رمته و هي مستلقية بكرة ثلج كبيرة إنطرح بها على الثلج.

باندورا أتيةٌ بجرتها!

الأخبار تزداد سخونة عن الصدام المرتقب بين الفوهرر العراقي و عرّابيه السابقين، و عن مجيئهم لغزو العراق . .

أواسط شباط ٢٠٠٣ . الفوهرر العراقي يعلن أنه جاهز للحرب و يرد عليه وزير الدفاع البريطاني بجهوزية سبعمائة طائرة و ٧٠٠٠ جندي في القوة الجوية لضرب العراق . .

ثلاثة أيام تمر . . و يعلن هانز فليكس مفتش الأسلحة ألا دليل على وجود أسلحة دمار شامل في العراق . .

و تمـر أربعـة أيـام أخـرى . . و يعلـن تـوني بليـر أن أسـلحة العـراق المحرمـة ستصـل الـى أيـدي الإرهـابيين حـول العـالم أن لـم ينتزعوهـا مـن العراق . . .
بمضـي بضـعة أيـام أخـرى . . السـعودية تعـرض فرصـة منفـى علـى الفوهرر العراقي . .
بدايـة آذار . . الأتـراك يرفضـون إسـتقبال أراضـيهم للقـوة الأمريكيـة المشاركة بغزو العراق . .
السـادس مـن آذار ٢٠٠٣ . . جـورج بـوش يعلـن فـي خطـاب متلفـز إن غزو العراق بات قريبا . .
بعـد يـوم . . إضـطراب فـي العـالم بسـبب إعـلان الأمـريكيين أنهـم قـد يغزون العراق لوحدهم . . و يفوزون لوحدهم باللذات!
بعـد خمسـة أيـام . . الأمريكيـون و البريطـانيون و الأسـبان يمهلـون مجلـس الأمـن يومـا واحـدا لإستصـدار قـرار دولـي لضـرب العـراق . . و الصين و روسيا و فرنسا تحذر من مغبة الإنفراد . .
بعد يـوم . . بحجـة غيـاب أيـة أمـارة علـى نيـة الفـوهرر العراقـي الإذعـان لطلبـاتهم . . يتخلـى الأمريكيـون و البريطـانيون و الأسـبان عـن فكـرة الإعتمـاد علـى المجتمـع الـدولي و يقـررون الـذهاب الـى الحـرب لوحـدهم . .
الثـامن عشـر مـن آذار . . النـاطق الرئاسـي الأمريكـي يعلـن عـن غيـاب أي مؤشـر لإذعـان الفـوهرر العراقـي . . و يعلـن عـن إعطـاء مهلـة ثمـان و أربعين ساعة للفوهرر من أجل الإستسلام . .
الأربعـاء التاسـع عشـر مـن آذار . . طـارق عزيـز وزيـر خارجيـة الفوهرر يظهر في التلفزيون للرد على إشاعات فراره . .
تلـك الليلـة . . و علـى عادتـه منـذ شـبابه الأول . . يسـتفيق حمـدان مـن نومـه مبكـرا و يغـادر السـرير الـى المطـبخ ليُعـدِّ الفطـور و يفـتح الراديـو و قد تركـه علـى إذاعـة البـي بـي سـي، فيتفاجـأ بالمـذيع ينقـل أخبـار الهجـوم على العراق دقيقة فدقيقة . .
إذن . . هـا هـي بانـدورا قـد أتـت! . . تجـيء لتشـيع خرابـا أخـرَبَ مـن أي خـراب سـابق أتـت بـه الحـروب السـابقة . . قـدِمت فـي مـرات سـابقة و لـم تفـتح صـندوقها و إكتفـت بـالإعلان عـن كنزهـا الشـرير المخبـوء أهـوالا . . جاءت هذه المرة لتفتح صندوق الشرور المطلقة ها هنا!

إنقبض قلب حمدان و كاد أن يذوب في جوفه . . الشرور القادمة هي الشرور المطلقة، لأنه هو الذي بأم عينه رأى في مرة سابقة ما يعنيه إتيان بوش الإبن بجيش مدعوما بجيش بلير و جيوش أخرى . .
الخميس . . العشرون من آذار ٢٠٠٣ . . بعد ساعة و نيف من إنتهاء المهلة المحددة للفوهرر من أجل الإنصياع لمطالبهم إنهالت الصواريخ لتدك مراكز قيادات الفوهرر العسكرية . . و تعلن بداية الغزو . . إسرائيل بحاجة لإختبار كفاءة صواريخها من خلال ضربات صاروخية ستتوالى لتوقع خسائر فادحة في أوساط المدنيين .

.

هدير الحمم التي تنصب على أرض ميزوبوتاميا يرد عليها صوت محمد سعيد الصحاف الملعلع توعدا للعلوج بضربات ساحقة ماحقة ..
عاد حمدان الى السرير ليوقظ لمياء . . كعادتها تعاند و تتكاسل و تماطل بالإستيقاظ و النهوض، و كي يجبرها على الإستيقاظ و النهوض إعتاد على مد يده متعمدا و بسط كفه الباردة بلؤم على أي موضع من جسمها، فتجفل و تصرخ به أنها ناهضة . . هذه المرة أمسكت كفه بزندها العاري مع هزة لإيقاظها، فأجفلت مرتاعة تتطلع إليه مغالبة النوم و و إستفسرت:

- هاي شبيك حمدان! . . بردان لو مريض؟ . . إيدك جاي ترجف و تختض مثل السعفة!
- لا بردان و لا مريض! . . بندورا وصلت الى أرض الرافدين!

لم تستوعب الأمر أول وهلة . فعقبت بإنزعاج:

- بندورا! . . حمدان . . يا بندورا حمدان؟

فعلق و هي ما تزال تغالب النوم:

- . . ست لمياء . . بندورا جاءت . . و إذا حرب صدام و خميني بثمان سنين ما حركت غير ربع نخل البصرة . . و إذا حرب بوش الأب بعدها حركت من نخل البصرة ربع آخر . . فهالمرة بندورا جايه حتى ما تخليلنه بالبصرة و لا سعفة ترجف من هوا أو من بردا!
- و لك حمدان! . . يا بندورا هاذي اللي جايبلي خبرهه من الصبح و جاي ترجف منها؟ . .
- الهجوم الأمريكي البريطاني على بلدنا بدأ!

و تفز لمياء و تنهض من السرير نصف عارية . . و تذهب لتفتح التلفزيون . . .

الصحّاف . . أحمد سعيد[18] حقبة الشرق الأوسط الحالية . . يتوعد العلوج القادمين لغزو العراق بالموت و الفناء و يضج البث بعد تهديداته بتكبيرات . . الله أكبر! . . الله فوق المعتدي!

و تتوالى الأحداث . .

الثلاثاء الأول من نيسان ٢٠٠٣ . . قوات الغزو تقتحم العراق من الجنوب بدء المعارك في منطقة البصرة . .

الأربعاء الثاني من نيسان . . هجوم شامل لإجتياح بغداد تسبقه معارك في الناصرية ..

الخميس . . القوات الأمريكية على بعد خمسة عشر كيلومتر من بغداد . .

الجمعة . . بلير يوعد العراقيين بعهد جديد زاهر . . و الفوهرر ما يزال يتباهى بقدرته على ردهم . .

السبت . . قوة مجولقة أمريكية تقتحم كربلاء . .

الأحد . . مصير مطار بغداد الدولي مجهول . .

الإثنين السابع من نيسان . . قوة عسكرية أمريكية تدخل القصر الجمهوري.

الثلاثاء . . المؤرخ البريطاني جورج كغن يعلن ان خطة الفوهرر الدفاعية كانت أسوأ خطة عرفها التاريخ . .

الثور الأثول وقع . . و ما أكثر السكاكين! . .

الأربعاء التاسع من نيسان . . القوات البريطانية تدخل أحياء بغداد . .

و يسيح قلب حمدان و يسح دمعه . . و لمياء ما تزال عصية دمع!

بعد يوم . . بلير و بوش يوجهان رسالة الى العراقيين فحواها أن النفط سيكون مصدر رخاء للشعب العراقي . .

---

[18] "أحمد سعيد" . . المطلق المصري المشهور الغوبلزي النفس . . "إكذب و إكذب و إكذب لغاية أن يصدقك الآخرون!" . . و كان يتحدث من إذاعة "صوت العرب" و يصور الهزائم التي تجرعها الجيش المصري في حرب حزيران ١٩٦٧ و يصورها للمستمع إنتصارات مزعومة بتدمير عشرات الطائرات و مئات الدبابات للعدو الإسرائيلي!

ما أكثر الكذابين! . . و يتفتت قلب حمدان . . و لمياء ما تزال عصية دمعٍ!
بعد يوم الأتراك ينذرون القوات الكردية بعدم إنتهاز الفرصة بإحتلال الموصل و كركوك . .
و يتذكر حمدان ما قاله لأبي عدي صاحب المطعم في مرج الحمام عن جمع الإنتهازيين المستفيدين!
بعد يوم . . القوات الأمريكية تدخل الموصل دون قتال . .
بعد يوم . . القوات الأمريكية تبحث عن الفوهرر الفار . . و فرار الصحتاف غوبلز العراق بعد إنهيار ستراتيجيته عن العلوج . .
الأحد الثالث عشر من نيسان . . الجنرال تومي فرانكس يعلن أن العراق كله بات تحت الإحتلال . . و أنهم في إحتلالهم لمدينة تكريت عرين الفوهرر لقوا مقاومة أقل مما توقعوا بكثير . .
و ها هي بندورا تتهيأ لفتح صندوقها . . و تنضب مآقي حمدان من الدمع . . و لمياء ما تزال عصية دمع!

* * * * *   * * * * *   * * * * *

أوائل مايس ٢٠٠٣ . . مدرسات و مدرسي و موظفي المدارس العالمية أغلبهم فلسطينيون حمساويون عدا فدوى عبد ربه، و معهم نفر أردنيون و نفر أقل عراقيون. كانت دنياهم قد قامت منذ بدء الغزو الأمريكي الى العراق و لم تقعد بعدُ، بدخول حمدان الى القاعو الصغيرة نسبيا، حيث يجلسون عادة حول طاولة بيضوية كبيرة للإستراحة فيما بين الدروس . . زاهي الحمساوي العائد من أفغانستان و لا يخفي علاقته السافرة بإبن لادن و لا يدع زميلة من زميلاته لا يتحرش بها . . نجاة الوائلي البعثية الصدامية بطلعة موتورة من كوت العراق أتت لأن راتبها في دولة الفوهرر لا يكفي لشراء بيضتين . . الـچلـب يحب خناگـه! . . صباح طوقان المقدسية المعتادة على الوقوف يوميا في أحد الشرف الخلفية في المدرسة تتطلع غربا نحو القدس التي تزعم أن أنوارها تلوح لها ليلا من أعلى رابية في عمان و تغني . . كحلون يا بلدة ستي اللي بعيدة كحلون . . و مصابة بالخيبة من قصة عشقها مع النقشبندي! . . أحمد الطويل المقدسي الذي لا ينام إلا بعد أن يتخيل أنه يرى أنوار القدس من سطح بيته فوق تلة ليست بعيدة عن مرج الحمام . . نوران الرملاوي اليسارية التي تفهم الأمور

علـى نحـو مختلـف . . رنـا الأردنيـة العجلونيـة تتمـاهى مـع أحاديـث حمـدان عـن الثقافـة . . زاهيـة البرغـوثي المقدسـية التـي تحـاول أن تتذكـر حمـدان دائمـا بتفسيرها للقبهـا العـائلي نافيـة أن تكـون لـه علاقـة بالبراغيـث و تنسـب علاقتـه بالبـرّ و الغـوث . . و . . و . . و . . و من هوسـهم بـالأمر الجلـل بقرار الفوهرر الـذي كـان يضـخ إلـيهم ملايـين الـدولارات و كوبونـات نفـط مجانيـة . . تريـث حمـدان واقفـا فـي البـاب يتفـرج علـيهم. و يلقـي التحيـة علـى الجمـع، و لا يـرد أحـد مـنهم! . . مشـغولين بأخبـار الفـوهرر الفـار و قـد تحـول فـي مخيلـتهم الـى شخصـية ستشبه ربمـا عبـد الـرحمن الـداخل الفـار مـن أجـل تاسـيس لسـطوة جديـدة فيمـا سيسمونه فيمـا بعـد جنـة الأنـدلس الضـائعة . . المخيلـة مكـان شـديد الخطورة على المرء ألا يذهب إليه و قد تلبسته الأوهام!
يبتلع حمدان تجاهلهم لتحيته و يجلس بينهم صامتا . .
منـذ بـدء الهجـوم علـى بلـده و الفضـول يـدفع حمـدان للتواجـد بيـنهم دائمـا يسـمعهم يـرددون . . الله أكبـر! . . بعـد كـل تصـريح يتسـرب مـن محمـد سـعيد الصـحاف . . و يسـتمع إلـى المزيـد مـن ردود أفعـالهم تجـاه الهـزة التـي تلقتهـا منطقـة الشـرق الأوسـط و لا تشـبه أيـة هـزة سـابقة بـأي مقيـاس، لا فـي الـدوي و لا فـي المرامـي، و لا حتـى فـي تشـكيلة الجمـع الغـازي مـن الجيـوش، و لا حتـى فـي نـوع الجـرذان و الضـباع و الكـلاب و بنـات آوى و قـروش البحـر التـي تتبـع الجيـوش عـادة. و هـو معتـاد علـى الإسـتماع لأوهـامهم يـدلون بهـا كـل يـوم بـل و كـل سـاعة، بخاصـة أولئـك المتعـاطفون مـع حمـاس و حـزب الله و الجهـاد الإسـلامي . . الحـزام الناسـف الـذي يريـد أن يفنـي إسـرائيل و لـم يـره حمـدان أو سـمع بـه يفنيهـا! . . لا يهـاجمون غسـرائيل إلا إذا هـاجمتهم و يـردون عليهـا أو يجـدون بـين حـين و حـين معتوهـا مهوسـا بحـور عـين السـماء و يرسلونه ليفجـر نفسـه علـى الإسـرائيليين و يظلـون بعـدها يكبـرون لثلاثـة اشـهر أوسـتة اشـهر أو لغايـة أن يجـدوا معتوهـا آخـر يـذهب بحـزام ناسـف! . . الشـر الإسـرائيلي لا يسـتقيم مـن دون وجـود مـن يحـيط بإسـرائيل مـن حكـام بعيـدين أو قـريبين . . البـزازين المسـتفيدة مـن المعثرات! . .
و قـد إعتـاد علـى ذلـك منـذ أول يـوم جـاء بـه الـى المـدارس العالميـة، يجلـس حمـدان بـين البـزازين يتفـرج علـيهم دون تعليـق أو مشـاركة فـي

حديث . . الأردنيون يتلقون من الفوهرر نفطهم مجانا أو بإسعار رمزية عدا الكوبونات التي تذهب الى شخصيات اردنية هي أبواق الأرومة العروبية، هذا عدا ما تتلقاه البنية التحتية الأردنية من توظيف لأموال حُرِمَ منها العراقيون . . الفلسطينيون يتلقون ملايين الدولارات و كوبونات نفط و أسلحة . . يصغي حمدان إليهم متيحا الفرصة لفطرته السليمة كي تلتقط من بين سطور لغطهم، قدر المستطاع، مفردات تفضح مقدما حسبتهم لخسائرهم القادمة . . يا لرخصنا! . . إلا نحن . . لا أحد يحسب خسائرنا! . . بل أثمة أحدّ عبأ بخسائرنا يوما! . . نحن العراقيون منذ تسلل الفوهرر العوجاوي الى السلطة بمعونة أمريكية لم تطرأ خسائرنا على بال أحدا! . . بل و حتى الخسائر الأقدم التي سبقت مجئ الفوهرر للسلطة هي الأخرى لم يعبأ بها أحدا! . . معبأُ الجميع أن يعتبنوا مالنا و لا يعبأوا بنا! . . و تذكر ندوة السفير العراقي عن حصة العرب في نفط العراق و تعليقه عليها و فراره من القاعة و من سكنه في الصويفية أيضا بسبب ذاك التعليق . . نفط العراق للعرب و لغيرهم . . طزززززززز بالنفط و بالعرب! . . نحن الخاسرون أبداً!

لم يتبق سوى دقائق ليدُقَ جرس الدرس . . يستمع لفوضى حماسة تعليقاتهم . . يستمع إليهم، الكل يشتمون على موائدهم الخاصة الأمريكيين و الغربيين الكفار عموما و أسلوب حياتهم، مع أن هذا الكل يراهم يتحلقون أغلب أيامهم حول سفارات الغرب للحصول على فيزا إقامة دائمة هناك . . بندورا أتت و لكنها لم تفتح الصندوق بعد! . . أم أنها لربما فتحته و حمدان لا يدري لأنه ما يزال بعيدا عما يجري هناك على أرض الرافدين! . . جالسٌ يستمع إليهم متلهفين الى التحلق من جديد حول أي مصدر للبث علّهُم يلتقطون صوت محمد سعيد الصحاف الفأر الغوبلزي الفار. هم بأمس حاجة لموقف ينفّس عن حاجتهم للصراخ . . الله أكبر! . . و يمر بخاطره أبو ذر المحمداوي رفيق سجنه في شباط ١٩٦٣:

- . . بويه حمدان . . هذوله هالشاكلة من الخلق . . واحدهم يتوضا مية مرة گبل ما يروح للصلاة . . بيهم وسواس وضو . . تدري ليش؟ . . لأن الوساخة و الدناءة مترسبة بدمهم . . و آنه لما أسمع أي واحد منهم يصيح . . الله أكبر! . . ألزم أفادي

و أرايد أعرف . . هذا إلمن راح ينهب! . . أو بيمن راح يزني!
. . أو منو اللي راح تنكسر ركَبته بشهادة زور! . . تسمعهم
ليل نهار يصرخون . . لا ضرر و لا ضرار! . . و همَّ حتى
لما ينامون وي نسوانهم بيهم ضرر و ضرار!

شوقه المتنامي لتذكر أحاديث أبي ذر سيجعله اللحظة يقطع على نفسه عهدَ أنه لو عاد الى العراق سيتعنتى عناية يقصد بها العمارة للسؤال عن أبي ذر، ذاك الشروكَي النبيل . . و بإنشغال فكره بأبي ذر تأتي لمياء . . يسمعها تلقي التحية، و هي الأخرى لا تتلقى ردا على تحيتها . . مشغولون بحساب خسائرهم! . . و يتطلع حمدان إليها تتفرج عليهم مشدودين و القحة سافرة على سيمائهم. تطلعت الى حمدان، لأنه هو الوحيد الذي رد على تحيتها، فأشار إليها بالجلوس. و جلست قبالته تقريبا، يصغيان بإهتمام الى الهوس و الإنفعالات المتناثرة على الطاولة المستديرة. و يحس بأحاديثهم أغلبها تمرق مثل البرق من فوق الصحيفة الموجودة فوق الطاولة، يتخلل حديثهم ذكرٌ للمجاهد بن لادن . . و المجاهد حسن نصر الله . . و الشيخ أحمد ياسين . . و خالد مشعل . . و مجاهدين آخرين لم يسمع بهم! . . يتجهمون بشتيمتهم للمحتلين الأمريكيين الذين إستباحوا أرض الإسلام بالكامل! . . ها هي هنا ثلة تهرِّج بآيات الجهاد! . . ذكـَّروه بطه الحسيني و جهامته الضفدعية. و يحتار في أمرهم . . و يتذكر هذه المرة حديثه مع مس فدوى . . أهمُ أوسخ أم الإسرائيليون الصهاينة؟ . . و جهان لعملة واحدة! . . مَن خَلق إسرائيل داهيةٌ و ساحرٌ لا يبارى . . من أوجد إسرائيل متضلعٌ في قواعد اللعبة فوضع الأمر كله بنصاب من نوع . . أخلـُقْ إسرائيل و ستنخلق في المنطقة القذارة الأصولية من تلقاء نفسها! . . الإسلامية تأتي أولها و تتبعها القذارة الأصولية المسيحية و تروح كل الطوائف الأخرى لتزوع قذارتها الأصولية و البادئ أظلم حتى لو كان جمهور الطائفة بشرا فردا واحدا لا غير فسيجد هذا الفرد نفسه قد أوجد طائفته و يحتد كي يخلق من نفسه قذارة أصولية على وفق مبدأ . . حشرٌ مع الناس قتل! . . و ما فيش حد أحسن من حد! . . و يروح يحارب . . و تختلط الأوراق جميعها على المتحاربين الأصوليين . . و الساحر خالق إسرائيل هو دون ريب من بيده تعديل مسارات اللعب بالقسوة و الوحشية! . . و

هنا أو هناك قد يوجد ساحر يخلط الدين بالطائفة و بالقومية و يطلقُ وحشا فتاكا من نوع رنكو ميلاديتش الوحش الذي أطلقوه في البوسنة ليقتل ثمانية آلاف مسلم غدرا في غضون أيام. و هكذا ستنبعث القذارة الأصولية أيان لا تدري و حيثما لا تدري . . دوغمائية دين ممزوجة بديماغوغية قومية . . جمع للقذارة من كل أطرافها! . . الساحر الذي يبتدع كل هذا ليس إلها بالتأكيد و إنما ممتهنَ إختلاق آلهة! . . ثلاثة ارباع إله! . . نصف إله! . . ربع إله! . .
و من خلال خواطره ينتبه حمدان فجأة الى إنشداد أنظار الجمع، و هم يتخبطون في حديثهم خابطِ ليلِ أليلِ، الى صحيفة الدستور الأردنية ملقاة على الطاولة. و بلمحة سيلاحظ حمدان ما فات إنتباهه امدة وجوده بينهم اليوم. و هم يلوكون الكلام، ثمة على الصفحة الأولى للجريدة ما تمر عليه أنظارهم جميعا و هو غافل . . صورة كبيرة لرجل دين عراقي . . محمود بدر الحكيمي . . عائدا من إيران و الصورة ملتقطة أثناء إلقائه خطابا في النجف . . و يمر بخاطره فورا . . المحرر اللي إختار الصورة صدگ واوي أبن واوي إبن واوي إبن واوي إبن واوي! . . الحكيمي يتجلى في الصورة بملامحِ منذرةٍ متوعدةٍ مهددةٍ و حقودةٍ و لا تخلو من قحة و صلافة و عدوانية و قسوة . . فيها كل أمارات الوحشية . . صورة تبلغ غايتها في تجسيد فلسفة الرعب الذي قيل عنه أنه يصيب من يسمع به من مسيرة شهر! . . منتصرون بالرعب! . . و يمر بخاطره مرة أخرى . . محررو الدستور . . أيا أولاد الگحبة! . . خبثاء و ماكرون . . أبلغت بكم البراعة هذا الحد بإختيار اللقطة؟ . . لقطة الصورة لا تحتاج لأكثر من وضع . . أسم صاحب الصورة تحتها . . و تكون الصورة بذاتها كافية لبث الرسالة الخبيثة المُبيتّة!
يصغيان هو و لمياء الى آخر التعليقات صامتين . . و يسمعون نجاة الوائلي فجأة تعلق مشيرة بإصبعها الى صورة الحكيمي:
- هذوله عملاء إيران!
نجاة الوائلي تتطلع إليه و كأنها تريد ردة فعله هو لا ردة فعل غيره. فسرح نظره نحو صورة الحكيمي في الجريدة، و ينصرف ذهنه الى نظرية الدومينو . . فما سماه كيسنجر نظرية الدومينو عن كيفية أيقاع دول الشرق الأوسط المفلوشة الى الحضيض، حمدان لا يكتفي

بالتفسير الشائع للنظرية و فحواه . . مصفوفة أحجار لعبة الدومينو ما عليك سوى أن تسقط الحجر الأول على الذي يليه فيبدأ سقوط الأحجار المصفوفة وراءه تباعا . . حمدان يريد أن يضيف على هذا التفسير بعدا يستقيه من قواعد اللعبة . . ضع شَش فيضطر الخصم أن يضع شَش . . و إن لم يستطع فهو خاسرا! . . أيكون هذا الذي في الصورة بعض من شَشْ دومينو أو جهارْ دومينو أو پَنجْ دومينو . . و ألقي هكذا مع مجيئ جيوش بوش . . كي يهيئ لظهور لاعب خصم كامن يضطرونه فيما بعد الى وضع شَشْ أو جهارْ أو پَنجْ أزاءه و إلا فسيخسر! . . الجمع حول الطاولة المستديرة صامت و كأنهم متماهون مع نظرات نجاة و مثلها ينتظرون تعقيبه و لم يكن قد صرح بموضوع سياسة أمام اي منهم . . أسيقول لهم إن هذا هو أول ما أفلت من شرور صندوق بندورا و نحن بإنتظار الباقي! . . لا! . . لأن الجالسين عنا حول الطاولة الأهليليجية ليسو أفضل لأنهم الأبالسة الذين سيجاهدون البليس الذي في الصورة ورهطه . . فعقّب على قول نجاة الوائلي:

- تگولين عميل لإيران! . . و أمريكا اللي يسميها الإيرانيون الشيطان الأكبر هي اللي مهدت هسه لهذا المعمم سبيل الوصول الى العراق! . . مفارقة! . . على رأي إسماعيل الفرّوَچي . . شي ما يشبه شي! . . تقصدين مثل ما مهدت الدبابة الأمريكية السبيل قبل خمسة و ثلاثين سنة عام ١٩٦٨ للفوهرر العوجاوي حتى يمسك برقابنا و يحارب الإمبريالية الأمريكية حليفة الصهيونية؟ . . مفارقة!

و كأنها أفحِمت، لم تعلق نجاة الممتعضة الجهامة على تعقيبه . . و يشير زاهي الحمساوي الى الصورة معلقا:

- أستاز حمدان . . أنا بدي أعرف . . هدول الشيعة . . هُمْ ناس مسلمين لو هُمْ إشي آخر؟

و تظهر الوائلي إمتعاضا سافرا من سؤاله بإلتفاتها نحوه مستنكرة . . و لأن زاهي يخاطبه هو شخصيا على نحو يفتقر الى اللياقة، سيرد حمدان:

- شوف أستاز زاهي . . إنتَ تسأل هيك و كأنك ما تدري إن هَيْدا اللي سميتو قبل شويه المجاهد حسن نصر الله هو

شيعي! . . و كأنك كمان لهلق ما تعرف إنو نجاة هيدي اللي قاعدة جنبك هي شيعية! . . و إزا إنتو المسلمين تبع الأفغان بتحكو هيك عن المسلمين تبع إيران . . و إزا كانو هُمَّ كمان بيحكو عنكم هيك . . فأنا لا ناقة لي و لا جمل بهالحكي . .

- ليش؟

- . . أنا مش من دُول و لا من دُول! . . و هو صحيح أنا رجل مؤمن بوجود خالق لهيدا الكون . . بس أنا تفكيري مختلف . . أنا لا من تبع إيران و لا من تبع الأفغان! . . و لا كمان من تبع الأمريكان! . . بس الإشي اللي متأكد منو هو أن الأمريكان هُمَّ اللي صنعوا أسامة بن لادن. . و حلفاء الأمريكان في باريس كمان خلقو و ربّو الفوهرر الإيراني و أطلقو من شان يتحارب ثمان سنين مع الفوهرر تبعنا اللي جابو الأمريكان . . و هلق جايين بدهُم يخلصوا منو . . ورقة محروقة! . . بالزبط متل ما حرقو قبلو ورقة بن لادن! . . و هم هالمرة كمان جايين لبلدي من شان يكملو تهديم اللي ما هدموه من قبل بحرب الكويت . . جايين يخلصون بالكامل من صدام زَلَمتهُم القديم . . و أنا كمان ما استبعد أن يكونو زلامهم اللي جاين هم من نوع الزَلَمة الموجودة صورتو بالجريدة هوني قدامكم! . . و أنا شخصيا مستني بندورا تفتح جرَّتها بالكامل من شان أتأكد من ظني! . .

يسود في الغرفة صمت كامل. . الجمع يصغي لتصريح حمدان الذي سيشير الى لمياء مخاطبا زاهي الحمساوي:

- أما عن كون الشيعة مسلمين أو غير مسلمين . . لعلمك يا أستاز الحمساوي . . هايدي قدامك مدام لمياء . . و هي حسب علمي شيعية . .

كشفٌ كبير . . لمياء شيعية! . . فيتلفتون نحوها مستمعين لحمدان يضيف بسخرية مرة و سخط:

- يا أستاز زاهي . . و بإمكانك تسألها من شان تعرف إزا كانت هي مسلمة أو مش مسلمة . . و كمان تقدر تسألها هي بأي إنجيل تقرا . . بإنجيل لوقا أو إنجيل يوحنا! . . أو بإشي آخر!

و تجتاح حمدان رغبة للخلاص من السماجة التي تفوح من المكان، فينهض ليغادر، و يفاجوه في باب الغرفة موظف الإدارة في المدرسة ملقيا التحية، و في حلق الباب يسلّمُ حمدان إستمارة من نوع ما. و يتنحى حمدان جانبا مفسحا الطريق للرجل كي يدخل ليوزع على الآخرين نسخا من الإستمارة ذاتها و يطلب منهم الرد عليها خلال يوم يومين.

* * * * *　　　* * * * *　　　* * * * *

أثناء تناولهما الغداء في البيت تسأله لمياء عن فحوى الإستمارة التي وزعوها على كادر التدريس . . و يرد عليها:

- يريدون يعرفون إذا آني راغب بتجديد عقد عملي في المدرسة أو لا!
- وشراح ترد عليهم؟
- على الأغلب . . لا أرغب!

يلوكان طعامهما بصمت . . و بعد دقائق تستفسر لمياء:

- و هذا معناه إنت تريدنا نرجع لبغداد؟ . . لو تريد إنت تغير مكان عملك؟
- على الأغلب . . الخيار الأول!
- حمدان إنت ليش هيچي مستعجل على العودة؟ . .
- أكذب عليچ إذا زعمت آني نفسي أعرف ليش أريد أرجع بهالسرعة!
- إذن . . ليش ما تتريث؟ . . خلينه نگول . . فد سنة! . . لغاية أن ينجلي الموقف . .
- ما أخفي عليچ نياتي و لا قلقي . . إحنه في حالة فرار دائم! . . تدرين ليش؟
- ليش؟
- . . إحنه عدونا مو واحد معلوم . . أقصد مو واحد نعرفة بالهوية و بالإسم حتى نگدر نروح نكمشه كمش يد . . مثل ما نشوف بالأفلام الأمريكية . . نروح نجول بحثا عنه بالجبال أو بالصحاري أو بالبراري و نعثر عليه و نكمشه و نسلمه للبوليس . . أو نقتله و نرتاح و نروح ننام!
- و الحل؟

يتريث بالإجابة، و تمرق في ذهنه الصفحة الأولى للجريدة و فيها صورة آية الله العظمى محمود بدر الحكيمي العائد من إيران بعلم قوات الإحتلال الأمريكي و ربما برعايتها . . فهو يتذكر جيدا كيف أجل الأمريكيون إسقاط صدام ١٩٩١ بذريعة تدخل الإيرانيين في إنتفاضة آذار في الجنوب . . و ها هم يغضون الآن الطرف عن عودة رجل دين و آخرين غيره من الفارين الى إيران . . فما الذي سيجري؟ . . أو على رأي المصريين . . إيه الحكاية بالزبط! . . فيتذكر حديث رفيق سجنه أبي ذر المحمداوي عن إمكانية إحياء خلاف بني عبد شمس مع بني عبد الدار بقدرة قادر عبر الأزمان على النفوذ و المال و السلطة و يروح ضحيته ملايين القتلى عبر القرون بغض النظر عما يتزيا به الخلاف في أي عصر من أحاديث عن الربوبية و الروحانية لإستغلال عاطفة و غباء جمهور جاهل بجوهر الخلاف بين بني عبد و بني عبد آخر، و يسوقوهم للإنخراط بالإقتتال و تجديد روح الإنتقام و الإنتقام المقابل؟ . . و من بين مفردات تيار وعيه مع أبي ذر تنبثق فجأة ملامح بثينة الصفار . . فيتحسر و تعقب لمياء:

- روحك إلك عيني! . . ليش تحسرت؟

صورة آية الله العظمى الحكيمي تأبى المغيب من خاطره مختلطة بصور الشروگية الفقراء الغوغاء ظهرت على التلفزيون ينهبون دوائر الدولة و وزاراتها. بل وراح يتخيل صورة المعمم مرسومة على غطاء صندوق بندورا الملآن بتحاسير و بلايا و مصائب لا عد لها . . و يقول للمياء:

- إحنه عموما واگعين بوهم أن رحيل الفوهرر العوجاوي راح يحل كل مشاكل العراقيين . . في حين إن اللعبة هي أكبر بكثير . . لأن هو جزء من لعبتهم . . اللعب كله مالهم . . إحنه ما لنا دور باللعب! . . جابو الفوهرر گبل خمسة و ثلاثين سنة و خلو حارس لنفطهم . . و شفنه بعيونه أي نوع من الإستهتار بحقوقنا مارسه ويانه حارس نفطهم!
- نفطهم!
- نعم . . لو راح تكذبين على نفسچ و تگولين هو نفطنا! . . إحنه ما لنا دور . . دورنا هو مسح أحذية الحارس . . مع أن

البعض منا ما تهون عليه نفسه . . و يرفض يشتغل صبتاغ قنادر و يفر . . أقصد الناس اللي مثلي! . . نتصور الفرار هو الحرية . . في حين إن الفرار هو مو الحرية .. شتعتقدين؟ . . إحنه هسه ناس فارين . . إحنه أحرار؟

لمياء لا تعلق . . فيواصل:

- و لما بكواليسهم قررو يبدلون حارس نفطهم بدأو يروجون من زمان الى أن جمهورية هذا الحارس هي جمهورية خوف! . . و هسه ممكن أتخيل . . يبدو همَّ قررو فعلا يغيرون حارس النفط . . و يجيبون غيره! . .
- و شنو يعني؟
- يعني . . ينتابني مجرد فضول . . بالعودة قهقرى . . أريد أرجع حتى لمجرد حتى أشوف بعيني نوع الإستهتار اللي راح ينفلت من صندوق بندورا!
- شنو هالبطر؟ . . ترجع بس فقط لإرضاء فضول من هالنوع!

لو كانت لمياء تعلم نوع الفضول الذي قاده الى طرابلس الغرب لما إستغربت منه رغبته الجديدة، و لكنها لا تعلم لأنه كذب عليها بشأن سبب ذهابه الى ليبيا و عودته منها بزعمه أن الأمر لم يرق له هناك!

* * * * *　　　　　* * * * *

الخميس من الأسبوع نفسه . . يسمع دقات على باب غرفة الصف. يقطع الدرس و ينفتح الباب، فيتفاجأ بيوسف العناني المدير العام للمدارس العالمية، الذي سحبه الى خارج الصف مستفسرا:

- شو هاي أستاز حمدان؟
- شو أستاذ عناني؟

و يرفع العناني ورقا في يده أمام ناظري حمدان . . مستفسرا:

- ليش ما بدَك تعقد معانا على السنة اللي جايَة؟ . . وين رايح على الخليج؟

واضحٌ أن العناني، بمجيئه إليه برجليه الى قاعة الدرس، يريد ألا يخسر مدرسا يعمل عنده بنصف أجر المدرس الأردني! . . فرد قائلا:

- لا أستاز عناني . . لا خليج و لا بطيخ! . . أنا راجع بلدي!
- راجع وين؟ . . راجع على علي بابا!

•

كـان تعبيـر . . علـي بابـا و الأربعـين حرامـي . . قـد شـاع صـفة للعـراقيين بـين الأردنيـين و الفلسـينيين فـي عمـان أول دخـول الأمـريكيين الـى بغـداد تـروج لـه الفضـائيات مصـورة غوغـاء شـروگـية بغـداد منتهبين لأثـاث دوائـر الدولـة العراقيـة و وزاراتهـا. و يحـس حمـدان بإهانـة شخصـية، و يثقـل عليـه تأنيـب الرجـل بالعربيـة، فتـأتي ردة فعلـه بالإنـگليزية:

- Mr Ananee, behave yourself![19] I am going back to my country, to my homeland!

إنتهـى الكتـاب الثـاني مـن . . **خماسـية السـخط** . . و يليـه الكتـاب الثالث . .

و پـانـدورا جـاءت بـالـجـرَّة!

[19] التعبير معناه "تهذب!"

عن المؤلف

- ماجستير في التربية/ علم اللغة التطبيقي- الإنكيزية/جامعة ديالى
- دبلوم عالي (المعادل للماجستير) في الترجمة/ جامعة بغداد
- بكالوريوس في اللغة الإنكليزية و آدابها/ جامعة بغداد

• في التأليف صدر له:

- الكتاب الأول من "ثلاثية بعقوبة . . بعقوبيتون" / دار الجواهري للنشر و التوزيع -بغداد بالإشتراك مع دار العودة – بيروت/ 2017
- "خماسية السخط . . قبلة الحصان الخشبي" /مؤسسة العصامي للطباعة و النشر و التوزيع/ بغداد/ ٢٠١٨
- "جرذانٌ ضباعٌ قروش"/ دار العصامي للطباعة و النشر و التوزيع/بغداد/ ٢٠١٨

• إضافة الى الكتاب الثاني من "خماسية السخط . . و يصح قول الجدات"، سيصدر له تباعا:

- "خماسية السُخط . . باندورا جاءت بالجرة" (تحت الطباعة عند الناشر)
- "خماسية السُخط . . الحزن لا يغسله موج البحر" (معدة للنشر)
- "خماسية السُخط . . خلاف الوعد" (معدة للنشر)
- "ثلاثية بعقوبة . . و للحب قرابين" (رواية- قيد المراجعة)
- "ثلاثية بعقوبة . . لوعة الصبايا" (رواية- قيد المراجعة)
- "الوجد عند مرقد خضر إلياس" (رواية في طور الكتابة)

• و في الترجمة صدر له:

- "علم الجمال عند الفيلسوف إيمانويل كانت" (في فلسفة علم الجمال/مترجم الى العربية)/ دار الشؤون الثقافية- بغداد/ ٢٠١٢
- "شعراء و قصائد من الشعر الإنكليزي" (مترجم الى العربية)/ دار الشؤون الثقافية- بغداد/٢٠١٣
- محاكاة جديدة: شيكسبير و تمثله للواقع" (في النقد الأدبي/ مترجم الى العربية)/ بيت الحكمة- بغداد

Gulstan And Night- (رواية كوردية قصيرة/ مترجمة الى الإنكليزية بالإشتراك مع المترجمة و غيداء الفيصل)/ إتحاد الأدباء الكورد- المركز العام- أربيل/ ٢٠١٣

- في الإعداد و التحرير
  - صدر له:
  - Appreciation of Poetry: Romantic and Victorian Poetry 2017 كتاب منهجي/ دار نور للنشر/ ألمانيا/
  - An Approach to English Literature Appreciation

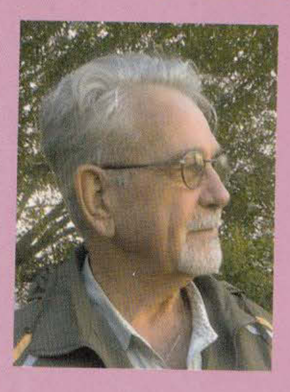
كتاب مدرسي لطلبة الجامعة/جامعة نوروز- مطبعة هوار- دهوك/٢٠١٣
  - و سيصدر له:
  - An Introduction to Commercial Correspondence (كتاب مدرس مخصص لطلبة الجامعة)
- من الكتب المترجمة المعدة للنشر:
  - "الجنس الأدبي" (كتاب قيد النشر في بيت الحكمة)
  - "البنية التحتية لوزارات الزراعة في خمسة بلدان" (كتاب في علم الإدارة الزراعية- معد للنشر)
  - "المياه العابرة للحدود و تركيا" (كتاب يتناول مشكلة المياه في الشرق الأوسط- معد للنشر)
- و في النشر أيضا إضافة الى:
  - (بالعربية) عشرات المقالات، تأليفا و ترجمة، في النقد الأدبي و الترجمي و الفن و الفلسفة و التربية و الثقافة و الأمور العامة، و
  - (بالإنگليزية) العديد من البحوث الميدانية في علم اللغة التطبيقي.
- الموقع الشخصي على الإنترنيت:

http://ahmedkhalishalan.blogspot.com

البريد الأكتروني: a_kh_shalan@yahoo.com



Outlook
Volume II of
The Indignation Quintet ...
What Grandmas Said, Could Be Right!
A Novel By: Ahmed Khalis Al-Shalan



الكتاب الثاني من
خماسية السخط . . . ويصح قول الجدات
رواية أحمد خالص الشعلان

الحياة أشبه ما تكون بحكاية محيّـــرة . ..
- فهل ما نسرده و نسميه رواية هو إفراز عقلي لما عشناه من أحداث سابقة . . أم أن ما نكتبه هو سرد قبلي لما سنعيشه من أسطر الوجود؟
ومن يجدني في سفري هذا أترنح بين الأمرين فليعلم ..
هذا كتابي في يساري . .
هو جنتي . .
و هو ناري!

أحمد خالص الشعلان

العراق . بغداد . شارع المتنبي
+964 (0) 7703670874
+964 (0) 7902632131
thaer.jafar1965@yahoo.com
مؤسسة ثائر العصامي

